

التاريخ السياسي والحضاري للدولة العباسية

البروفيسور
محمد حسن العيدروس

دار الكتاب الحديث

التاريخ السياسى والحضارى
للدولة العباسية

البروفيسور / محمد حسن العيدروس

دار الكتاب الحديث

العيدروس ، محمد حسن .	
التاريخ السياسي والحضاري للدولة العباسية/ محمد حسن العيدروس . ـ ط1 . ـ القاهرة : دار الكتاب الحديث ، 2010	
322 ص ؛ 24 سم	
تدمك :0 - 978-977-350-300	
1- الدولة العباسية. 2- العالم العربي ـ تاريخ ـ العصر العباسي.	
أ ـ العنوان .	
953.04	

رقم الإيداع /2010/8775

1432 هـ / 2011 م

دار الكتاب الحديث

القاهرة	94 شارع عباس العقاد ـ مدينة نصر ـ القاهرة ص.ب 7579 البريدي 11762 هاتف رقم : 22752990 (202 00) فاكس رقم : 22752992 (202 00) بريد إلكتروني : dkh_cairo@yahoo.com
الكويت	شارع الهلالي ، برج الصديق ص.ب : 22754 ـ 13088 الصفاة هاتف رقم 2460634 (965 00) فاكس رقم : 2460628 (965 00) بريد إلكتروني : ktbhades@ncc.moc.kw
الجزائر	B. P. No 061 – Draria Wilaya d'Alger– Lot C no 34 – Draria Tel&Fax(21)353055 Tel(21)354105 E-mail dk.hadith@yahoo.fr
الامارات	دار العيدروس للكتاب الحديث ص ب . 2855 ابو ظبي هاتف 00971505932613 فاكس 0097126392062 email: alaidaroosgp@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء] صدق الله العظيم.

إلى والدي العزيز طيَّب الله ثراه/ حسن أحمد العيدروس، وإلى كل من يعز في نفسه بعث دولة الخلافة الإسلامية وإحياء أمجاد الإسلام والمسلمين.

وإلى خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله حمداً كبيراً وثناءً كثيراً والصلاة والسلام علي سيدنا وحبيبنا وشفيعنا رسول الله محمد ﷺ وعلى آل بيته الطاهرين الأخيار إلى يوم الدين.

حكمت الأسرة العباسية الهاشمية أكثر من خمسة قرون، حافلة بالأحداث الجسام وكذلك بالتقدم الحضارى الإسلامى فى كافة المجالات العلمية الفكرية وقد تميزت الفترة الأولى من الحكام العظام، وإن كان الطابع العام المهيمن فى النظام السياسى والمؤثر يغلب عليه العنصر الفارسى ثم التركى أكثر من العنصر العربى، مما يعنى أنها دولة كانت إسلامية شاملة ولم تقتصر على قومية معينة برغم استفراد البويهيين الشيعة الفرس من خرسان أو السنة الاتراك ضد العرب، ولكن مجملها كونت حركة التاريخ الإسلامى بكل إيجابياتها وسلبياتها. وبقيام الأسرة العباسية تغيرت الدولة فأصبحت ذات طابع إسلامى عالمى.

تعتبر الدولة العباسية مثلها مثل الدولة الأموية، والعثمانية، والفاطمية اشتركت في عدة صفات وإن اختلفت في بعضها الآخر. مثل: عدم اتباعها نهج الخلفاء الراشدين الدولة الإسلامية الثانية فى تطبيق الشريعة الإسلامية واختيار الأكفاء، وإنما كانت دولة ملكية وراثية للنظام السياسى مثل البيزنطى والرومانى، والفارسى المجوسى وإن كان معظم حكام الأسرة العباسية ملتزمين شخصيا بالدين الإسلامى الحنيف، إلا أن الطابع العام السياسى لم يكن

كذلك بالشـريعة الإسلامـية، وطابع الخلفـاء الراشدين، إضافـة إلى اضطهاد المعارضة العامة ذات الطبقة الشعبية والفكرية وخاصة الأسرة العلوية مثلما كان فى عـهد الدولة الأمـوية التى اضطهـدت آل البيت أو آل مـحمـد، برغم أن العبـاسيين كانوا الأقـرب بصفتهم أبناء عـمومة بنى هاشم وليس كبنـى أمية، ولكن نفس التوجه الأموى ضد العلويين.

استمرت الدولة العباسيـة حتى سقوطها على أيدى المغول عام 1258م، ثم انتقال الخلافة العـباسية إلى مصر عندما أحيـاها الظاهر بيبرس المملوك عام 1260م لتستـمر حتى دخول العـثمانيين لمـصر عام 1517م، وقد عولجت هذه الدراسـة بأبعـادها الشـاملة المتكاملة بطريقـة بسـيطة. وبرغم تقسـيم بعض المؤرخين التاريخ العـباسـى إلى عصرين إلا أن هذين العصرين يمـثلان مرحلة تاريخيـة متكاملة بكل أبعادها الاجتـماعية والاقـتصادية أكثـر منها سيـاسيا، وسوف تشمل هذه الدراسـة: العباسـيون والدعوة للرضـا من آل محمد ﷺ حكم الأسـرة العبـاسية والحـياة الإدارية، والمـعارضة الـعلوية والاجتـماعـية والاقتصادية والفكرية، والمعارضة والثورات والعلاقات الخارجية.

أتمنى أن أكون قـد وفقت إلى إعطاء صورة عن الحكم العـباسى للدولة الإسلامـية. ونطلب من الله فى آخر دعـوانا أن يوفقنا إلى قـول الحق وعمل الحق والدفاع عـن الحق ـ الحق الإسلامى، والحمـد لله تعالى والـصلاة على خاتم النبـيين، وإمـام المتقـين رسول الله مـحمد ﷺ وعطرته مـن آل البيت رضوان الله عليهم.

اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلـى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد.

د. محمد حسن العيدروس

رئيس مركز العيدروس للدراسات والاستشارات

الفصل الأول

العباسيون والدعوة للرضا من آل محمد ﷺ

الدعوة العباسية:

قامت الدولة العباسية على أثر دعاية واسعة النطاق دامت حوالي ثلث قرن تقريبًا، فضمت إلى صفوفها كل العناصر المعادية للأمويين وكلمة دعوة هي المقصودة بها حديثًا كلمة الدعاية ويقابلها في المصطلح الأوروبي الحديث كلمة Propaganda، فالشرق الإسلامي قد عرف الدعاية من قديم وإن كان الغرب المسيحي لم يعرفها إلا في العصور الحديثة المتأخرة. والغرض من الدعاية هو استعمال طرق مختلفة شريفة أو ملتوية للإعلان عن مبدأ أو فكرة بقصد تهيئة الأفكار لقبول هذا المبدأ أو هذه الفكرة. وأول دعاية قامت في الدولة الإسلامية هي دعوة العباسيين التي نظمت تنظيمًا دقيقًا باسم الرضى من آل محمد ﷺ، وتمكنت في النهاية من أن تؤدي الغرض المقصود منها، وهو إسقاط الدولة الأموية وإقامة الدولة العباسية. ثم قامت بعد ذلك دعوة سرية أخرى باسم المهدي المنتظر تمخضت عنها قيام الدولة الفاطمية في المغرب. هذا بخصوص كلمة دعوة. ولما كان التاريخ الإسلامي قد دون معظمه في عصر الدولة العباسية، فقد حرص المؤرخون بطبيعة الحال على إظهار مؤسس هذه الأسرة بمظهر المؤيد للإسلام منذ ظهوره، وأنه لم يقف من الرسول موقفًا معاديًا كما فعل بقية أعمامه أمثال أبي لهب وأبي جهل، بل على العكس عمل على حمايته وأخذ في هذا السبيل عهدًا على أهل المدينة بحمايته عند بيعة العقبة، كما ظل يكاتب النبي سرًا بعد هجرته إلى المدينة.

ينتسب العباسيون إلى العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه، كان من زعماء قريش وساداتها، تولى أمر سقاية الحاج في مكة، لم يكن رضي الله عنه ذا سابقة في الإسلام، وإنما أسلم عام الفتح، ولهذا جاء إسلامه متأخرًا. وبالرغم من قرابة العباس من رسول الله ﷺ إلا أن غالبية المصادر التاريخية

لاتذكر له أي طموح سياسي لنيل الخلافة. فلم يعرف عنه أنه ادعى الخلافة يومًا في حياته بل أيد ابن أخيه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في مطالبته بالخلافة ونيله لها. والواقع أن العباس لم يكن له نفوذًا كبيرًا في الإسلام بدليل أنه بعد وفاة الرسول لا نسمع له ذكرًا هامًا. تشير بعض الروايات فقط إلى اهتمامه بتولية ابن أخيه الإمام على بن أبي طالب عليه السلام، إذ قال له «أمدد يدك لنبايعك»، وهذا يدل على أنه لم يكن له أي طموح في الخلافة.

يقول المسعودي عن ذلك: أجاز العباس بن عبد المطلب بيعة الإمام على ابن أبي طالب عليه السلام عندما قال له: «يا ابن أخي هلم إلى أبايعك فلا يختلف عليك اثنان». ولا شك بأن تلك البيعة التي أشار إليها المسعودي إنما تمت بعد وفاة رسول الله ﷺ عندما اختلف المهاجرون والأنصار فيمن يتولى أمور المسلمين. ويؤكد هذا ما أشار إليه المقريزي إذ يقول: «خرج الإمام على بن أبي طالب عليه السلام من عند رسول الله ﷺ في وجعه الذي توفي فيه، فقال الناس: يا أبا الحسن، كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ قال: أصبح بحمد الله بارئًا، فأخذ بيده العباس بن عبد المطلب، فقال له: أنت والله بعد ثلاث عبد العصا، وإني والله لأرى رسول الله ﷺ يتوفى من وجعه هذا، وإني لأعرف وجوه بني عبدالمطلب عند الموت، اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فلنسأله في هذا الأمر إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه فأوصى بنا، فقال الإمام على عليه السلام: «والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعنا لا يعطيناها الناس بعده، وإني والله لا أسألها من رسول الله ﷺ، وأضاف المقريزي قائلا: بأن العباس قال للإمام على عليه السلام: ابسط يدك فلنبايعك، فقبض على يده، وتوفي العباس في عام 32هـ الموافق 652م في خلافة عثمان بن عفان وكان سنه ثمان وثمانين عام. وقد أعقب أولادًا كثيرين

نذكر منهم ابنه الثانى عبدالله بن العباس الذى من نسله جاء البيت العباس. أما بقية أبناء العباس فلم يكن لهم عقب باق. عبدالله بن العباس شخصية علمية فريدة، معروفة لدى الأدباء والعلماء واللغويين إذ كان يؤخذ عنه رواية الحديث وتفسير القرآن. ولم يكن عبدالله يطمع فى الخلافة لإيمانه القوى بحق الإمام على بن أبى طالب عليه السلام فيها. ولهذا انضم إليه وأيده، وولاه الإمام على بن أبي طالب عليه السلام البصرة وأعمالها. وبعد مقتل الإمام على عليه السلام، ترك البصرة ورحل إلى الحجاز حيث أقام بالطائف مسالمًا للأمويين إلى أن توفى فى عهد عبدالملك بن مروان عام 68هـ الموافق 687م.

كان من أبرز أبناء الأسرة العباسية فى عهد الخلفاء الراشدين وفى مطلع العصر الأموى عبدالله بن عباس رضى الله عنه، ابتعد عن السياسة بادئ الأمر، ثم أصبح عضوًا بارزًا فى الحجاز آنذاك؛ بل وشارك فى فتوحات المسلمين فى عهد الدولة الأموية، يؤكد هذا مشاركته لجيش يزيد بن معاوية الذى خرج لفتح القسطنطينية فى عهد معاوية ولهذا لم يكن عبدالله بن عباس هو الآخر طموحًا لنيل الخلافة وكانت علاقته بالعلويين طيبة سواء فى عهد الإمام على بن أبى طالب عليه السلام - عندما أشار عليه بعدم التسرع فى عزل ولاة عثمان، ولما رأى من الإمام على عليه السلام تصميمًا على ذلك أشار عليه بإبقاء معاوية ريثما تهدأ الأمور وتنجلى الغمة. أما فى عهد أبنائه كثيرًا ما نصح زعماءهم باتخاذ الاحتياطات اللازمة لضمان حقهم فى الخلافة ولعل أبرز تلك النصائح هى تقديمه النصح للإمام الحسين بن على عليهما السلام عندما أزمع السفر إلى الكوفة، على أثر الرسائل التى بعث بها أهل الكوفة، إليه مطالبين بقدومه إليهم ومبايعته بالخلافة. تلك النصائح التى قدمها عبدالله بن عباس للإمام الحسين بن على عليهما السلام الذى يعتبر فى

نفس الوقت زعيم العباسيين تعطينا صورة واضحة على أن العباسيين لم يكونوا يطمحون إلى الخلافة. نعم لقد كان العباسيون يعترفون بحق العلويين في الخلافة دون أن يفكروا بها أو بالمشاركة فيها مع بني عمومتهم في تلك الأحداث التي وقعت منذ قيام الدولة الأموية حتى نهاية القرن الأول الهجري. فلو كان عبدالله بن عباس من المتطلعين إلى الخلافة لما تردد في هذا خاصة بعد مقتل الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، لأنه في نظر الكثير أقرب إلى هذا من ابن الزبير على الأقل. ولهذا لم يشارك بنو العباس في الأحداث التي وقعت في الدولة الإسلامية منذ عهد عثمان، ولم يتطلع أحد منهم إلى تولي منصب الخلافة آنذاك في حين انحصر أمر المطالبة بالخلافة على الإمام علي عليه السلام ومن بعده بنيه وأحفاده[1].

عبدالله بن العباس، كان غير طامح للخلافة، هو الآخر ومثله آمن بحق الإمام علي عليه السلام في الخلافة حتى أنه لما أنجب ولداً سماه عليًا باسم الإمام علي عليه السلام أحب الناس إليه. وبعد مقتل الإمام علي عليه السلام وتسلم الإمام الحسن عليه السلام، اعتزل عبدالله الفتنة وأقام بمكة، واهتم بجمع الحديث حتى نبغ فيه، فعرف الإمام بالبحر لعلمه. ورفض عبدالله بن العباس مبايعة ابن الزبير، وخرج من مكة إلى الطائف مع ابن الحنفية ـ محمد بن الإمام علي بن أبي طالب عليهما السلام ـ حيث توفي فيها عام 68هـ الموافق 687م.

ولقد أنجب عبدالله بن العباس ولداً أسماه عليا لأنه ولد في نفس الليلة التي قتل فيها الإمام علي عليه السلام عام 40هـ الموافق 660م. علي بن عبدالله بن العباس شخصية غامضة غير واضحة كوضوح شخصية أبيه. كذلك لم يسع علي بن عبدالله بن العباس إلى الخلافة[2].

1ـ عبد العزيز محمد اللميلم ـ العلاقات بين العلويين والعباسيين ص96.

2 ـ د. إبراهيم أيوب ـ المرجع السابق ص18.

وتوفى علي في الحميمة عام 118هـ الموافق 736م وأنجب ولدًا أسمه محمد. يعتبر محمد بن علي بن عبدالله بن العباس الشخصية القوية. والعباسي الحقيقي الذي أظهر طموحًا نحو الخلافة وسعى سعيًا سريًا منظمًا لنيلها[1].

يقول البعض في هذا: «لم يكن للعباسيين من زعامات في الحركات التي ظهرت منذ عهد اجتماع السقيفة، ولا بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وإنما كان زعيمها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، والإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام من بعده.

ولهذا فإن الطموح السياسي للعباسيين لم يظهر إلا في مطلع القرن الثاني الهجري، وذلك بظهور علي بن عبدالله بن عباس. وكان علي هو أصغر أولاد عبدالله بن عباس، وفيه الجمهرة والبيت والخلافة ولا عقب لعبدالله من غير علي. وكان علي هذا هو أصغر أولاد أبيه، كان سيدًا شريفًا بليغًا، كان من أجمل رجالات قريش، مفرطًا في الطول، إذ طاف فكأنما الناس حوله مشاة وهو راكب. وقد كان علي نشطًا من الناحية السياسية، ولهذا نظرت إليه السلطة الأموية بعين الشك والريبة والحذر، فاستدعاه الأمويون، وأقطعوه قرية «بالبلقاء» من أرض الشام يقال لها: «الحميمة» في عهد عبدالملك بن مروان، ولعل هذا عائد بالطبع إلى غرض سياسي الهدف منه هو وضع العباسيين تحت رقابة الأمويين قدر الإمكان يقول عن هذا الموضوع صاحب كتاب «أخبار الدولة العباسية» من أن عبدالملك بن مروان قد خير علي بن عبدالله بن عباس في المكان الذي يريد الإقامة فيه لوضعه تحت أمري ومسمع عبدالملك إذ يقول: شخص علي بن عبدالله إلى الشام، وقدم على عبدالملك، فأكرمه وأجلسه معه على سريره، وقوى بمكانة علي ابن

1 ـ أحمد مختار العبادي ـ الدولة العباسية ص19.

الزبير، وقال لوجوه أهل الشام: هذا ابن عم محمد ﷺ قد أتاني عارفًا أني أولى بالأمر من ابن الزبير، فزاد ذلك في بصائرهم، وقال له عبدالملك: ارتد منزلا تضم فيه أهلك وخاصتك، فبلغنا أن عليا قال له: أحب المنازل إلي أخلاها، وأبعدها من العوام، فإني متى أقمت معك بدمشق لم آمن أن يلقاك بعض أهل الشام فيقول: قال علي: ولقي علي، وعرضني لتهمتك، فقال له عبدالملك، وصلتك رحم، ما أنت بمتهم، والبلقاء نزل صدق، تضم فيه أهلك وحشمك، وتقيم عندي ما أحببت، وتأتيني إذا شئت ولست تبعد عني، ولاينساك ذكري، ولايعد عنك خبر من بالحجاز من أهل بيتك. فنزل بالشراة من البلقاء، ونزل من «الشراه» «الحميمة»، ولم يزل عبدالملك له مكرمًا معظمًا يجلسه معه على سريره إذا دخل، ويحادثه ويسامره. وبعد وفاة علي بن عبدالله انتقل ولاء شيعته إلى ابنه محمد الذي أظهر طموحًا نحو الخلافة، بل حصل ذلك أيضًا أثناء حياة والده عندما سارا بالدعوة للرضا من آل محمد سرًا حثيثًا، وقد رأيا أن يمهدا للدعوة عام 100هـ الموافق 718م وفي عهد عمر بن عبدالعزيز، على أن تكون للرضا من آل محمد، وكان من نتائج ذلك هو التعاون بين عدد من العناصر الناقمة على الدولة الأموية لإسقاط الأمويين. وبعد وفاة محمد حمل لواء الدعوة من بعده ابنه إبراهيم، إلا أن الأمويين تمكنوا من القبض عليه عندما وقع خطاب في يد الحاكم الأموي مروان بن محمد، كان قد بعث به الإمام إلى أبي مسلم الخراساني يتضمن سبًا للحاكم مروان، حيث أخذ إبراهيم إلى مروان في «حران» وسجن هناك حتى مات في سجنه، وقد أوصى إبراهيم من بعده لأخيه أبي العباس السفاح «عبدالله بن محمد» الذي تم في عهده إعلان قيام الدولة العباسية عام 132هـ الموافق 749م، فاتخذ من الكوفة مقرًا لحكمة أولا، ثم الهاشمية فالأنبار[1].

1 ـ عبد العزيز محمد اللميلم ـ العلاقات بين العلويين والعباسيين ص39.

بذل هذا السفاح جهوداً جبارة من أجل تثبيت دعائم الحكم العباسي يساعده في هذا أخوه أبو جعفر وأعمامه عبدالله وسليمان وداود وصالح، إذ طارد الأمويين وقتل كثيراً منهم خاصة من وقعوا في يد عبدالله بن على وأخيه صالح، ولعل تلك القسوة التي عامل بها السفاح الأمويين هو الذى حدا بالمؤرخين إلى تسميته بالسفاح، أو كما قال عن نفسه في خطبته التي ألقاها من على منبر المسجد الجامع في الكوفة يوم بيعته: إذ اختتم خطبته بتلك العبارة: فأنا السافح المبيح والثائر المبير. وقد تربع العباسيون على دست الحكم بعد أن أطاحوا بالدولة الأموية، وأعلنوا دولتهم في الوقت الذى ضاعت فيه السلطة من يد بنى أمية لأمور أشار إليها المسعودى يحسن ذكرها إذ يقول: «سئل بعض شيوخ بنى أمية أثر زوال الملك عنهم إلى بنى العباس: ما كان سبب زوال ملككم؟ فقال: إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا، فظلمنا رعيتنا، فيئسوا من إنصافنا، وتمنوا الراحة منا، ووثقنا بوزرائنا، فآثروا مرافقهم على منافعنا، وأمضوا أموراً دوننا أخفوا علمها عنا، وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم أعادينا فتظافروا معهم على حربنا، وطلبنا أعداؤنا، فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا. لا شك بأن زوال ملك بنى أمية قد جمع بين عواطف شتى، فهو شماته من قبل أعدائهم، وأسف من قبل أنصارهم، وحسرة من قبلهم هم على زوال هذا العز الضائع الذى فقدوه عندما تخاذلوا عن الاحتفاظ به، من إهمال لشؤون الدولة، وغفلة عما يجرى فيها، وإسناد الأمر إلى غير أهله. نعم لقد ندموا على تصرفهم هذا ولات ساعة مندم. أما عن كيفية تفكير العباسيين في الحصول على الخلافة فالمعروف أن العلويين الذين كافحوا وناضلوا في سبيل الحصول على الخلافة كانوا هم الوحيدين الذين وقفوا في وجه الدولة الأموية طيلة وجودها، ولم نسمع بأن أحداً من العباسيين قد انضم أو ساعد العلويين ضد خصومهم الأمويين طيلة ستين

عامًا منذ أن تولى معاوية بن أبي سفيان الحكم في عام 40هـ الموافق 660م حتى نهاية القرن الأول الهجري. وهكذا نرى بأن دور العلويين في مناوأتهم للأمويين، وطموحهم لنيل الخلافة يفوق كثيراً طموحات العباسيين، وأن العباسيين لم يظهر لهم اسم في مقاومة ظلم الأمويين سواء على مستوى الزعامة، أو التأييد للعلويين اللهم إلا مع مطلع القرن الثاني الهجري عندما تزعم محمد بن علي بن عبد الله العباسي أمر الدعوة سراً مع ما في هذا من ملابسات حيال تنازل أبي هاشم للعباسيين عن الدعوة وأسرارها. إذا فما هي الأسباب التي دفعت بالعباسيين إلى التفكير جديًا في مناهضة الأمويين، والاستماتة فيما بعد للحصول على الخلافة؟[1].

للإجابة على هذا التساؤل: يقول البعض من المؤرخين: بأن أبا هاشم عندما وشى به البعض أمام سليمان بن عبدالملك بأنه يطلب الخلافة لنفسه استدعاه وأكرمه، بل بالغ في إكرامه، ولكنه في نفس الوقت توجس منه خيفة فأمر من يدس له بالسم، وهكذا فعل، ولما خرج من عنده وأحس بدنو أجله اتجه إلى قرية بالبلقاء «الحميمة»، ولهذا فقد اضطر أبو هاشم إلى أن يسير إلى ابن عمه علي أو محمد بن علي - كما يقول البعض الآخر من المؤرخين بأسرار الدعوة التي دعا إليه ضد بني أمية، وأخبره بأسرارها، وأعطاه بيانا بأسماء الدعاة الذين كانوا يتعاونون معه. ومنذ ذلك التاريخ أي نهاية القرن الأول الهجري عام 99هـ الموافق 717م أو عام 100هـ الموافق 718م أو عام 101هـ الموافق 719م على اختلاف آراء المؤرخين في هذا التاريخ بدأ العباسيون بالدعوة فعلا بزعامة علي بن عبدالله، وإن كانوا قد تكتموا بالفعل على هذه الدعوة وأحاطوها بالسرية المطلقة، بحيث يصعب العثور على أصحابها وعلى مقر وجودهم. لهذا فإن رغبة العباسيين في الوصول إلى

1 - عبد العزيز اللميلم - نفس المرجع ص41.

الحكم لم تبـرز إلا في ذلك التاريخ. وكـان إلى جانب على بن عـبدالله ابنه محـمد الذى أظهر هو الآخر مـيلا كبيـراً نحو الخلافـة وعمل على التمهـيد للدعوة العباسية. وقد سار الاثنان بالدعـوة سيراً حسنًا حيث وضـعا للدعوة نظامًا محكمًا قمته الإمام، وتحته اثنـا عشر نقيبًا وسبعون من الدعاة، كل هذا أحـيط بسرية تامـة حتى أن الدعـاة فى أثناء تجـوالهم فى المدن والقرى كـانوا يتزيون بزى التـجار خوفًا من انكشـاف أمرهم أمام بنى أمية، وكـانت الدعوة التى يدعون إليهـا هى أيضًا مبهمة وغـامضة وهى عبارة عن ألغاز ومـعميات يصعب معها معرفـة الخليفة أو الإمام المنتظر. تلك هى «الدعوة للرضا من آل البيت» أو آل محـمد. وربما عمد العباسيون إلى ذلك للتعـمية على الآخرين حتـى يصعب تحـديد اسم الشخص المبـايع له، هذا من ناحيـة، ومن ناحـية أخرى هو أيضًـا محاولة لكسب العلويين وأنصـارهم لأن السـواد الأعظم من الناس كانوا يعتقدن بأن الدعوة إنما هى للعـلويين، وليست للعباسـين، لأنهم هم الأقرب إلى هذه التـسمية، وهم الذين كافحوا من أجل ذلك طيلة وجود الدولة الأموية لهذا فقد كان غالبـية الرأى العام الإسلامى تقريبًا يرى بأن هذه الدعوة إنما هى لآل على دون غيـرهم، ولم يكن يعلم بالحقيقة سـوى النقباء والدعاة، ومن هـم محيطون بتلك الدعوة، أو قريبون منها[1].

الدعوة العباسية متى وكيف؟

نقل ابن أبى الحديد، عن أبى جعفـر الاسكافى: أنه قد صحت الرواية عندهم عن أسلافـهم، وعن غيرهم من أرباب الحديث، أنه: لما مات الإمام على أميـر المؤمنين عليه السـلام، طلب محـمد بن الحنفية من أخـويه: الإمام الحـسن، والإمام الحسين عليهما السلام ميـراثه من العلم، فدفعا إليه صحيفة، لو أطلعاه على غيرها لهلك.

---

1 ـ عبد العزيز اللميلم ـ نفس المرجع ص42.

فصرح ابن الحنفية لعبدالله بن العباس بالأمر، وفصله له فى تلك الصحيفة التى انتقلت منه لولده أبى هاشم، وعن طريقه وصلت إلى بنى العباس. ويقال: إنها قد ضاعت منهم أثناء حربهم مع مروان بن محمد الجعدى، آخر حكام الأمويين وقد ذكرت هذه الصحيفة فى كلام بنى العباس وبعد هذا، فإن الشيء المهم هنا هو تحديد الزمن الذى بدأ به العباسيون دعوتهم، وكيف؟ ونستطيع أن نبادر هنا إلى القول: إن الذين بدءوا بالدعوة أولا هم العلويون، وبالتحديد من قبل أبى هاشم، عبدالله بن محمد بن الحنفية. وهو الذى نظم الدعاة، ورتبهم، وقد انضوى تحت لوائه: محمد بن على بن عبدالله بن العباس، ومعاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب، وعبدالله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وغيرهم، وهؤلاء الثلاثة هم الذين حضروه حين وفاته، وأطلعهم على أمر دعاته. وقد قرأ محمد بن على؛ ومعاوية بن عبدالله تلك الصحيفة، المشار إليها آنفا، ووجد كل منهما ذكراً للجهة التى هو فيها. ولهذا نلاحظ: أن كلا من محمد بن على، ومعاوية بن عبدالله، قد ادعى الوصاية من أبى هاشم، مما يدل دلالة واضحة على أنه لم يخصص أيا منهما بالوصية، وإنما عرفهما دعاته فقط هذا، وبعد موت معاوية بن عبدالله، قام ابنه عبدالله يدعى الوصاية من أبيه، من أبى هاشم، وكان له فى ذلك شيعة، يقولون بإمامته سراً حتى قتل. وأما محمد بن على فقد كان بمنتهى الحنكة والدهاء، وقد تعرف - كما قلنا - من أبى هاشم على الدعاة، واستطاع بما لديه من قوة الشخصية، وحسن الدهاء أن يسيطر عليهم، ويستقل بهم، ويبعدهم عن معاوية بن عبدالله، وعن ولده، ويبعدهما عنهم، واستمر محمد بن على يعمل بمنتهى الحذر والسرية، وكان عليه أن:

1 ـ يحذر العلويين، اللذين كانوا أقوى منه حجة، وأبعد صيتًا. بل عليه أن يستغل نفوذهم ـ إن استطاع ـ لصالحه، وصالح دعوته، ولقد فعل ذلك هو وولده كما سيتضح.

2 ـ وكان عليه أيضًا أن يتحاشى مختلف الفئات السياسية، التي لن يكون تعامله معها في صالحه، وفي صالح دعوته.

3 ـ والأهم من ذلك أن يصرف أنظار الحكام الأمويين عنه، وعن نشاطاته، ويظللهم، ويعمي عليهم السبل[1].

إثر قيام الدولة العباسية، التي قال بها العباسيون، من أن أبا هاشم قد تنازل عن حقه وحق العلويين في الإمامة للعباسيين، وهل حدث التنازل فعلا أم لا؟ ثم ادعاء كل من العلويين والعباسيين بأحقية كل منهما في الخلافة، ونظرة المؤرخين إليهم من خلال كتاباتهم عنهم، والنتائج المترتبة على ذلك الصراع.

ويشير البعض من المؤرخين إلى أن سليمان بن عبدالملك عندما شك في أمر أبي هاشم «عبد الله بن محمد بن الحنفية» يقول البلاذري: بأن سليمان بن عبدالملك بعث مع أبي هاشم دليلا وأمره أن فحاد به عن الطريق، وقد أعد له أعرابيا في خباء ومعه غنم ومعه سم فاستقا الأعرابي فسقاه لبنًا فيه سم فلما شربه مرض فمال إلى محمد بن علي بالحميمة عنده (أنساب الأشراف مخطوط ص 687 أ ـ 687ب مخطوطة استانبول).

ويقول البعض الآخر بأن سليمان بن عبد الملك دس له السم، وعندما أحس الأخير بدنو أجله عرج على بني عمومته العباسيين الذين اتخذوا من الحميمة مستقرًا لهم ومقامًا، عندما أقطعهم إياها بنو أمية، وبهذا أفضى إلى

1 ـ جعفر مرتضى العاملي ـ الحياة السياسية للإمام الرضا ص30.

بني عمومته وعلى رأسهم على بن عبدالله بن عباس «عميد الأسرة العباسية آنذاك» بجميع أسرار الدعوة، وتنازل لهم عن حقه وحق العلويين في المطالبة بالخلافة .

مدى سرية الدعوة : والظاهر أن عبدالله بن معاوية كان من جملة أولئك المخدوعين بهذه الشعارات؛ إذ قد ذكر المؤرخون، ومنهم: أبو الفرج في مقاتل الطالبيين ص 168، وغيره: أنه بعد ان استظهر ابن ضبارة على عبدالله ابن معاوية توجه عبدالله إلى خراسان، وكان أبومسلم قد ظهر بها؛ فخرج إلى أبي مسلم طمعًا في نصرته!! فأخذه أبو مسلم؛ فحبسه، ثم قتله وهذا يدل دلالة واضحة على أن عبدالله بن معاوية كان يظن أن أبا مسلم سوف ينصره، وأنه - يعني أبا مسلم - كان يدعو إلى أهل البيت، والرضا من آل محمد على الحقيقة، ولم يخطر في باله: أن الدعوة كانت للعباسيين، وبتدبير من أعظم داهية فيهم!! بل لعلنا نستطيع أن نقول: إن محمدًا بن على قد استطاع أن يخفي هذا الأمر حتى عن ولديه: السفاح، والمنصور، ولذا نراهما قد التحقا مع جميع بني هاشم العباسيين والعلويين على حد سواء، وبعض الأمويين ووجوه قريش بعبدالله بن معاوية الخارج عام 127هـ الموافق 744م. في الكوفة، ثم في شيراز؛ حيث تغلب على: «فارس»، وكورها، وعلى «حلوان»، و«قومس»، و«أصبهان»، و«الري» وعلى مياه «الكوفة»، وعلى مياه «البصرة»، وعلى «همدان»، و«قم»، و«اصطخر»، وعظم أمره جدًا أن سليمان بن حبيب بن المهلب أخذه؛ فحبسه، وأراد قتله، فسلم المنصور منه بعد أن أشرف على القتل.. وليراجع الجهشياري أيضًا. وقد تولى المنصور من قبل عبدالله بن معاوية هذا على «إيذج» كما تولى غيره غير ذلك من الأمصار.. فقبول المنصور لولاية «إيذج» من قبله، باعتباره من الهاشميين يكشف عن أنه لم يكن يعلم: أن والده كان ابتداءًا من عام مئة الموافق 718،

أى قبل خروج عبدالله بن معاوية بـ «28» عاما يسعى جاهدًا، ويشقى ويتعب فى تدبير الأمر للعباسيين، وتركيز الدعوة لهم، وإنما كان يعلم أن الدعوة كانت لأهل البيت، والرضا من آل محمد، المنطبق ـ بالطبع ـ على العلويين أكثر من غيرهم على الإطلاق.

وإلا فلو كان لمحمد بن على دعوة واضحة، ومشهورة، ومتميزة، وكان المنصور يعلم بها لكان توليه لا يذعن من قبل عبد الله بن معاوية مضرًا جدًا فى دعوة أبيه، وضربة قاضية لها. اللهم إلا أن يكون ثمة غرض آخر أهم؛ فيكون ذلك منهم حنكة ودهاء، كأن يكون نظرهم إلى أنه: لو نجحت دعوتهم، فيها، وإلا.. فلو نجحت دعوة عبدالله بن معاوية، فباستطاعتهم أن يحتفظوا فيها بمراكزهم، ونفوذهم؛ إذ لهم أن يقولوا: إننا كنا من المعاونين والمساهمين فى هذه الدعوة، كما أن بذلك تنصرف أنظار الحكام عنهم، ويأمن العلويون جانبهم؛ فلا يناهضون دعوتهم ولا يقفون فى وجهها. وبهذه الأسباب نستطيع أن نفسر بيعة العباسيين جميعًا، أكثر من مرة لمحمد بن عبدالله العلوى، وبه أيضًا نفسر جواب المنصور لسائله عن محمد بن عبدالله هذا، حيث قال: «هذا محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، مهدينا أهل البيت» ويأخذ بركابه، ويسوى عليه ثيابه. وأيضًا قوله فى مجلس البيعة لمحمد هذا: «ما الناس أصور أعناقًا، ولا أسرع إجابة منهم لهذا الفتى..» ومما يوضح أيضًا مدى تكتم العباسيون بأمر دعوتهم، أن: إبراهيم الإمام قد بشر بأنه قد أخذت له البيعة بخراسان ـ وهو فى نفس الاجتماع الذى كان قد عقد ليجددوا فيه البيعة لمحمد بن عبد الله بن الحسن وهكذا فإن النتيجة تكون هى: أن العباسيين ظلوا يتسترون بالعلويين، ويخدعونهم، على اعتبار أنهم لو نجحوا فى دعوتهم السرية، فإن بيعتهم للعلويين، ودعوتهم لهم لاتضرهم، وإذا ما فشلوا فإنهم سوف يحتفظون بنفوذهم ومراكزهم فى دولة

أبناء عمهم. هذا مجمل الكلام بالنسبة للدعوة العباسية، ولكن طبيعة الدراسة تفرض علينا التوسع في بيان المراحل التي مرت بها هذه الدعوة، ولا سيما فيما يتعلق بربطها بأهل البيت عليهم السلام، والعلويين. ومدى اعتمادهم على هذا الربط فنقول: لابد من ربط الثورة بأهل البيت إنه كان لا بد للعباسيين من ربط الثورة والدعوة بأهل البيت عليهم السلام، حيث إنهم كانوا بحاجة إلى[1]:

أولا: صرف أنظار الحكام عنهم.

ثانيًا: كسب ثقة الناس بهم، والحصول على تأييدهم لهم.

ثالثًا: أن لا تقابل دعوتهم بالإستغراب، والاستهجان، حيث إنهم لم يكونوا معروفين في أقطار، وأنحاء الدولة الإسلامية المترامية الأطراف، ولا كان يعرف أحد لهم حقًا في الدعوة لأنفسهم، كما هو الحال بالنسبة إلى العلويين، مما يجعل الدعوة لهم مع وجود العلويين مستغربة ومستهجنة إلى حد ما.

رابعًا:ـ وهو أهم ما في الأمر ـ أن يطمئن إليهم العلويون، ويثقوا بهم، حتى لاتكون لهم دعوة في مقابل دعوتهم، لأن ذلك بلا شك سوف يضعفهم، ويوهن قوتهم، لما يتمتع به العلويون من نفوذ ومكانة في نفوس الناس بشكل عام. ولهذا نري آبا سلمة الخلال، يعتذر لأبي العباس السفاح، عن كتابته للإمام الصادق عليه السلام، بأن يجعل الدعوة باسمه، ويبايعه ـ يعتذر ـ بأنه: «كان يدبر استقامة الأمر». نعم، لقد كان لربطهم الثورة بأهل البيت عليهم السلام أثر كبير في نجاح ثورتهم، وظهور دعوتهم. وقد أكسبها ذلك قوة ومنعة، وجعلها في منزى ومأمن من طمع الطامعين، وتطلع

1 ـ جعفر مرتضى العاملي ـ نفس المرجع ص35.

المتطلعين، الذين كانوا يرجون لأنفسهم حظًا من الحياة الدنيا، وما أكثرهم كما وأن ذلك قد أثر تأثيراً بالغًا في اكتسابهم عطف الأمة، وتأييدها، وخصوصًا الخراسانيين في المشرق الإسلامي، الذين كانوا لايزالون يعيشون الإسلام بعيدًا عن أهواء المبتدعين، وتلاعب المتلاعبين، والذين: «وإن كانوا أقل غلواً (أي من أهل الكوفة)، فقد كانوا أكثر حماسة للدعوة لأهل البيت»؛ وذلك لأنهم لم يعاملوا معاملة حسنة في الواقع، ولم يسر فيهم بسيرة رسول الله محمد ﷺ والقرآن إلا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، كما أنهم لم ينسوا بعد ما لاقوه في الدولة الأموية من العسف والتنكيل؛ ولذا فمن الطبيعي أن تراهم مستعدين لتقبل أيه دعوة لأهل البيت عليهم السلام، والتفاعل معها، بل والتفاني في سبيلها. كما أن بلدهم كان بعيدًا من مركز الخلافة بالشام ولم يكن فيه فرق وأحزاب متناحرة كالعراق الذي كان فيه شيعة وخوارج ومرجئة وغير ذلك. وكانت وطأة الحكم العباسي على العراق ومراقبتهم لكل حركة فيه أشد منها في خراسان، وبالفعل لقد شيد الشرقيون الخراسانيون، الذين كانوا يحبون أهل البيت عليهم السلام أركان دولة بني العباس؛ وقامت خلافتهم على أكتافهم، واستقامت لهم الأمور بفضل سواعدهم، وأسيافهم.

مرت عملية الربط بثلاثة مراحل أو أربعة، طبقًا للظروف التي كانت قائمة آنذاك. وإن كانت هذه المراحل قد تبدو متداخلة، وغير مميزة في أحيان كثيرة قال في العيون والحدائق ص180: «وكان قد انتشر في خراسان دعاة من الشيعة، وقد انقسموا قسمين: قسم منهم يدعو إلى آل محمد على الإطلاق. والقسم الثاني يدعو إلى أبي هاشم بن محمد بن الحنفية، وكان المتولي لهذه الدعوة إلى آل رسول الله ﷺ ابن كثير، وكان الدعاة يرجعون في الرأي والفقه إلى أبي سلمة إلخ...»، إلا أن ذلك كان تبعًا للظروف المكانية،

والزمانية، والاجتماعية، التي كانت تتفاوت وتختلف باستمرار إلى حد كبير، هذه المراحل هي: الأولى: دعوتهم في بادئ الأمر «للعلويين» الثانية: دعوتهم إلى: «أهل البيت»، و«العترة». الثالثة: دعوتهم إلى «الرضا من آل محمد». الرابعة: ادعاؤهم الخلافة بالإرث، مع حرصهم على ربط الثورة بأهل البيت، بدعوى: أنهم إنما خرجوا للأخذ بثأر العلويين، وليرفعوا عنهم الظلم الذى حاق بهم.

المرحلة الأولى: وإذا قد عرفنا أن الدعوة كانت فى بدء أمرها للعلويين، فلا يجب أن نستغرب كثيراً، إذا قيل لنا: إن جلة العباسيين، حتى إبراهيم الإمام، والسفاح، والمنصور كانوا قد بايعوا للعلويين أكثر من مرة، وفى أكثر من مناسبة، فإن ذلك ما كان إلا ضمن خطة مرسومة، وضعت بعناية فائقة، بعد دراسة معمقة لظروفهم مع العلويين خاصة، ومع الناس بشكل عام. ويمكن أن نعتبر بيعتهم هذه هى المرحلة الأولى من تلك المراحل المشار إليها آنفا. فتراهم عدا تعاونهم الواضح مع عبدالله بن معاوية، قد بايعوا محمد بن عبدالله بن الحسن أكثر من مرة أيضاً، فقد:

«اجتمع آل عباس، وآل على عليه السلام «بالإبواء»، على طريق مكة، وهناك قال صالح بن على: «إنكم القوم الذين تمتد إليهم أعين الناس، فقد جمعكم الله فى هذا الموضع، فاجتمعوا على بيعة أحدكم، فتفرقوا فى الآفاق، فادعوا الله، لعل أن يفتح عليكم، وينصركم»، فقال أبو جعفر، أى المنصور: «لأى شىء تخدعون أنفسكم؟. والله، لقد علمتم: ما الناس أصور (أى أميل) أعناقا، ولا أسرع إجابة منهم إلى هذا الفتى». يريد محمد بن عبدالله العلوى. قالوا: «قد والله صدقت، إنا لنعلم هذا»، فبايعوا جميعاً محمداً، وبايعه إبراهيم الإمام، والسفاح، والمنصور، وصالح بن على، وسائر من حضر «طبعاً ما عدا الإمام جعفر الصادق عليه السلام..».

خرج دعاة بني هاشم عند مقتل الوليد بن يزيد، فكان أول ما يظهرونه فضل الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وولده، وما لحقهم من القتل، والخوف، والتشريد، فإذا استتب لهم الأمر ادعى كل فريق الوصية إلى من يدعو إليه، ولم يجتمعوا (أي المتبايعون الآنف ذكرهم) إلى أيام مروان بن محمد، ثم اجتمعوا يتشاورون، إذ جاء رجل إلى إبراهيم الإمام، فشاوره بشيء، فقام وتبعه العباسيون، فسأل العلويون عن ذلك، فإذا الرجل قد قال لإبراهيم: «قد أخذت لك البيعة بخراسان، واجتمعت لك الجيوش..» بل لقد بايع المنصور محمد بن عبدالله العلوي مرتين: إحداهما: بالإيواء على طريق مكة. والأخرى: بالمدينة. وبايعه مرة ثالثة أيضاً: في نفس مكة، وفي المسجد الحرام بالذات. ومن هنا نعرف السبب في حرص السفاح والمنصور على الظفر بمحمد ابن عبدالله العلوي، فإن ذلك لم يكن إلا بسبب ما كان له في أعناقهما من البيعة.. وقد ذكر أبو فراس الحمداني هذه البيعة في قصيدته المشهورة، المعروفة بـ «الشافية»، فقال:

بئس الجزاء جزيتم في بني حسن أباهم العلم الهادي وأمهم

لابيعة ردعتكم عن دمائهم ولايمين، ولاقربى، ولاذمم

ذكر ابن الأثير: أن عثمان بن محمد، بن خالد بن الزبير، هرب بعد مقتل محمد إلى البصرة، فأخذ وأتي به إلى المنصور، فقال له المنصور: يا عثمان، أنت الخارج علي مع محمد؟! قال له عثمان: بايعته أنا وأنت بمكة، فوفيت ببيعتي، وغدرت ببيعتك، فشتمه المنصور، فأجابه، فأمر به فقتل. وذكر البيهقي: أنه لما حمل رأس محمد بن عبدالله بن الحسن إلى المنصور، من مدينة الرسول، ﷺ، قال لمطير بن عبدالله: «أما تشهد أن محمداً بايعني؟». قال: «أشهد بالله، لقد أخبرتني أن محمداً خير بني هاشم، وأنك بايعت له..»، قال: يا ابن الزانية إلخ... وكانت النتيجة، أن المنصور أمر

به، فوتد في عينيه، فما نطق!!. إلى آخر ما هنالك من النصوص الكثيرة، التي يتضح معها بما لا مجال معه للشك، أن الدعوة كانت في بدء أمرها لخصوص العلويين، وباسمهم، ثم استغلت بعد ذلك لمصلحة العباسيين[1].

يرى الكثير من أن الإمامة كانت خرجت من أبي هاشم، وانتقلت إلى عبدالله بن معاوية بن جعفر أو إلى غيره من العلويين وليس إلى محمد بن علي العباسي[2].

المرحلة الثانية: كيف أن الدعوة العباسية تستبعد العلويين، وتتحاشى التصريح باسمهم، بطريقة فيها الكثير من الدهاء، والسياسة، حيث اقتصروا في دعوتهم ـ بعد ذلك ـ على أنها لـ «أهل البيت»، و«العترة»، وهذه هي المرحلة الثانية.. وكان الناس لايفهمون من كلمة: «أهل البيت» إلا العلويين، لانصراف الأذهان إليهم عند اطلاق هذه العبارة، وذلك بسبب الآيات والروايات الكثيرة، التي استخدمت هذا التعبير للدلالة عليهم، دون غيرهم. فهذا أبو داود يقول للنقباء: «.. أفتظنونه ـ أي النبي ﷺ ـ خلفه ـ أي العلم ـ عند غيره عترته، وأهل بيته، الأقرب، فالأقرب؟! إلى أن قال: أفتشكون أنهم معدن العلم، وأصحاب ميراث رسول الله ﷺ؟! وهذا أبو مسلم الخراساني القائم بالدولة العباسية، يكتب إلى الإمام جعفر الصادق ﵁، ويقول: «إني دعوت الناس إلى موالاة أهل البيت، فإن رغبت فيه، فأنا أبايعك؟. فأجابه الإمام جعفر الصادق ﵁: «.. ما أنت من رجالي، ولا الزمان زماني» ثم جاء أبو مسلم، وبايع السفاح، وقلده الخلافة وقال السيد أمير علي بعد أن ذكر ادعاء العباسيين للوصاية من أبي هاشم: «.. وقد

1 ـ جعفر مرتضى العاملي ـ نفس المرجع ص40 وانظر: الكامل لابن الأثير جـ5 ص12 للمحاسن والمساوئ للبيهقي ص482.

2 ـ الملل والنحل 112/1 والفرق بين الفرق ص28.

لاقت هذه القصة بعض القبول في بعض المناطق الإسلامية. أما عند عامة المسلمين، الذين كانوا يتعلقون بأحفاد رسول الله محمد ﷺ، فقد ظل دعاة العباسيين يؤكدون لهم أنهم يعملون لحساب أهل البيت وحتى ذلك الوقت كان العباسيون يظهرون الولاء التام لبني فاطمة، ويخلعون على حركتهم، وعلى سياساتهم مظهر الوصول إلى هدف ضمان العدالة، والحق لأحفاد رسول الله محمد ﷺ وكان يمثلوا أهل البيت، ومحبوهم، لا يخامرهم الشك في الغدر، الذي تبطنه هذه الاعترافات من العباسيين. فشملوا محمد بن علي، وجماعته بعطفهم وحمايتهم، الذين كانوا في حاجة إليهما..» ويقول: «.. وكانت كلمة: «أهل البيت» هي السحر الذي يؤلف بين قلوب مختلف طبقات الشعب، ويجمعهم حول الراية السوداء..»(1).

ثم تأتي المرحلة الثالثة، ويتقلص ظل العلويين، وأهل البيت عن هذه الدعوة، أكثر فأكثر، كلما ازدادت قوتها، واتسع نفوذها، حيث رأينا أخيراً أنها اتسعت بحيث تستطيع أن تشمل العباسيين أيضاً مع العلويين. حيث أصبحت إلى: «الرضا من آل محمد»، وإن كانوا لايزالون يذكرون فضل الإمام علي عليه السلام، وما لحق ولده الإمام الحسين عليه السلام من القتل والتشريد، كما يتضح بأدنى مراجعة لكتب التاريخ. وهذه العبارة، وإن كانت لا تختلف كثيراً عن عبارة: «العترة، وأهل البيت»، ونحوها. إلا أنها كانت في أذهان العامة أبعد من أن يراد بها العلويون على الخصوص. ولكن مع ذلك بقيت الجماهير تعتقد أن الخليفة سيكون علوياً، كما كان العلويون يعتقدون ذلك» على حد تعبير أحمد شلبي. وإذا صح هذا، وفرض ـ ولو

---

1 ـ جعفر مرتضى العاملي ـ المرجع السابق ص42 وانظر: روح الإسلام ص306 و308. ولا بأس بمراجعة ما ورد في كتاب الإمام الصادق والمذاهب الأربعة جـ1 جزء 2 ص532. والسيادة العربية والشيعة والإسرائيليات ص94. وامبراطورية العرب ص406، وطبيعة الدعوة العباسية، وغير ذلك.

بعيدًا ـ أن شعار: الرضا من آل محمد لايختلف عن شعار: العترة، وأهل البيت في أذهان عامة الناس، فلنا نصر على جعل هذا مرحلة مستقلة، بل يكون داخلا فيما سبقه، وتكون المراحل حينئذ ثلاث، لا أربع[1].

ومهما يكن فقد كانت هذه الدعوة التي ورثها محمد بن علي بن عبدالله بن العباس من أقوى الدعوات وأكثرها إيجابية وتنظيمًا. فمنذ أن قامت بالدعوة لابن الحنفية بعد تسليم الحسن أو قبل ذلك، كانت قائمة على قدم وساق في ستر وكتمان، بإرسال الدعاة وجمع الزكاة ليوم الوثوب. ولما تسلمها المختار وأظهرها، أعلنها حربًا شعواء على الأمويين وكل من وقف أمامها. كذلك ظلت الكيسانية بعد المختار تدعو إلى قتل آل أبي سليمان وهدم دمشق فلما آلت الدعوة إلى محمد بن علي أبقى على إيجابيتها وجعل هدفها القضاء على دولة بني أمية وإعلان الخلافة في بني هاشم وذلك بالدعوة الغامضة) للرضا من آل محمد. وكان عليهم أن يبينوا فضلهما وظلم بني أمية، وإشاعة أحاديث نبوية تؤيد ذلك كذلك استمر محمد بن علي في إرسال الرجال والدعاة وكان أبوهاشم طلب من الدعاة الطاعة له. فأصبحت الدعوة أكثر تنظيمًا على يديه بجعله لها مجلسًا يشرف عليها يتكون من اثنى عشر نقيبًا، أما الدعاة فكان عددهم كبيرًا حتى بلغ السبعين. وكان الدعاة يذهبون في زى التجار مستبضعين، على أن يجتمع بهم محمد في موسم الحج إذ يأتون إليه بالمال ويأخذون منه التعليمات والأوامر. لكن المؤرخين لم يقتنعوا بصحة رواية انتقال الوصية إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس للأسباب الآتية: إذا تنازل أبو هاشم فعلا للعباسيين لأفصحوا عن هذا

---

1 ـ جعفر مرتضى العاملي ـ نفس المرجع ص43 وانظر: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لأحمد شلبي ج3 ص20. طبيعة الدعوة العباسية 152، نقلا عن: مخطوطة العباسي ص93أ، 93ب. راجع: تاريخ الجنس العربي ج8 ص411.

التنازل، بدلاً من التمويه على الشيعة بوجه خاص بالدعوة للرضا من آل البيت أو آل محمد وهذا دليل على عدم صحة فكرة التنازل. تبادل الرسائل بين محمد النفس الزكية (حفيد الحسن بن على بن أبى طالب) وبين الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور. يتبين منها: أن العلويين والعباسيين اجتمعوا فى أواخر أيام الدولة الأموية، واتفقوا على أنه في حالة سقوط الدولة الأموية، يكون خليفة المستقبل الإمام محمد النفس الزكية وكان أبو جعفر المنصور حاضراً في هذا الاجتماع. فلو أن فكرة التنازل حدثت فعلا لاعترض أبو جعفر المنصور على ذلك أو أشار إليها في رسائله[1].

لا بد من ملاحظة أنهم في نفس الوقت الذى نراهم فيه يمدون الدعوة عن أهل البيت، كما يدلنا عليه قول محمد بن على العباسى لبكير بن ماهان:

«وحذر شيعتنا التحرك فى شيء مما تتحرك فيه بنو عمنا آل أبى طالب؛ فإن خارجهم مقتول، وقايمهم مخذول؛ وليس لهم من الأمر نصيب، وسنأخذ بثأرهم». وكما يدلنا عليه ما رواه الطبرى من أن محمداً بن على نهى دعاته عن رجل اسمه: غالب؛ لأنه كان مفرطًا فى حب بنى فاطمة نراهم من جهة ثانية، وحتى لا يصطدموا بالعلويين وجهًا لوجه. كانوا فى جميع مراحل دعوتهم يتكتمون جداً باسم الخليفة، الذى يدعون الناس إليه، وإلى بيعته، بل إن الشخص الذى كانوا يدعون الناس إليه، وإلى بيعته. بل وكان الناس يبايعونه ما كانوا يعرفونه، بل يعرفه الدعاة فقط، وعلى الناس أن يبايعوا إلى «الرضا من آل محمد» ولا بأس بمراجعة نص البيعة فى تاريخ التمدن الإسلامى، المجلد الأول، الجزء الأول ص125 ولعل هدفهم من ذلك

1 - إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص20 وانظر - الكامل 37/4 والأخبار الطوال ص342.

كان أيضًا: هو أن لا يربطوا الدعوة بفرد معين، حتى لا تضعف إذا ما مات، أو اغتيل وعلى كل فقد نص ابن الأثير في الكامل ج4 ص 310، حوادث عام 130 الموافق 747م على أن أبا مسلم كان يأخذ البيعة إلى الرضا من آل محمد. ومثل ذلك كثير في كلمات المؤرخين، وإليك بعض النصوص التاريخية، التي تدل على ذلك. ففي الكامل ج4ص 323 نص على أن محمدًا بن علي بعث داعيًا إلى خراسان يدعو إلى «الرضا من آل محمد» ولا يسمي أحدًا، ولعل الذي أرسله هو أبو عكرمة الآتي ذكره. وقال قال محمد بن علي العباسي لأبي عكرمة: «فلتكن دعوتك إلى «الرضا من آل محمد»؛ فإذا وثقت بالرجل، في عقله وبصيرته، فاشرح له أمركم وليكن اسمي مستورًا من كل أحد، إلا عن رجل عدلك في نفسك، وتوثقت منه، وأخذت بيعته». ثم أمره بالتحاشي عن الفاطميين ويقول أحمد شلبي: «..كانوا (أي العباسيون) يوهمون العلويين بأنهم يعملون لهم، ولكنهم في الواقع كانوا يعملون لأنفسهم» ويقول أحمد أمين «..ومع هذا فكان من إحكام أمرهم أنهم لم يكونوا يصرحون عند دعوتهم في كثير من المواقف باسم الإمام؛ ليتجنبوا انشقاق الهاشميين بعضهم على بعض) ولو كان الخليفة معينًا ومعروفًا عند الناس، لما استطاع أبو مسلم، وأبو سلمة، وسليمان الخزاعي، أن يكاتبوا الإمام الصادق عليه السلام، وغيره من العلويين، أنهم يبايعونهم، ويجعلون الدعوة لهم، وباسمهم، وقد تقدمت رسالة أبي مسلم للإمام الصادق عليه السلام، التي يصرح فيها بأنه: إنما دعا الناس إلى موالاة أهل البيت فقط، أي من دون تصريح باسم أحد.. وقد قال أحدهم: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام، فأتاه كتاب أبي مسلم؛ فقال: «ليس لكتابك جواب. أخرج عنا». وقال السيد أمير علي عن أبي مسلم: «وقد ظل إلى هذا الوقت مواليًا، بل مخلصًا، بل متحمسًا لأبناء الإمام علي عليه السلام» وقال صاحب قاموس

الأعلام: «وعرض أبو مسلم الخراساني الخلافة ابتداءً على الإمام جعفر الصادق، فلم يقبلها»[1].

وأما أبو سلمة: فإنه عندما خاف من انتقاض الأمر عليه، بسبب موت إبراهيم الإمام، أرسل ـ والسفاح في بيته ـ إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام يطلب منه القدوم عليه ليبايعه، وتكون الدعوة باسمه، كما أنه كتب بمثل ذلك إلى عبدالله بن الحسن. لكن الإمام عليه السلام، الذي كان في منتهى اليقظة والحزم. رفض الطلب، وأحرق الكتاب، وطرد الرسول وقد نظم أبو هريرة الأبار، صاحب الإمام جعفر الصادق عليه السلام هذه الحادثة شعرًا، فقال:

ولما دعا الداعون مولاي لم يكن   ليثني إليه عزمه بصواب
ولما دعوه بالكتاب أجابهم   بحرق الكتاب دون رد جواب
وما كان مولاي كمشري ضلالة   ولاملبسًا منها السردي بثواب
ولكنه لله في الأرض حجة   دليل إلى خير، وحسن مآب

وكتب إليه أبوسلمة أيضًا مرة ثانية، عندما أقبلت الرايات: «إن سبعين ألف مقاتل وصل إلينا، فانظر أمرك» فأجابه الإمام جعفر الصادق عليه السلام

1 ـ جعفر مرتضى العاملي ـ المرجع السابق ص44 وانظر: طبيعة الدعوة العباسية ص155، نقلا عن OP. CID ص 195أ/ 95ب. التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية 3 ص20. ورغم أن أبا مسلم قد قضى على عدة ثورات قامت باسم العلويين، على ما في كتاب: طبيعة الدعوة العباسية ص251، 253، فإننا نعتقد أن رسائله هذه، ورسائله التي أرسلها إلى المنصور يظهر فيها الندم على أنه زوى الأمر عن أهله، ووضعه في غير محله. هي السر، والسبب الحقيقي الكامن وراء قتله، مع أنه مؤسس الدولة العباسية (ومن سل سيف البغي قتل به)، ومشيد أركانها. وقد استظهر ذلك أيضًا المستشرق العلامة (بلوشيه) على ما في كتاب طبيعة الدعوة العباسية ص251، وأشار إليه أيضا السيد أمير على في كتابه: روح الإسلام ص311.

بالرفض أيضًا وأما سليمان الخزاعي: المدبر الحقيقي للثورة في خراسان، فإنه اتصل بعبيد الله بن الحسين الأعرج، وهما يسايران أبا جعفر المنصور في خراسان، عندما أرسله السفاح إليها، قال سليمان لعبد الله «إنا كنا نرجو أن يتم أمركم، فإذا شئتم فادعونا إلى ما تريدون!!»، فعلم أبو مسلم بالأمر، فقتل سليمان هذا بل إن هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن كثيرًا من الدعاة ما كانوا يعرفون أن الخليفة سيكون عباسيًا، فضلا عن أن يكونوا يعرفونه باسمه الصريح قال الدكتور فاروق عمر: «على أننا نستطيع القول: إن اسم الإمام كان معروفًا لدى الحلقات الخاصة من الشيعة الهاشمية، أو العباسية؛ وأن الكثير من الأنصار، الذين ساندوا الثورة، ومنهم ابن الكرماني نفسه، لم يكن يعرف أن «الرضا من آل البيت» سيكون عباسيًا، مع أن ابن الكرماني كان قائدًا كبيرًا، وكان يطمع إلى الاستيلاء على خراسان» طبيعة الدعوة العباسية ص209 ولقد اشتبه الأمر على الدكتور فاروق عمر؛ فإن ابن الكرماني كان من عمال الأمويين، ولم يكن من الشيعة في أي وقت من الأوقات، وإنما استمالة أبو مسلم توطئه للغدر به ولم يكن أبو مسلم ولا غيره من الدعاة والنقباء ليصرحوا لعدوهم بمثل هذا الأمر الذي يخفونه عن أخص الناس بهم، بل حتى عمن هم مثل المنصور.

يلاحظ أن العباسيين قد موهوا على الناس، واستطاعوا أن يخدعوهم، حيث خيلوا لم في بادئ الأمر أن الثورة كانت للعلويين ثم بدءوا يعدون العدة لما سوف يقولون للناس عند اكتشافهم لحقيقة الأمر؛ فصنعوا سلسلة الوصاية المعروفة عنهم من الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، إلى محمد بن الحنفية، فإلى أبي هاشم، فإلى علي بن عبدالله بن العباس وهكذا وهي في الحقيقة نفس عقيدة الكيسانية، وقد جازت حيلتهم هذه على الناس، الذين كانوا يظنون أنهم يعملون للعلويين، حتى لقد خفي أمرهم عن عبدالله بن

معاوية حسبما قدمنا، بل لقد كان من جملة المخدوعين، الذين اكتشفوا الحقيقة بعد فوات الاوان، سليمان الخزاعي، الذي يقدم أنه ـ باعترافه ـ كان يرجو هذا الأمر للعلويين، وأبو مسلم الخراساني الذي صارح المنصور بأن السفاح كان قد خدعه.. وأنه خدع أيضًا من قبل إبراهيم الإمام، حيث ادعيا الوصاية والإمامة، وحرفا الآيات الواردة في أهل البيت لتنطبق عليهم، مما كان من نتيجته أنه زوى الأمر عن أهله، ووضعه في غير محله أما انخداع ابن الكرماني فهو من الأمور الواضحة والمعروفة. بل لقد رأينا البعض يذكر أن أبا سلمة الخلال كان أيضًا من جملة المخدوعين، حيث كان يتوهم: أن الخليفة سيكون علويًا لا عباسيًا(1).

ومما تجدر الإشارة إليه هنا: هو ما تقدم من رفض الإمام القاطع لعرض كل من أبي سلمة، وأبي مسلم في جعل الدعوة له، وباسمه وما ذلك إلا لعمه عليه السلام بأن هؤلاء ليس لهم من هدف، إلا الوصول إلى مآربهم من الحكم والسلطان، ثم يتخلصون من كل من لايعودون بحاجة إليه، إذا اعتبروه عقبة في طريقهم كما كان الحال في قتلهم أبا مسلم، وسليمان بن كثير، وأبا سلمة وغيرهم شاهدنا على ذلك جواب الإمام عليه السلام لأبي مسلم: «ما أنت من رجالي، ولا الزمان زماني».. وكذلك المحاورة التي جرت بينه عليه السلام، وبين عبدالله بن الحسن، عندما جاءه كتاب من أبي سلمة مثل كتابه. وأيضا قوله عليه السلام: مالي ولأبي سلمة، وهو شيعة لغيري بل ومما يدل على ذلك دلالة قاطعة على اعتذار أبي سلمة للسفاح، عن مراسلته للصادق، وغيره من العلويين، بأنه: «كان يدبر استقامة الأمر» بل يذكر الطبري وابن

---

1 ـ جعفر مرتضى العاملي ـ نفس المرجع ص49 وانظر: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ج3 ص254. وفي كتاب: السيادة العربية لفان فلوتن ص97: أن النقباء أمروا بعض الدعاة بستر اسم المدعو له، واخفوا اسم المدعو له عن البعض الأخر.

الأثير: أنه عندما جمع السفاح خاصته ليستشيرهم بقتل أبي سلمة وأخبرهم بمكاتبته للعلويين نجد أن بعض خاصته انبرى ليقول: ما يدريكم لعل ما صنع ابوسلمة كان من رأى أبي مسلم واما كتابه للصادق فهو لا يدل على إخلاصه له، بل هو فقط ـ كان يدبر استقامة الأمر، وقتله من قبل العباسيين بهذا الجرم ليس إلا تغاضياً عن حقيقة الأمر بهدف الوصول إلى أهدافهم بالتخلص منه بطريقة مشروعة.

وعليه فلا يصح قول صاحب العيون والحدائق ص181: «ولم يكن هوى أبي سلمة معهم، وإنما كان هواه مع الصادق جعفر إلخ..» فإن لجوءه إلى الصادق إنما كان لأجل استقامة الأمر. بل إن بعض المحققين لايستبعد أن يكون من جملة أهدافهم من رسائلهم تلك، إلى الصادق، وعبدالله ابن الحسن، وغيرهما من العلويين هو معرفة إن كان هؤلاء يطمحون إلى الحكم، ويرغبون فيه أولا. وذلك ليستعد العباسيون ـ من ثم ـ لمواجهة دعوتهم، ورصد كل حركاتهم، وسكناتهم، ومن ثم شل حركتهم، والقضاء عليهم وهذا أسلوب استعمله المنصور من بعد، لكن الإمام الصادق عليه السلام تنبه للمكيدة، وعمل على إحباطها.

وتصريح أبي سلمة هذا وموقف الإمام عنه، وقوله: إنه شيعة لغيره يلقى لنا ضوءاً على الروايات التي تتهمه، وتتهم أبا مسلم بميول علوية وأن أبا مسلم أراد أن يعلن خلافة علوية؛ بمجرد وصوله إلى خراسان، كما عن الذهبي، وشارح شافية أبي فراس، وتاريخ الخميس. فإن ذلك لاشاهد له إلا رسائلهما التي أشرنا إليها.. مع أنها لم يكن الهدف منها إلا استقامة الأمر للعباسيين خصوصاً إذا لاحظنا أن أبا مسلم قد قضى على عدة ثورات للعلويين، وأنه كان يلاحقهم تحت كل حجر ومدر، وفي كل سهل وجبل، على حد تعبير الخوارزمي ولكننا لا نجد فيما بأيدينا من الشواهد التاريخية ما

يؤيد دعوى الخوارزمي هذه عدا ما ذكروه من أنـه: قتل عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر، وعبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين[1].

ثم تأتي المرحلة الرابعـة والأخـيرة، وهي: ادعـاؤهم الخلافـة بالإرث، ولكنهم استمروا يربطون الثورة بأهل البيت عليهم السلام من ناحيتين. الأولى ادعاؤهم الخـلافة بالإرث عن طريق الإمام علي بن أبي طالب عليـه السلام، ومحمـد بن الحنفية، الثانيـة: ادعاؤهم أنهم إنما خرجوا للأخـذ بثأر العلويين فأمـا ادعاؤهم اسـتحـقاقهم الخـلافة بالإرث، عن طريق الإمـام علي بن أبي طالب عليه السلام، واحتـجاجهم بقرابتهم النسبـية من رسول الله ﷺ، فإننا نلمحـها في كـثيـر من مواقفهم، حيث كـانوا يستطيلون على الـناس بهذه القربى، ويحتجون بها في مختلف المناسبات حيث قد ظلوا بحاجة لأن يصلوا حـقهم الذي كـانوا يدعـونه بحق الإمام علي بن أبـي طالب عليه السـلام، ووصايتهم بالوصاية التي له، والتي لا يجهلها أحد، وليصححوا بهذه الوسيلة خلافتهم، ويتقبلها الناس. مضيفين إليها تبرأهم من أبي بكر وعمر وعثمان.

وفي الحقيقة أن تلك هي عقيـدة الكيسانية انتحلوها لأنفسهم بوحي من مصـالحهم الخـاصـة. حـتى إذا ما وصـلوا إلى الحكم تراهـم قد قطعـوا حبل صلتهـم بالإمام علي عليـه السلام، وولداه، وجعلوا الخـلافة حـقا للعـباس وولده، ثم تخلوا عن ذلك كله فيـما بعد، ورجعوا إلى العـقيدة والنظم التي أسـسها مـعاوية، ولكنهم اختلفوا عنه بأنهم أدخلوا عليًـا، وجعلوه في المرتبة الرابعة، وكان ذلك بداية وجـود أهل السـنة بخصـائصهم، ومميـزاتهم المذهبية، ولهذا حاول العباسيون بعد أن استقر لهم الأمر أن يحيطوا خلافتهم بشيء من الشرعيـة معتبـرين أن قانون الوراثة في الشريعة الإسـلامية يعزز مـوقفهم أن الخلافة تركـة بعد النبي وأنهم من نـسل العبـاس ابن عم النبي. بينما العلويين

1 ـ جعفر مرتضى العاملي ـ نفس المرجع ص51.

من نسل فاطمة الزهراء بنت النبي ﷺ، العم في الميراث والعصبية مقدم على ابن البنت. ففي إحدى رسائل المنصور التي وجهها إلى محمد النفس الزكية يقول: وأما قولك أنكم بنو رسول الله، فإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ... ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب]. ولكنكم بنو بنته وإنها لقرابة قريبة ولكنها لايجوز لها الميراث ولا ترث الولاية ولا يجز لـها الإمامة فكيف تورث بها»؟ وأشاع العباسيون هذه النظرية عبر مؤيديهم من الشعراء والأدباء لمعرفة رد الفعل عليها. وهذا ما يستبعد فكرة التنازل عن الخلافة. والحقيقة هي أن العباسيين استغلوا فرصة الخلافة بين الأمويين والعلويين، لكي لايبقوا منفردين عملوا على الانضمام إلى العلويين الذين تربطهم بهم صلة النسب، من أجل هذا تعاونوا مع العلويين بادئ ذي بدء في «الدعوة إلى آل البيت» حتى كانت وفاة عبد الله بن محمد بن الحنفية (أبو هاشم) دون عقب، روجوا الرواية التي تقول: إن أبا هاشم سلم زمام الدعوة الكيسانية للعباسيين قبل وفاته وخوفًا من أن يبتعد الشيعة العلويون عنهم، فقد حرصوا على عدم إظهار أطماعهم في الخلافة، وأبقوا على تمويههم بأخذ البيعة «للرضى من آل محمد» دون تعيين أو تسمية أحد، في الوقت الذي أعادوا فيه ربط نسبهم إلى هاشم بن عبد مناف جد العلويين والعباسيين. ولما سقطت الدولة الأموية أعلن العباسيون خلافتهم السنية[1].

فقد قال داود بن علي، أول خطيب لهم على منبر الكوفة، في أول كلام له أمام السفاح: «وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا، والغضب لبني عمنا» ونرى السفاح في خطبته الأولى أيضًا في مسجد الكوفة، بعد أن ذكر عظمة الرب تبارك وتعالى، وفضل النبي ﷺ «قد قاد الولاية والوراثة، حتى انتهيا إليه، ووعد الناس خيرًا» ويقال: إن من جملة ما قاله السفاح في خطبته

1 ـ د. إبراهيم أيوب ص21 ـ الكامل ـ 319/5.

الأولى: «فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من الفيء، والغنيمة نصيبنا، تكرمًا لنا وفضلا علينا. وزعمت السبائية الضلال: أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة، إلى أن قال: ورد علينا حقنا لكن الظاهر أن لعن السبائية (وهم الشيعة الامامية حسب مصطلحهم) مفتعل على لسان السفاح؛ لأن كلمة داود بن على المتقدمة تدل على إنكار العباسيين - فى بدء أمرهم - خلافة أبى بكر، وعمر، وعثمان، وتمسكهم بخلافة الإمام علىّ ﷺ، حيث يصلون حبل وصايتهم بها، وإن كانوا قد رجعوا عن هذه العقيدة بعد ذلك إلى العقيدة التى كان قد روجها معاوية، ولكن من المؤكد أنهم استمروا على عقيدتهم تلك، أعنى إنكار خلافة الثلاثة، ووصلهم حبل وصايتهم بالإمام على ﷺ، إلى زمن المنصور، الذى كان أول من أوقع الفتنة بين العباسيين والعلويين.

ويقول داود بن على فى خطبته الأولى فى مسجد الكوفة أيضًا: «وأحيا شرفنا وعزنا، ورد إلينا حقنا وإرثنا».

موقف العباسيين من العلويين:

إلى أى مدى يمكن وصف عواطف العباسيين تجاه بنى عمومتهم العلويين؟ وهل كانت تلك العبارات التى تفوه بها أبو العباس السفاح، وعمه داود بن على، وغيرهما من زعماء العباسيين - عندما أعلنوا دولتهم - تجاه مواقفهم من العلويين - وما أصابهم من مظالم؟ هل كانت كل تلك تعبر عن حقيقة مشاعر العباسيين تجاه العلويين؟ يقول أبو العباس السفاح فى خطبته التى ألقاها من على منبر المسجد الجامع بالكوفة بعد مبايعته بالخلافة: «الحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه تكرمه، وشرفه وعظمه، واختاره لنا، وأيده بنا، وجعلنا أهله وكهفه وحصنه، والقوام به والذابين عنه والناصرين له، وألزمنا كلمة التقوى، وجعلنا أحق بها وأهلها، وخصنا برحم رسول الله ﷺ

وقرابته، وأنشأنا من آبائه، وأنبتنا من شجرته، واشتقنا من نبعته، وجعله من أنفسنا عزيزًا عليه ما عنتنا، حريصًا علينا بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتابًا يتلى عليهم، فقال عز من قائل: ﴿ ...إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحزاب]. وقال: ﴿ ...قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ... ﴿٢٣﴾ ﴾ [الشورى]. وقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء]، وقال: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ ... ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر]، فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من الفيء والغنيمة نصيبنا تكرمه لنا، وفضلا علينا، والله ذو الفضل العظيم.

وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا فشاهت وجوههم، بم ولم أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم ويصرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا الحق، وأدحض بنا الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسدًا، ورفع بنا الخسيسة، وأتم بنا النقيصة وجمع الفرقة، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة في دينهم ودنياهم، وإخوانًا على سرر متقابلين في آخرتهم، فتح الله ذلك منة ومنحة لمحمد ﷺ فلما قبضه الله إليه قام بذلك الأمر من بعده أصحابه، وأمرهم شورى بينهم، فحووا مواريث الأمم، فعدلوا فيها، ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها، وخرجوا خماصًا منها، ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها وتداولوها بينهم، فجاروا فيها، واستأثروا بها، وظلموا أهلها، فأملى الله لهم حينًا حتى آسفوه، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، ورد علينا حقنا، وتدارك بنا أمتنا، وولي نصرنا، والقيام بأمرنا، ليمن بنا على الذين استضعفوا في الأرض وختم بنا كما افتتح بنا، وإني لأرجو أن لا يأتيكم الجور من حيث

أتاكم النحير ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله.

يا أهل الكوفة، أنتم محل محبتنا، ومنزل مودتنا، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم يثنكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا وأتاكم الله بدولتنا، فأنتم أسعد الناس بنا، وأكرمهم علينا، وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا، فأنا السفاح المبيح، والثائر المبير وكان السفاح موعوكا فاشتد به الوعك فجلس على المنبر، وصعد داود بن علي عمه، فقام داود على مراقي المنبر فقال[1]:

الحمد لله شكرا شكرا، الذي أهلك عدونا، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد ﷺ. أيها الناس الآن اقشعت جنادس الدنيا، وانكشف غطاؤها وأشرقت أرضها وسماؤها، وطلعت الشمس من مطلعها وبزغ القمر من مبزغه وأخذ القوس باريها، وعاد السهم إلى منزعه، ورجع الحق لي نصابه في أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة بكم، والعطف عليكم.

أيها الناس إنا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر لنكثر لجينا ولا عقيانا، ولا نحفر نهرا، ولا نبني قصرا، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا، والغضب لبني عمنا، وما كرثنا من أموركم، وبهظنا من شؤونكم، ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا، ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم، وخرقهم بكم، واستذلالهم لكم، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم، لكم ذمة الله تبارك وتعالى، وذمة رسول ﷺ، وذمة العباس رحمه الله، أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله، ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله ﷺ.

---

1 ـ عبد العزيز اللعيلم ـ المرجع السابق ص69 وانظر: البلاذري/ أنساب الأشراف/ القسم الثالث ص ص 142 ـ 143.

تبًا تبًا لبني حرب بن أمية، وبني مروان، آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة، والدار الفانية على الدار الباقية، فركبوا الآثام، وظلموا الأنام، وانتهكوا المحارم، وغشوا الجرائم، وجاروا في سيرتهم بالعباد، وسنتهم في البلاد التي بها استلذوا تسربل الأوزار، وتجلبب الآصار، ومرحوا في أعنة المعاصي، وركضوا في ميادين الغي جهلا باستدراج الله، وأمنا لمكر الله، فأتاهم بأس الله بياتًا وهم نائمون، فأصبحوا أحاديث، ومزقوا كل ممزق، فبعدًا للقوم الظالمين، وأدالنا الله من مروان، وقد غره الله بالغرور، أرسل لعدو الله في عنانه حتى عثر في فضل خطامه، فظن عدو الله أن لن نقدر عليه، فنادى حزبه، وجمع مكايده، ورمى بكتائبه فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله، ومحق ضلاله، وجعل دائرة السوء به، وأحيا شرفنا وعزنا، ورد إلينا حقنا وإرثنا. أيها الناس: إن أمير المؤمنين نصره الله نصرًا عزيزًا إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة أنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره، وإنما قطعه عن استتمام الكلام بعد أن استحضر فيه شدة الوعك، وأدعو الله لأمير المؤمنين بالعافية، فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن، وخليفة الشيطان، المتبع للسفلة الذين أفسدوا في الأرض بعد صلاحها بإبدال الدين وانتهاك حريم المسلمين، الشاب المتكهل المتمهل المقتدي بسلفه الأبرار الأخيار، الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها بمعالم الهدى ومناهج التقوى.

فعج الناس له بالدعاء، ثم قال: يا أهل الكوفة إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان فأحيا بهم حقنا، وأفلج بهم حجتنا، وأظهر بهم دولتنا، وأراكم الله ما كنتم تنتظرون، وإليه تتشوقون، فأظهر فيكم الخليفة من بني هاشم، وبيض به وجوهكم، ومنَّ عليكم بإمام منحه العدالة، وأعطاه حسن الإيالة، فخذوا ما

آتاكم الله بشكر، والزموا طاعتنا، ولاتخدعوا عن أنفسكم فإن الأمر أمركم، وإن لكل أهل بيت مصرًا وإنكم مصرنا، ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأمير المؤمنين عبدالله بن محمد ـ وأشار بيده إلى أبي العباس ـ فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم ﷺ، والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا.

تلك العبارات التي تفوه بها داود بن علي من على منبر المسجد الجامع بالكوفة والتي قال فيها بعد حمد لله والثناء عليه: ما خرجنا لنحفر نهرًا، ولا لنبني قصرًا ولا لنجمع ذهبًا ولا فضة، وإنما أخرجنا الأنفة من انتزاع حقنا والغضب لبني عمنا؟ هل كانت تلك المشاعر تنم عن رغبة صادقة في مؤازرة العلويين في استعادة حقهم المسلوب، نظير ما لاقاه العلويون من الأمويين من تنكيل وقتل؟ الواقع يستبعد هذا، وما كان ذلك إلا لتبرير خروج العباسيين على الأمويين، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، ما هو إلا للدعاية من أجل جمع أكبر قدر ممكن من الأنصار والأعوان الذين يدينون بالولاء للعلويين قبل أن تظهر أسماء رجالات بني العباس على السطح بزمن طويل[1].

فالعباسيون عندما يتظاهرون بالغضب لما حل بالعلويين من قتل وتنكيل على أيدي الأمويين، وتأكيدهم لذلك على لسان داود بن علي عندما يخاطب أهل الكوفة، قائلا لهم: واعلموا يا أهل الكوفة أنه لم يصعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأبا العباس السفاح، ما هو أيضًا إلا بمثابة ذر الرماد في العيون بأن ما فعله العباسيون ما

---

1 ـ عبد العزيز النميلة ـ المرجع السابق ص71 وانظر: الطبري/ التاريخ الرسل والملوك جـ7 ص ص 425 ـ 428. ابن علمراني/ الإ في تاريخ الخلفاء ص ص 59 ـ 60.

هو إلا الانتقام لما نزل بالعلويين على أيدي بني أمية ليس إلا. فلو كان العباسيون صادقين حقًا في ادعائهم بأنهم ما خرجوا على الأمويين إلا غضبًا لما حل بالعلويين، فلماذا لم يؤازروا العلويين في ثوراتهم المتكررة ضد الدولة الأموية طيلة ستين عامًا قبل ظهور الدعوة؟ فأين موقف العباسيين من المآسي التي يتعرض لها العلويون، وهم لا يحركون ساكنًا؟ بل لم نسمع عن أحد منهم قام بهذا الأمر أو تكلم به. ومن ناحية ثالثة، فإنه إذا لم يحصل هذا - وهذا لم يحصل - أقصد مشاركة العباسيين للعلويين في نضالهم ضد الأمويين قبل الدعوة، فلماذا لم يشركوهم في الحكم والسياسة والإدارة بعد أن تمكنوا من الإجهاز على الأمويين؟ إذ أغفلوهم ولم يحفلوا بهم. ولو عدنا إلى الوراء قليلا لمعرفة تلك الحركات التي قام بها العلويون منذ أن قامت الدولة الأموية، وخاصة بعد مقتل الإمام الحسين بن علي عليه السلام في كربلاء، لعرفنا أن العلويين هم الذين كافحوا وناضلوا طويلا من أجل محاولة استعادة حقهم المغتصب من قبل الأمويين وأنهم لم يتركوا تلك المطالبة بل عملوا كل الوسائل في سبيل الوصول إلى الخلافة. ولقد وجد دعاتهم في مقتل الحسين ابن علي سببًا قويًا للتأثير على مشاعر كثير من الناس سواء من صدق معهم في هذا أم لم يصدق، كما فعل المختار بن أبي عبيد الثقفي في دعوته التي تبين فيما بعد أنه لم يعمل ذلك من أجل العلويين بقدر ما كان محاولة منه لاستقطاب الفئات الناقمة على الأمويين وفي نفس الوقت المناصرة للعلويين ليس إلا[1].

وجد الدعاة في هذه الحادثة سببًا للتأثير على مشاعر الناس وجعلتهم يحسون بالندم والأسى والرغبة في استئصال شأفة الأمويين والآثار المترتبة على مقتل الإمام الحسين عليه السلام موجودة في عدد من المصادر التاريخية كالطبري

---

1 - عبد العزيز اللميلم - نفس المرجع ص73.

والمسعودي وابن الأثير وغيرهم كثير. كل هذه التساؤلات تجيب عنها الأحداث التالية التي تحدث عنها المؤرخون. لقد قامت الدولة العباسية وهي تحمل في طياتها معارضة سياسية من قبل العلويين أصحاب الحق في رئاسة الدولة الإسلامية وورثة جدهم رسول الله محمد ﷺ، وإن الدعوة كانت باسمهم، إلا أن العباسيين اغتصبوا منهم ذلك الحق، فوقفوا منهم موقفهم من الأمويين والكل يعلم ما لاقاه العلويون من الاضطهاد والتنكيل والمذابح الجماعية من الأمويين، ولعل من أهم الأمور المتصلة بهذا الموضوع حادثة كربلاء التي قتل فيها الإمام الحسين عليه السلام، ثم خروج المختار مطالبًا بدم الإمام الحسين عليه السلام، ثم نهاية أبي هاشم «عبدالله بن محمد» على يد «سليمان بن عبد الملك»، ثم خرج الإمام زيد بن علي في أيام هشام بن عبد الملك ونهايته، ثم ابنه يحيى بن زيد، الذي كانت نهايته هو الآخر على يد الوليد ابن يزيد بن عبد الملك. وبعد أن تولى العباسيون الخلافة عملوا في العلويين أسوأ بكثير مما عمله الأمويون في العلويين، يقول البعض عن ذلك. سار العباسيون على نهج الأمويين، فاتسمت سياستهم إزاء أهل البيت [يقصد العلويين] بطابع الحسد الشديد الذي دفع الأمويين إلى تشريدهم واضطهادهم، ولم يكن للعباسيين أي حق في المطالبة بالخلافة، ولكنهم اتخذوا من محبة الناس للعلويين سلمًا للوصول إلى ذروة المجد، فلما وصلوا إلى غايتهم المنشودة كافأوا أولئك العلويين بضروب الاضطهاد والتنكيل والمذابح الجماعية، كما أنزلوا العقوبات بالفقهاء الذين تجاسروا على المجاهرة برأي لا يحظى بالقبول لدى الحكام. ولعل أصدق مثل على ذلك التذمر ما قاله أحد الشعراء منددًا بالعباسيين إذ يقول:

يا ليت جور بني مروان عادلنا ... يا ليت عدل بني العباس في النار

لا شك بأن ادعاء العباسيين بحقهم في الخلافة قد مر بمرحلتين مختلفتين تتميز كل منهما عن الأخرى من حيث الفحوى والأهمية، يقول البعض عن هذا: في فترة الدعوة السرية ضد الحكم الأموي، تلك الفترة التي كان الدعاة العباسيون فيها يهدفون إلى كسب أكبر عدد ممكن من المعارضين للسلطة الأموية رفعت شعارات عامة، مثل حق أهل البيت أو بني هاشم[1].

إننا إذا تتبعنا الأحداث التاريخية، نجد: أن كل مطالب بالخلافة كان يدعي أول ما يدعي الرحمية والقربى من رسول الله ﷺ. وأول من بدأ ذلك أبوبكر في يوم السقيفة، وتبعه على ذلك عمر؛ حيث قررا أن ليس لأحد الحق في أن ينازعهم سلطان محمد؛ إذ أنهم أمس برسول الله ﷺ رحماً (على ما في نهاية الأرب ج 8ص 168، وعيون أخبار ابن قتيبة ج22 ص233، والعقد الفريد ج4 ص258، طبع دار الكتاب العربي، والأدب في ظل التشيع ص24، نقلا عن البيان والتبيين للجاحظ)؛ ولأنهم هم أولياؤه وعشيرته، على ما ذكره الطبري ج3 ص220، طبع دار المعارف بمصر، والإمامة والسياسة ص14، 15 طبع الحلبي بمصر، وشرح النهج للمعتزلي ج 6 ص 7، 8، 9، 11، والإمام الحسين للعلايلي ص186، وص 190، وغيرهم. أو لأنهم عترة النبي ﷺ وأصله والبيضة التي تفقأت عنه كما في العثمانية للجاحظ ص200. فأسقطا بذلك دعوى الأنصار عن الاعتبار كما أن أبا بكر قد استدل على الأنصار بالحديث الذي صرح باستفاضته أهل السنة (على ما في ينابيع المودة للحنفي)، وهو قوله ﷺ مشيراً إلى خلفائه الاثني عشر: «يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلهم تجتمع عليه الأمة، كلهم من قريش». استدل به ـ بعد أن تصرف فيه، بأن حذف صدره، واكتفى بذكر: أن الأئمة من قريش على ما في صواعق ابن حجر ص6، وغيره. وأصبح كون الأئمة من قريش تقليداً

---

1 ـ عبد العزيز اللميلم ـ نفس المرجع ص74.

متبعًا، بل ومن عقائد أهل السنة المعترف بها، وقد استدل ابن خلدون على ذلك بالإجماع.

أما ابن كثير فإنه قد استشكل بالأمر من ناحية أخرى؛ حيث قال ـ وهو يتحدث عن فتنة محمد بن الأشعث الكندى ـ : «والعجب كل العجب من هؤلاء الذين بايعوه بالإمارة، وليس هو فى قريش، وإنما هو كندى من اليمن؛ وقد اجتمع الصحابة يوم السقيفة على أن الإمارة لاتكون إلا فى قريش، واحتج عليهم الصديق بالحديث في ذلك، حتى أن الأنصار سألوا أن يكون منهم أمير مع أمير المهاجرين، فأبى الصديق عليهم ذلك. ثم مع هذا كله ضرب سعد بن عبادة، الذى دعا إلى ذلك أولا، ثم رجع عنه» راجع البداية والنهاية ج9 ص54. فتراه يستشكل فى عمل من بايعوا محمد بن الأشعث بإمرة المؤمنين، التى رآها مخالفة للإجماع المدعى يوم السقيفة. وتراه يعترف بمخالفة سعد ثم يدعى أنه رجع عن ذلك.. ولست أدرى كيف رجع عنه، مع أنه من المتسالم عليه تاريخيًا: أنه استمر على الخلاف معهم، حتى اغتيل بالشام ـ اغتالته السياسة، على حد تعبير طه حسين فى كتابه: من تاريخ الأدب العربى ج1 ص146؛ وغيره. وذلك أشهر من أن يحتاج إلى بيان وعلى كل حال. فإن ما يهمنا هو الإشارة إلى أن كون الأئمة من قريش ليس فقط أصبح تقليدًا متبعًا، بل أصبح من عقائد أهل السنة المعترف بها. ولكن ما تأتى به السياسة، تذهب به السياسة؛ إذ بعد تسعمائة سنة جاء السلطان سليم، وخلع الخليفة العباسى، وتسمى هو بـ: «أمير المؤمنين»، مع أنه لم يكن من قريش. وبهذا يكون قد ألغى هذا التقليد عملا من عقائد طائفة من المسلمين السنة، وأبطله، ومهما يكن من أمر فإن أول من أدعى استحقاق الخلافة بالقربى النسبية من رسول الله ﷺ كان أبو بكر، ثم عمر، وجاء بعدهما بنو أمية؛ فعرفوا أنفسهم بأنهم ذوى قربى النبى ﷺ حتى لقد حلف

عشرة من قواد أهل الشام، وأصحاب النعم والرياسة فيها ـ حلفوا ـ للسفاح: على أنهم لم يكونوا يعرفون إلى أن قتل مروان، أقرباء للنبي ﷺ، ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية. راجع النزاع والتخاصم للمقريزي ص28، وشرح النهج للمعتزلي ج 159/7، ومروج الذهب ج3 ص33 وفتوح ابن أعثم ج8 ص59 بل لقد ذكر المسعودي والمقريزي: أن إبراهيم بن المهاجر البجلي، الموالي للعباسيين قد نظم قضية هؤلاء الأمراء شعراً، فقال:

أيها الناس اسمعوا أخبركم   عجبًا زاد على كل العجب

عجبًا من عبد شمس إنهم   فتحوا للناس أبواب الكذب

ورثوا أحمد فيما زعموا   دون عباس بن عبدالمطلب

كذبوا والله ما نعلمه   يحرز الميراث إلا من قرب

ويقول الكميت عن دعوى بني أمية هذه:

وقالوا: ورثناها أبانا وأمنا   ولاورثتهم ذاك أم ولا أب

نجد في العقد الفريد ج 120/2 طبع دار الكتاب العربي: أن أروى بنت الحارث بن عبدالمطلب قالت لمعاوية: «ونبينا ﷺ هو المنصور؛ فوليتم علينا من بعده، تحتجون بقرابتكم من رسول الله ﷺ، ونحن أقرب إليه منكم، وأولى بهذا الأمر إلخ..» ثم جاء العباسيون، وادعوا نفس هذه الدعوة، كما هو واضح من النصوص التي ذكرناها، ونذكرها بل لقد ادعى نفس هذه الدعوى أيضًا أكثر إن لم يكن كل من خرج مطالبا بالخلافة، سواء كان خروجه على الأمويين أو على العباسيين، وهذا يعني أن العامل النسبي قد لعب دوراً مهما في الخلافة الإسلامية، وكان الناس بسبب جهلهم، وعدم وعيهم لمضامين الإسلام يصدقون ويسلمون بأن القربى النسبية تكفي وحدها في أن تجعل لمدعيها الحق في منصب الخلافة. ولعل أكثر ما ورد في القرآن

الكريم، والسنة النبوية الشريفة من الوصايا بأهل البيت عليهم السلام، والأمر بمودتهم، ومحبتهم، والتمسك بهم جعل الناس يظنون أن سبب ذلك هو مجرد قرابتهم النسبية منه ﷺ وكان أن استغل الطامحون فهم الناس الخاطئ هذا. بل لقد حاولوا ما أمكنهم تكريسه، وتثبيته إلا أن حقيقة الأمر هي غير ذلك، فإن منصب الخلافة في الإسلام، لا يدور مدار القربى النسبية منه. بل هو يدور مدار الأهلية والجدارة، والاستعداد الذاتي لقيادة الأمة قيادة صالحة، كما كان النبي ﷺ يقودها، يدلك على ذلك أننا لو رجعنا إلى النصوص القرآنية، وإلى ما ورد عن النبي ﷺ بشأن الخليفة بعده، فلعلنا لا نعثر على نص واحد منها يفهم منه أن استحقاق الخلافة يدور مدار القربى النسبية منه ﷺ، وحسب. وكل ما ورد في القرآن، وعنه ﷺ من الأمر بموالاة أهل بيته، وحبهم، والتمسك بهم، ومن تعيينه خلفاءه منهم، فليس لأجل قرابتهم النسبية منه ﷺ. بل لأن الأهلية، والجدارة الحقيقة لهذا المنصب قد انحصرت في الخارج فيهم. فهو على حد تعبير الأصوليين: من باب الإشارة إلى الموضوع الخارجي، وليس تصريحه ﷺ بالقربى لأجل بيان الميزان والمقياس والملاك في استحقاقهم الخلافة. وواضح أنه كان لابد من الالتجاء إلى الله ورسوله لتعيين الشخص الذي له الجدارة والأهلية لقيادة الأمة؛ لأن الناس قاصرون عن إدراك حقائق الأمور، ونفسيات، وغرائز، وملكات بعضهم البعض، إدراكًا دقيقًا وحقيقيًا، وعن إدراك عدم طرو تغير أو تبدل عليه في المستقبل. ولقد عينه ﷺ بالفعل، ودل عليه بمختلف الدلالات، بالقول: تصريحًا، وتلويحًا، وكتابة، ونصًا، ووصفًا، وغير ذلك.. وبالفعل أيضًا، حيث أمره على المدينة، وعلى كل غزوة لايكون هو ﷺ فيها، ولم يؤمر عليه أحدًا، وغير ذلك..

هذا هو رأي الشيعة، وهذا هو رأي أئمتهم في هذا الأمر، وكلماتهم طافحة ومشحونة بما يدل على ذلك. ولايبقى معه مجال لأي لبس أو توهم؛

فراجع كلام الإمام على فى شرح النهج للمعتزلى ج6 ص12، وغيره مما قد يتعسر استقصاؤه.

ومما ذكرنا نستطيع أن نعرف أن ما ورد عن الإمام علىّ ﷺ، أو عن غيره من الأئمة الطاهرين، من قولهم: أنهم هم الذين عندهم ميراث رسول الله ﷺ؛ فإنما يقصدون به الميراث الخاص، الذى يختص الله به من يشاء من عباده، أعنى: ميراث العلم؛ على حد قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا... ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر]، وقد اعترف أبو بكر نفسه لفاطمة الزهراء بأن الأنبياء يورثون العلم لأشخاص معينين من بعدهم. وعلى كل فلقد أنكر الإمام علىّ ﷺ مبدأ استحقاق الخلافة بالقرابة والصحابة أشد الإنكار، فقد جاء فى نهج البلاغة قوله ﷺ: «واعجبا!! أتكون الخلافة بالصحابة والقرابة؟!!». هكذا فى نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ولكن الظاهر هو أنها محرفة، وأن الصحيح هو ما فى نسخة ابن أبى الحديد، وهى هكذا: «واعجبا!! أن تكون الخلافة بالصحابة، ولاتكون بالصحابة والقرابة!!».

وأما ما يظهر منه أنهم يستدلون لاستحقاقهم الخلافة بالقربى من رسول الله ﷺ، فإنما اقتضاه الحجاج مع الخصوم؛ فهو من باب: «الزموهم بما الزموا به أنفسهم». ويدل على هذا المعنى ويوضحه ما قاله الإمام على عليه السلام لأبى بكر، عندما جيئ به ليبايع؛ فكان مما قاله: «واحتججتم عليهم (أى على الأنصار) بالقرابة من النبى ﷺ. وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار، نحن أولى إلخ». راجع: الإمامة والسياسة ج1 ص 18.

ويشير أيضًا ﷺ - إلى هذا المعنى فى بعض خطبه الموجودة فى نهج البلاغة فمن أراد فليراجعه. كما يشير إليه أيضًا ما نسب إليه ﷺ من الشعر (على ما فى نهج البلاغة) وهو قوله[1]:

---

1 - جعفر مرتضى العاملى - المرجع السابق ص56.

فإن كنت بالشورى ملكت أمورهم   فكيف بهذا والمشيرون غيب

وان كنت بالقربى حججت خصيمهم   فغيرك أولى بالنبي وأقرب

ولكن أحمد أمين المصرى فى كتابه: ضحى الإسلام ج3 ص261، وص300، وص222، وص325. وكذلك سعد محمد حسن فى كتابه: المهدية فى الإسلام ص5 = والخضرى فى محاضراته ج1 ص166: إن هؤلاء ينسبون إلى الشيعة القول: بأن منصب الخلافة يدور مدار القربى النسبية منه ﷺ وحسب. رغم اعتراف أحمد أمين فى نفس الكتاب، وبالتحديد فى ص 208، 212: بأن الشيعة يحتجون بالنص فى خصوص الخليفة بعد الرسول. بل والخضرى يعترف بذلك أيضًا حيث قال: «أما الانتخاب عند أهل التنصيص على البيت العلوى، فإنه كان منظوراً فيه إلى الوراثة إلخ».

وهى نسبة غريبة حقًا ـ بعد هذا الاعتراف الصريح منهم، ومن غيرهم ـ فإن عقيدة الشيعة ـ تبعًا لأئمتهم هى ما ذكرنا، أى ليس منصب الخلافة دائراً مدار القربى النسبية منه ﷺ، وأدلة الشيعة تنطق وتصرح بأن القربى النسبية وحدها لا توجب بأى حال من الأحوال استحقاق الخلافة، وإنما لا بد من النص المعين لذلك الشخص الذى يمتلك الجدارة والأهلية والاستعداد الذاتى لها.

إنهم يستدلون على خلافة الإمام علىّ عليه السلام بالنصوص القرآنية، والنبوية المتواترة عند جميع الفرق الإسلامية، ولا يستدلون بالقربى إلا من باب: ألزموهم. أو من باب تكثير الأدلة، أو فى مقابل استدلال أبى بكر وعمر بها، وإذا ما شذ واحد منهم، واستدل بذلك، معتقداً بخلاف ما قلناه عن قصور نظر، وقلة معرفة، أو لفهمه ـ خطأ ـ ما ورد عنهم عليهم السلام، من أن عندهم ميراث رسول الله ﷺ؛ فلا يجب، بل لايجوز أن يحسب على الشيعة، ومن ثم القول بأن ذلك هو قولهم، وأن تلك هى عقيدتهم.

ولعل أحمد أمين لم يراجع أدلة الشيعة!! أو أنه راجعها، واشتبه عليه الأمر!! أو أنه. لا هذا. ولا ذاك. وإنما أراد التشنيع عليهم؛ فنسب إليهم ما ليس من مذهبهم!

ويدلنا على صحة هذا الاحتمال الأخير، اعترافه المشار إليه، بأن الشيعة يستدلون على إمامة علي عليه السلام بالنص، لا بالقربى!!.

وخلاصة القول هنا: إن القربى النسبية ليس هي الملاك في استحقاق الخلافة. ولم تكن دعوى أنها كذلك، لا من الأئمة، ولا من شيعتهم. وإنما كانت من قبل أبي بكر، وعمر، ثم الأمويين، فالعباسيين.

وإذا كان أهل السنة ـ تبعًا لأئمتهم ـ قد جعلوا كون الإمامة في قريش من عقائدهم. وإذا كان غير أهل البيت هم الذين ادعوا هذه الدعوى، وهللوا وكبروا لها. فمن الحق أن نقول:

«رمتني بدائها وانسلت» وأخيرًا، فلقد كان من أبسط نتائج هذه العقيدة لدى أهل السنة، وقبولهم أن القربى النسبية تجعل لمدعيها الحق في الخلافة. أن سنحت الفرصة لأن يصل أشخاص إلى الحكم من أبرز مميزاتهم، وخصائصهم جهلهم بتعاليم الدين، وانسياقهم وراء شهواتهم، أينما كانت، وحيثما وجدت، جاعلين الحكم والسلطان وسيلة إليها، مسدلين على حماقاتهم هنا، وتفاهاتهم هناك ستارًا من القربى النسبية منه ﷺ وهو من هؤلاء وأمثالهم بريء ولما لم يعد ذلك الستار يقوى على المنع من استكناه واقعهم، وحقيقة نواياهم وتصرفاتهم، كان لابد لهم من الالتجاء إلى أساليب أخرى، تبرر لهم واقعهم، وتحمي تصرفاتهم، وتؤمن لهم الاستمرار في الحكم، ولعل بيعة المأمون للإمام الرضا ﷺ بولاية العهد هي من تلك الأساليب.

وعندما ذهب داود بن علي إلى مكة، واليًا عليها، من قبل أخيه السفاح، وأراد أن يخطب في مكة خطبته الأولى، طلب من سديف بن

ميمون أن يأذن له في الكلام؛ فأذن له؛ فوقف؛ وقال من جملة ما قال: «أتزعم الضلال: أن غير آل الرسول أولى بتراثه؟! ولم؟! وبم؟! معاشر الناس؟! ألهم الفضل بالصحابة، دون ذوي القرابة؟ الشركاء في النسب، والورثة للسلب» ويقول داود بن علي في نفس المناسبة، أعني في أول خطبة له: «لم يقم فيكم إمام بعد رسول الله ﷺ، إلا علي بن أبي طالب، وهذا القائم فيكم» وأشار إلى السفاح. وبرواية أخرى فيه «أقسم بالله قسماً براً، ما قام هذا المقام أحد بعد رسول الله ﷺ وآله، أحق به من علي بن أبي طالب، وأمير المؤمنين هذا»[1].

قال المنصور في خطبة له: «وأكرمنا من خلافته، ميراثنا من نبيه» ولكنهم بعد المنصور - بل وحتى من زمن المنصور نفسه، قد غيروا سلسلة الإرث هذه، وجعلوها عن طريق العباس، وولده عبدالله، ولكنهم أجازوا بيعة علي؛ لأن العباس نفسه كان قد أجازها. فكانت استدلالات الخلفاء ابتداءً من المنصور ناظرة إلى الإرث عن هذا الطريق. فنرى المنصور يبين في رسالة منه لمحمد بن عبد الله بن الحسن: أن الخلافة قد ورثها العباس في جملة ما ورثه من النبي ﷺ، وأنها في ولده. وكان الرشيد يقول: «ورثنا رسول الله، وبقيت فينا خلافة الله» وقال الأمين عندما بويع له، بعد موت أبيه الرشيد: «وأفضت خلافة، وميراث نبيه إلى أمير المؤمنين الرشيد» ومدح البعض المأمون، وعرض بأخيه الذي غدر به، فقال في جملة أبيات له:

إن تغدروا جهلا بوارث أحمد ووصي كل مسدد وموفق

ولكن ما هو الحق الشرعي الذي استند عليه محمد والعباسيون من بعده كأساس للمطالبة بالخلافة؟ العباسيون يسوقون في ذلك قصة لها طابع قصصي يفسرون بها هذا الحق الشرعي لخلافتهم بتنازل الإمام أبي هاشم بن محمد

1 - البداية والنهاية 42/10 وشرح المنهج المعتزلي ج7 ص155.

الحنفية والذى سمى بابن الحنفية لأن أمه خولة بنت قيس بن جعفر الحنفى، كانت من عرب بنى حنيفة وهم فرع من قبيلة بكر بن وائل العدنانية، وكانت منازل بنى حنفية فى اليمامة. أما تسميتهم بالكيسانية فنسبه إلى أبى عمرو كيسان قائد حرس المختار بن عبيد الله الثقفى الذى ثار بالكوفة ودعا لمحمد بن الحنفية (المهدى) عام 66هـ الموافق 685م ثم تمكن الأمويون من قتل المختار عام 67هـ الموافق 686هـ. ولهذا سمى أتباع هذه الفرقة بالكيسانية والمختارية والهاشمية.

تقول هذه الرواية أن الإمام أبا هاشم بن محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب إمام الشيعة الكيسانية والملقب بالمهدى، زار الخليفة الأموى سليمان ابن عبد الملك، وأن سليمان لمس فيه ذكاء ونشاطًا وعلمًا وفصاحة فتخوف منه لعلمه أن الشيعة هم الحزب المنافس لبنى أمية، ودس من تعقبه وسقاه لبنا مسمومًا. وشعر أبو هاشم بالسم يسرى فى بدنه فأدرك أنه ميت لا محالة، وكان بالقرب من بلدة الحميمة فعرج عليها، وهناك لقى على بن عبدالله بن العباس، فأخبره بأنه هالك لا محالة ولا عقب له، وأنه سيتنازل له عن حقه فى الخلافة وسلم له زمام الدعوة الكيسانية[1].

قرر المجتمعون ـ على اختلاف آراء المؤرخين فى عدد الاجتماعات وأماكنها إذ أن منهم من أشار إلى عقد ذلك الاجتماع فى الابواء بين مكة والمدينة، فى حين أشار البعض الآخر إلى أن الاجتماع قد تكرر فى كل من مكة والمدينة ـ بأن يكون محمد النفس الزكية هو الإمام المنتظر فيما إذا قدر لهم الإطاحة بالأمويين، وقد تم ذلك فيما يقال عام 127هـ الموافق 744م. هذا الاجتماع لا يخلو من واحد من اثنتين: الأولى: إما أن يكون صحيحًا ما قرروه فى اجتماعهم، وهو اختيار النفس الزكية إمامًا لهم، لأنه فى نظر

---

1 ـ د. أحمد مختار العبادى ـ المرجع السابق ص19.

الكل «مهدى آل البيت» وهذا فى حد ذاته يعنى اغتصاب العباسيين حق العلويين فى الخلافة، كما أنه فى نفس الوقت يدحض ادعاء العباسيين بقضية التنازل، لأن مسألة التنازل لو كانت حقيقة واقعة فلماذا يجتمعون وهم مؤمنون بأحقيتهم فى الخلافة ـ أقصد العباسيين ـ بعد تنازل العلويين عن حقوقهم لهم؟ الثانية: أما إذا كان العكس وهو عدم قبول العباسيين بترشيح محمد النفس الزكية للإمامة كما يقول البعض من أن المجتمعين لم ينتهوا إلى قرار حاسم حيال مبايعة واحد من الطرفين، فهذا بدوره يعنى الحق كل الحق فى مشاركة العلويين للعباسيين فى الحكم الذى استأثر به العباسيون بعد الإطاحة بالأمويين، كما يفند فى نفس الوقت ادعاء العباسيين بمسألة التنازل. ولهذا فإننا نجد بأن العباسيين يعلنون دولتهم من على منبر المسجد الجامع فى الكوفة دون أن يفكروا فى العلويين، أو أن يسندوا إليهم منصبًا فى الدولة. وليت الأمر اقتصر على ذلك بل إن العباسيين عملوا كل ما فى وسعهم لمطاردة العلويين، واستئصال شأفتهم، خاصة فى عهد المنصور، ولعل لهم بعض العذر فى ذلك، نظرًا لعدم رضى العلويين فى استحواذ العباسيين على السلطة دون مشاركتهم لهم. ويبدو أيضًا بأن أبا هاشم لم يكن غرًا إلى هذا الحد، وذلك بإضاعة جهود من سبقه من العلويين فى هذا المجال ممن قدموا أنفسهم ثمنًا لذلك ثم يقدم تلك الجهود بطبق من ذهب لواحد من بنى عمومته، لم يتعب ولم يسع فيه ساعة واحدة طيلة ما يقرب من ستين عامًا «أى منذ قيام الدولة الأموية حتى نهاية القرن الأول الهجرى». ثم إنه من ناحية أخرى، ألا يوجد من بين العلويين وشيعتهم من يمكن أن يسند إليه ذلك الأمر، وهو أمر الدعوة؟.

فى اعتقادنا أن هناك العديد ممن يمكن أن يسند إليهم أمر الدعوة من العلويين لأنه ليس من حق أبى هاشم أن يتنازل بتلك البساطة حتى ولو كان

هو الداعية، لأنه يدعو باسم العلويين وبهذا يمكن أن نقول: إن دوره في هذا عبارة عن شخص فوض من قبل العلويين (خاصة الفرع الحنفي) للقيام بهذا الأمر، أما أن يتنازل عن هذا الحق الذي يدعيه ويضيعه في ساعات، وهو لا يملك ذلك الحق فهذا ما استبعدناه ثم إنه من ناحية ثالثة، لو أن أبا هاشم قد تنازل فعلا عن حقه في الإمامة فهل يمثل أبو هاشم وجهة نظر سائر العلويين؟[1].

الواقع أيضًا يستبعد ذلك لأن أبا هاشم لو فرض قد تنازل للعباسيين فعلا عن هذا الحق، فهو لا يمثل سوى الفرع الحنفي، أما بقية الفروع من حسنية وحسينية فهو لا يمثلها، ولا يتكلم باسمها، لأن تلك الفروع كانت لها جهود جبارة في مقاومة الأمويين أكثر بكثير مما تلمسه بالنسبة للفرع الحنفي فها هو الإمام الحسين بن علي ﷺ وما جرى له مع الأمويين ونهايته على أيديهم في موقعة كربلاء الشهيرة، ثم حفيده الإمام زيد بن علي بن الحسين وثورته وقتله هو الآخر على يد هشام بن عبدالملك، ثم الإمام يحيى بن زيد بن علي بن الحسين، ونهايته كذلك على يد الخليفة الأموي الوليد بن يزيد بن عبدالملك، وأخيراً ذلك الاجتماع الذي ضم العلويين والعباسيين في نهاية عهد الدولة الأموية، وتم فيه ترشيح محمد النفس الزكية للخلافة. وإذا نظرنا إلى الفرع الحنفي نجد أن محمدًا بن الحنفية «والد أبي هاشم» قد بايع لعبدالملك بن مروان بعد أن قضى الأخير على ابن الزبير في عام 73هـ الموافق 692م. هذا إذا استبعدنا موضوع ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي ودعوته لابن الحنفية، لأن ابن الحنفية لم يؤيده في هذا الموضوع. ولهذا فإن هذا الفرع - نقصد الحنفي - لم يبذل من الجهد مثل ما بذله الفرعان الحسيني أولا في عهد الدولة الأموية، ثم الفرع الحسني ثانيًا في نهاية عهد الدولة الأموية وأوائل

1 - عبد العزيز اللميلم - المرجع السابق ص51.

الدولة العباسيـة مثلا في محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم، ثم الحسين بن علي بن الحسن، وغيرهم. ولهذا فإن ادعاء العباسيين بهذا الحق - إن كان فعلا قد حصل - فهو لايعطيهم الحق في تنازل العلويين عمومًا عن حقهم في الإمامة. مسألة أخرى، هي: لو أننا افترضنا جدلا بأن التنازل كان صحيحًا فهل يمكن أن يتنازل أبو هاشم عن الدعوة وأسرارها لمحمد بن علي بن عبدالله بن عباس في نهاية القرن الأول الهجري عام 98هـ الموافق 716م، كما يقول البعض من المؤرخين، مع وجود والده علي الذي تزعم تلك الدعوة ما يزيد عن ثمانية عشر عامًا حتى توفي عام 118هـ الموافق 736م؟ وهل يمكن أن يتنازل أبو هاشم لمحمد في الوقت الذي كان والده علي موجودًا؟. وهل كان محمد هذا هو المسؤول عن أمور الدعوة في حياة والده؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما هي الوظيفة التي كان يزاولها والده علي؟. هل كان خامل الذكر؟ الحقائق التاريخية ترفض ذلك، فلقد ذكر عنه البعض بأنه كان ميالا وطموحًا يسعى لنيل الخلافة[1].

وأكبر دليل على ذلك أنه عندما وفد إلى دمشق لمس منه الخليفة الوليد ذلك الطموح، فأساء معاملته، يقول البعض في هذا: وفد علي بن عبد الله ابن عباس إلى دمشق في خلافة عبد الملك ليسكن فيها، واشتهر بتقواه، ولكنه كان طموحًا يسعى لنيل الخلافة إلا أن الوليد أساء معاملته مما اضطره للاستقرار في الحميمة. ويقول آخر: «لما حانت منية أبي هاشم كان مقيمًا بالحميمة عند بني عمه، فأدلى بتصييه من الخلافة إلى علي هذا وأولاده، وأوصى أولياءه به، فصارت الشيعة الكيسانية في جانب علي، وحينما

---

1 - عبد العزيز النميلم - نفس المرجع ص53 وانظر: المقدسي/ كتاب البدء والتاريخ/ المنسوب إلى أبي زيد أحمد بن سهل البلخي وهو لمطهر المقدسي جـ6 ص57. الخضري/ محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية/ الدولة العباسية ص135، حسن/ الدولة العباسية قيامها وسقوطها ص20.

حضرت الوفاة عليا هذا فأوصى إلى ابنه محمد فيها. ويقول ثالث: «لقد كان علي العباسي أول شخصية عباسية تطمح لنيل الخلافة، لقد نادى أكثر من مرة بحق العباسيين، وكانت السلطة الأموية تنظر إليه بعين الشك والريبة والحذر، ولكن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان - بنظرته السياسية الرصينة - رأى بأنه من الأجدر عدم التعرض إليه لأن أي تصادم معه قد يؤدي إلى ذيوع شهرته وشعبيته بين الناس. وحينما جاء الخليفة الوليد إلى الحكم سجنه مرتين، وضربه بالسياط وأهانه في شوارع دمشق على مرأى من الناس، ثم نفاه إلى الشراة في جنوب الأردن، ولذلك اتخذ الحميمة مقرًا له. وبعد وفاة علي العباسي عام 118هـ الموافق 736م أظهر ابنه محمد شخصية بارزة في البيت العباسي، وقد كانت علاقته بأبي هاشم طيبة وودية[1].

ومعنى هذا فإن الدكتور فاروق عمر يعترف بأن شخصية محمد لم تظهر إلا بعد وفاة والده في عام 118هـ الموافق 736م، أما الفترة بين عامي 98هـ الموافق 716م، 118هـ الموافق 736م فقد كان علي بن عبد الله هو الشخصية البارزة في ذلك الوقت، وهذا لايعني أن محمدًا لم يشارك أباه في تنظيم الدعوة السرية إلا أنه لم يكن هو المسؤول عنها دون غيره. ومما يؤيد هذا الرأي ما أشار إليه البعض إذ يقول: وقد صار علي بن عبد الله بن العباس حول عام 100هـ الموافق 718م وهو شيخ آل محمد قادرًا على أن يتكلم باسمهم دون أن ينازعه أحد أو يشك في نواياه، وكان من الطبيعي أن ينظر آل البيت بعين الرضا لكل تنظيم يدعو إلى آل البيت، فاغتنم هذه الفرصة علي بن عبدالله بن عباس، وكانت فرصة ذهبية، فلما نجح بيته استأثر

1 - عبد العزيز اللميلم - نفس المرجع ص54 وانظر: عمر: فاروق. العباسيون الأوائل جـ1 ص40، بحوث في التاريخ العباسي ص70 المؤلف نفسه. محمد حسن، الشريف أحمد، العالم الإسلامي في العصر العباسي. ص ص 12 - 14.

بالأمر، مع أنه لم يدخل فيه إلا منذ وقت قريب. ويضيف قائلا: وقد نظم الدعوة من البيت العباسي ثلاثة لم يقدر لهم أن ينالوا ثمرة غرسهم، وأولهم علي بن عبدالله بن عباس، وكان يكنى بابنه محمد، وقد رأس الدعوة أكثر من عشرين عامًا حتى مات وقد قارب الثمانين، وهو الذى نظم الدعوة والنقباء في كل من العراق وخراسان. ثم ولى الأمر بعد ذلك ابنه محمد، والراجح أنه كان أكثر مسالمة وإيثارًا للعافية. ثم ولى أمر الدعوة إبراهيم بن محمد، وهو الذى وصل بها إلى الذروة، وكان هؤلاء الثلاثة يقيمون بالحميمة، ويتصلون بخراسان عن طريق دعاة العراق. أما الدكتور السيد عبدالعزيز سالم فيقول عن ذلك أيضًا:

والظاهر أن عليًا العباسي كان الرأس المدبر للدعوة في الفترة من عام 99هـ الموافق 717م ـ عام 118هـ الموافق 726م كما أن البعض قد أشار أيضًا إلى أن أبا هاشم قد تنازل لعلى بن عبدالله بن عباس عن حقه في الإمامة عندما أحس بأن سليمان بن عبد الملك قد دس له السم. وبالجملة، فإنه إذا رضى الفرع الحنفى بهذا التنازل فإن بقية الفروع العلوية لم تتنازل، وها هى قد أشهرت السلاح فى وجه العباسيين فور قيام دولتهم. وبالرغم مما قيل حيال قضية التنازل فإن العباسيين ما فتئوا أن تنصلوا من ذلك ولم تعد لهم حاجة بموضوع وصية أبى هاشم لمحمد بن على أو أبيه على، لأنها تربطهم سياسيًا بالعلويين، وتظهر أن حقهم جاء عن طريق أبناء عمومتهم، أما من الناحية العقدية فإنها تفضح تلك الحركة السرية العائدة إلى الكيسانية والهاشمية المتطرفة كما يقول الدكتور فاروق عمر[1].

---

1 ـ عبد العزيز اللميلم ـ نفس المرجع ص55 وانظر: دراسات في تاريخ العرب، العصر العباسى الأول ص24. الخلافة والدولة في العصر العباسى ص34، الشامى أحمد الدولة الإسلامية العصر العباسى الأول ص16. بحوث فى التاريخ العباسى ص ص 64 ـ 65.

وعلى أساس هذه الوصية أو هذا التنازل، ورث محمد بن علي العباسي جميع الخطط والدعاية السرية التي كانت للشيعة الكيسانية واستغلها لصالحه كصاحب حق في الخلافة. هذه هي الوصية التي يستند عليها العباسيون كأساس شرعي لخلافتهم. غير أن عددًا كبيرًا من المؤرخين لايقتنعون بصحة هذه الرواية للأسباب الآتية[1]:

أولاً: إذا كان هذا التنازل قد حدث فعلا لكان للعباسيين الحق في الإفصاح عنه، ولكننا نجد دعوتهم تلقي باسم آل البيت أو آل محمد. ولاشك أن الغرض من ذلك هو التمويه أو التعمية عن الشيعة بوجه خاص، وهذا دليل يهمل فكرة التنازل.

ثانيًا: من الرسائل التي تبودلت في صدر الدولة العباسية بين الإمام العلوي محمد النفس الزكية (حفيد الحسن بن علي بن أبي طالب) وبين الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، يتبين لنا أن العلويين والعباسيين اجتمعوا في أواخر أيام الدولة الأموية، واتفقوا على أنه في حالة سقوط الخلافة الأموية يكون خليفة المستقبل الإمام محمد النفس الذكية. وكان أبو جعفر المنصور حاضرًا في هذا الاجتماع، فلو أن فكرة التنازل وقعت لاعترض أبو جعفر المنصور على ذلك أو أشار إليها في رسائله.

ثالثا: العباسيون بعد أن استقر لهم الأمر، حاولوا أن يحيطوا خلافتهم بشيء من الشرعية، فطبقوا عليها قانون الوراثة في الشريعة الإسلامية على اعتبار أن الخلافة تركة بعد النبي ﷺ. فقالوا إنهم من نسل العباس عم النبي، بينما العلويون من نسل فاطمة الزهراء بنت النبي، والعم في الميراث والعصبية مقدم على ابن البنت. ففي الرسائل التي تبودلت بين المنصور العباسي وبين محمد النفس الزكية، نجد كلامًا في هذا المعنى حينما يقول له المنصور: وأما

1 ـ د. أحمد مختار العبادي ـ المرجع السابق ص20.

قولـك أنكم بنو رسول الله ﷺ، فـإن الله تعالى يقـول فى كتـابه: «ما كـان محمد أبا أحد من رجالكم». ولكنكم بنو بنتـه، وإنها لقرابة قريبة ولكنها لا يجوز لها الميراث ولا ترث الولاية، ولايجوز لها الإمامة، فكيف تورث بها؟»
وأشاع العباسيون هذه النظرية فى البلاد ووجدوا من الشعراء والأدباء من يؤيد هذه الفكرة مـثل قـولهم: أنى يكـون وليس ذاك بكائن. لبنـى البنات وراثة الأعمام! فـإذا كان التنازل قد وقع حقـًا، فلم اتجه العباسيون إلى هذا الحل؟ الواقع أن العبـاسيـين وجـدوا حزبين متـعارضين وهمـا: الأمويون والعلويون وكان الحـزب العلوى أقـرب الحزبين إليـهم بحكم قرابتـهم للرسول. ولـهذا وجهوا نشاطهم السـياسى نحو هذا الحزب الذى يتفق مـعهم. ثم جاءت وفاة أبى هاشم آخر إمـام للشيـعة الكيسانية إذ لم يكن له عـقب بعده، فاسـتغل العباسيون هذه الفـرصة واندمجوا فى الدعوة الشيعية الكيـسانية ووضعوا تلك الرواية التى تقول بأن هاشم بن محمد بن الحنفيـة سلم زمام الدعوة الكيسانية للعبـاسيين قـبل وفاته. وقد حـرص العبـاسيون على إخـفاء أطماعـهم نحو الخلافـة، فلم تكن البيعـة تؤخذ باسم العباسـيين بل تحت هذا الستـار البراق المبهم «الرضى من آل مـحمد» يعنى لشخـص معين من آل البيت يتـفق عليه فيما بعد. كذلك سموا أنفسهم بالهاشميين وهى كلمة عامة قد تنسب للشيعة الكيسانية التى اندمـجت فى فرق شيعية أخرى واتخذت اسم الهـاشمية، وقد تنسب أيضًا للإمـام أبى هاشم بن محمـد بن الحنفية أو لهاشم بن عـبد مناف جد الجميع علويين وعبـاسيين. فالدعوة العباسيـة بدأت شيعية فى الأصل ثم تحولت بعد نجاحها إلى خلافة سنية كما يبدو من سير الحوادث[1].

ولكن يبـدو أن العبـاسيـين لا يمكنهم التنصـل عن قصـة التنازل التى أعلنوها أكثر من مرة عـلى الملأ من أن أبا هاشم قد تنازل، ويكفى دليلا على

---

1 ـ د. أحمد مختار العبادى ـ نفس المرجع ص21.

هذا ما أشار إليه المنصور في إحدى رسائله المتبادلة بينه وبين محمد النفس الزكية مؤكداً بأن حق العلويين في الإمامة قد انتهى وإلى غير رجعة، ذلك أنهم قد تنازلوا عنها، هذه واحدة. أما الأخرى فهي أن الدعوة منذ بدايتها هي «للرضا من آل محمد» وهي العبارة تشتمل على العباسيين والعلويين، كما أنها في نفس الوقت قد تعني العلويين أكثر من العباسيين في نظر الكثير من الناس على أساس مطالبة العلويين بالإمامة مدة طويلة قبل العباسيين. ومما يزيد الشكوك في مسألة التنازل تلك هو أن العباسيين عندما أسسوا دولتهم، وأجهزوا على كثير من خصومهم عدلوا عن هذا إلى مسألة أخرى أكثر أهمية، ولا تربطهم بالعلويين، تلك هي تمسكهم بحقهم في الخلافة عن طريق جدهم العباس عم النبي ﷺ ووارثه كما يقولون. ومهما يكن من أمر فإنه مهما حاول العباسيون التنصل من ارتباطهم ببني عمومتهم العلويين فالواقع يرفض هذا سواء تم ذلك قبل إعلان الدولة العباسية، أم بعد قيام دولتهم عندما حاول السفاح، ومن بعده المهدي استرضاءهم وكسبهم إلى جانبه، أو عندما أسند المأمون إلى الإمام على الرضا ولاية العهد معترفاً بأحقية العلويين بالمشاركة في السلطة على الأقل، مهما كانت نوايا المأمون حيال تلك البيعة. ولهذا فإن العباسيين يعترفون بأحقية العلويين لأنهم في بداية الدعوة قد استغلوا ذلك المسمى الذي يجمع الأسرتين، واستفادوا منه كثيراً في ضم العديد من العناصر إلى جانبهم والتي كانت تتشيع لآل البيت قصة تنازل أبي هاشم للعباسيين عن حق العلويين في الإمامة، تلك التي قال بها العباسيون وأذاعوها على الملأ، وما ذلك إلا لتبرير قيام دولتهم من كل هذا فإننا لا نميل إلى الرأي الذي قال به البعض من المؤرخين من أن أبا هاشم قد تنازل عن حق العلويين في الإمامة للعباسيين، وإن حصل شيء من هذا فهو يختص بالفرع الحنفي، أما بقية العلويين من حسنيين وحسينيين فهم في

حل من ذلك التنازل لأن ثوراتهم المتتالية التي قاموا بها إثر قيام الدولة العباسية تؤكد هذا وتوضحه، مع استبعادنا لفكرة التنازل جملة وتفصيلا[1].

دعوى الأخذ بثأر العلويين: وأما ادعاؤهم: أنهم خرجوا للأخذ بثأر العلويين، واستمرارهم على ربط الثورة بأهل البيت، حتى بعد نجاح ثورتهم، وتسلمهم لأزمة الحكم والسلطان ـ وهذه هي الناحية الثانية من المرحلة الرابعة ـ فذلك أوضح من أن يخفى. وقد تقدم قول محمد بن علي لبكير بن ماهان: «وسنأخذ بثأرهم» يعني بثارات العلويين. وتقدم أيضًا قول داود بن علي: «وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا، والغضب لبني عمنا» ويقول السفاح، عندما أتي برأس مروان: «ما أبالي متى طرقني الموت، فقد قتلت بالحسين، وبني أبيه من بني أمية مائتين، وأحرقت شلو هشام بابن عمي زيد بن علي، وقتلت مروان بأخي إبراهيم» نقلا عن مختصر أخبار الخلفاء، هكذا. «وقد قتلت بالحسين ألفًا من بني أمية.. إلى أن قال: وقتلنا سائر بني أمية بحسين، ومن قتل معه، وبعده من بني عمنا أبي طالب».

ويقول صالح بن علي لبنات مروان: «ألم يقتل هشام بن عبدالملك، زيد بن علي بن الحسين، وصلبه في كناسة الكوفة؟. وقتل امرأة زيد بالحيرة، على يد يوسف بن عمرو الثقفي؟! ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد، وصلبه بخراسان؟! ألم يقتل الدعي عبيد الله بن زياد، مسلم بن عقيل بن أبي طالب بالكوفة؟! ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين وبرواية ابن أبي الحديد، أنه قال لهم: «.. إذن، لا نستبقي منكم أحدًا؛ لأنكم قد قتلتم إبراهيم الإمام، وزيد بن علي، ويحيى بن زيد، ومسلم بن عقيل وقتلتم خير أهل الأرض حسينًا، وإخوته، وبنيه، وأهل بيته، وسقتم نساءه سبايا ـ كما يساق ذراري الروم ـ على الأقتاب إلى الشام...» ولا بأس بمراجعة ما قاله داود بن علي

1 ـ عبد العزيز اللميلم ـ المرجع السابق ص58.

عندما قتل ثمانين أمـويًا مرة واحدة وكذلك فإنهم ما لقـبوا أبا سلمة الخلال، أول وزير في الدولة العبـاسية بـ «وزير آل مـحمد»، وأبا مسلم الخـراساني بـ «أمين، أو أمير آل محـمد» إلا من أجل الحفاظ على ربط الدعوة بأهل البيت عليهم السلام، ولتبـقى ـ من ثم ـ محتفظة بقوتها، وحيويتـها. وأخيرًا، فلم يكن اتخاذهم السواد شعارًا إلا تعبيرًا عن الحزن والأسى لما نال أهل البيت في عـهد بني أمـية. هذا يصح بالنـسبـة للملابس السـوداء. وأما كـون الرايات سوداء؛ فيحتمل أن يكون لأجل ذلك، حسبما صرح به ابن خلدون ص259، ويحتمل أن يكون لما ورد من أن راية الإمام علي عليه السلام يوم صفين كانت سوداء، على ما نص عليـه فإن فلوتن في هامش: ص126 من كتابـة السيادة العربيـة. أو لأن رايات النبي ﷺ في حروبه مع الكفار كانت سـوداء؛ يقول الكميت مشيرًا إلى ذلك:

إلا فارفعوا الرايات سودًا   على أهل الضلالة والتعدي

وفي صبح الأعشى ج2 ص370، نقلا عن القاضـي الماوردي في كتابه: «الحاوي الكبير»: أن السبب في اختيارهم السواد هو أن النبي ﷺ قد عقد في يوم حنين ويوم الفتح لعـمه العباس راية سوداء.. وفي صـبح الأعشى أيضًا ج3 ص371 نقل عن أبي هلال العـسكري في كتابـه «الأوائل» أن سبب ذلك هو قتل مروان لإبراهيم الإمام، حيث لبس شيعته السـواد حدادًا عليه؛ فلزمهم ذلك، وصـار شعـارًا لهم.. ونرجح أن حـادثة قـتل يحـيى بن زيد، ولبس الخراسانيـين الســواد عليه سبعة أيام، هي التي شجعت العبـاسيين على اتخاذ السـواد شـعارًا لـهم؛ إظهـارًا للحزن والأسـى لما نال أهل البـيت في الدولة الأمـوية. ويذهب إلى هذا الرأي السـيد عـبـاس المكي في نزهة الجليس ج1 ص316. بل صرح الـبلاذري في أنســاب الأشراف ج3 ص264 بما يدل على ذلك فراجع[1].

---

1 ـ جعفر مرتضى العاملي ـ المرجع السابق ص62.

يتضح، بما لا مجال معه للشك: أنهم كـانوا يستغلون سمعة العلويين، ودماءهم الزكية في محاولاتهم للوصول إلـى الحكم، وتثبيت أقدامهم فيه بل إن من الملاحظ أن كثيرًا من الثورات التي قـامت بعد ثورة بني العباس، كانت تحاول ذلك ـ بطريقـة أو بأخرى ـ أي أنها كـانت تظهر للناس ارتباطها بأهل البيت عليهم السلام، وأنها تحظى بتأييدهم، وموافقتهم، وكثير منها كان يرفع شعـار: «الرضا من آل محـمد». يتضح لنـا بجلاء، الأسلوب الذي انتهـجه العباسـيون، والخطة التي اتبعوها، من أجل كسب ثقـة الناس بهم، وتأييدهم لهم، وصـرف أنظار الحكام عنهم. وأيضًـا الطريقـة التي اتبـعوها في أبعـاد العلويين عن مجال السـياسة، وأن بيعتهم لهم ما كـانت إلا خداعًا وتمويها، من أجل تنفيذ خطتهم، وانجاح دعوتهم كما وظهر أن كون الدعوة ـ في بادئ الأمر ـ باسم العلويـين، لم يكن أمرًا عفـويًا، وتلقائيا وإنما كـان ضمن خطة دقيقة، ومدروسة، وضعت بعناية فائقة، كـما توضحه لنا النصوص المتقدمة. وظهر أيضًا: كيف أن العباسيين قد حرصوا كل الحرص على ربط الثورة بأهل البـيت عليـهم السـلام، وكانوا يعـتـمدون عـلى هذا الربط كل الاعـتمـاد، ويصرون، ويؤكدون عليه، كلما سنحت لهم الفرصة، وواتاهم الظرف، حتى عندما وصلوا إلى الحكم، وفازوا بالسلطان. وقد انقاد الناس لهم في البداية، واستقامت لهم الأمور، ظنًا منهم بحسن نيـتهم، وسلامة طويتهم ولكن ماذا كـانت النتيـجة بعـد ذلك، بالنسبـة للناس عـامة، وبشكل خـاص بالنسـبة للعلويين، الـذين قامت الثـورة باسـمـهم ونجحت بفضلهـم؟! وماذا كـان نصيبهم، ومصيرهم، من هذه الثورة ومعها؟!

نادى العبـاسيون في الفـترة الأخرى بأن حـقهم في الخـلافة يرجع إلى وصية أبـي هاشم، وهذا يعني أن العباسيـين قد ورثوا حقهم في الخـلافة من الفرع الحنفي بصفـة شرعية، ولكنهم ما لبـثوا أن تناسوا روابطهم بأبي هاشم

ومنظمته السرية، وبدأوا يؤكدون بأن حقهم في الخلافة إنما يرجع إلى العباس بن عبدالمطلب لذا فإن العباسيين قد أعلنوا قصة التنازل أولا، وبعد أن أمنوا جانب العلويين وقضوا على ثوراتهم المتمثلة بخروج محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم نراهم يعدلون عن هذا الادعاء ويعلنون للملأ بأن حقهم في الخلافة يرجع إلى جدهم العباس عن النبي ﷺ ووارثه كما يقولون. ولقد أكثر الكتاب المحدثون ـ والمعاصرون منهم بخاصة ـ من الحديث حول تأكيد أساس قيام الدولة العباسية على أنها القرابة من رسول الله ﷺ أو الوراثة أو الوصية، أو ما إلى ذلك مما هو منشور في بطون الكتب والمؤلفات، كما أن العلويين أيضًا قد تشبثوا بقرابتهم من رسول الله ﷺ، وبهذا يولون وجوهم شطر المراسلات التي تمت بين محمد النفس الزكية وأبي جعفر المنصور. إذا فأساس قيام الدولة العباسية ليس فيه نص ولاوصية ولا قرابة ولا شيء من هذا. إنما الموضوع ببساطة هو أن العراك السياسي الذي نشب بين الأمويين والعلويين تمخض عنه قتلى وجرحى، ثم تخلف عن هذه كلوم «جروح» وثارات قاربت بين البيتين العلوي والعباسي، فتعاهدوا على العمل سويًا من أجل إسقاط الحكم الأموي. ثم كانت بوادر سقوط الدولة الأموية قد بدأت تلوح في الأفق في المشرق الإسلامي في عهد مروان بن محمد حينما آل ملك بني أمية إلى الاضطراب هنا انعقد مؤتمر مكة كما يقول الطبري والأصفهاني وابن الطقطقي وابن الأثير وسيد عمير على وغيرهم، واتخذت قرارات معينة كان من أهمها إسناد الأمر بعد الأمويين إلى محمد بن عبدالله «النفس الزكية». حيث وقع عليه الاختيار من قبل المؤتمرين الذين كان من بينهم من العباسيين، إبراهيم الإمام والسفاح والمنصور، نظرًا لقناعة الجميع بأحقيته للخلافة[1].

---

1 ـ عبد العزيز اللميلم ـ المرجع السابق ص76.

أحسن العباسيون اختيار الأنصار، وانتهاز الفرص، وتوقيت الحركة، وتم التمهيد للدعوة بحكمة وحذر وصبر ائتلفت في سبيلها فئات مختلفة جمعت بينها رغبة مشتركة هي محاولة إسقاط الخلافة الأموية بأية وسيلة كانت، وقد انتهى أمر الدعوة بسقوط الأمويين، وإعلان أبي العباس السفاح خليفة من على منبر المسجد الجامع بالكوفة عام 132هـ الموافق 749م. لهذا نجح العباسيون في إقامة دولة تزعموها زمنًا يزيد عن خمسة قرون من عام 132هـ الموافق 749م ـ عام 656هـ الموافق 1258م. ولاشك بأن الأسلوب الذي انتهجه العباسيون في إقامة دولتهم يختلف تمامًا عن الأسلوب المتبع في الدولة الإسلامية سواء في عهد الخلفاء الراشدين أو في عهد الدولة الأموية، لأن هذا قام أول ما قام على العلنية الكاملة، والوضوح التام، والابتعاد الكلي عن الغموض والإبهام والرمزية، كل هذه الخصائص التي قام عليها نظام الإسلام في الحكم والسياسة العامة للدولة لم يراع بدقة قيام الدولة العباسية، بل أكثر من هذا، وجدنا العلويين يعلنون خلع العباسيين في عهد المنصور، ويعتبرون العباسيين مغتصبين لحقهم الذي اتفقوا عليه في مؤتمر الحجاز في مكة، وقيل في كل من مكة والمدينة، أو الأبواء بينهما. وغني عن البيان أن القدوة الحسنة في قيام الدول الإسلامية ونظامها وسلوك رؤسائها وحكوماتها فيها إنما هو رسول الله ﷺ، فكان الأجدر بخلفائه وبني عمومته أن يترسموا سنته في ذلك، وأن لا يخرجوا عنها مهما بلغ بهم الغرض والإنفعال. فهل صنع العباسيون ذلك سواء في وسائلهم لإسقاط الحكم الأموي؟ إن في أسلوبهم في أخذ البيعة لأنفسهم منذ أول خليفة منهم، بل وقبل ذلك إبان الدعوة السرية لا يدل على ذلك.

إن هذه الألوان من التوسل إلى إزاحة الآخرين عن الحكم والاستيلاء عليه لم تعرف قبل العباسيين. كما أن الطابع الذي اتصفت به الدولة العباسية

فى الدعوة إليها وقيامها وانفردت به عن سائر العصور الإسلامية السابقة عليها جعل حكمها للعالم الإسلامي يتخذ أسلوبًا يتفق مع أسلوب الدعوة إليها وقيامها، وهذا بحد ذاته يعتبر من أهم ملامح الحكم العباسى إن لم يكن أخطرها على الاطلاق، ولعله أيضًا كان من أهم الأسباب التي جعلت العناصر المشرقية وغيرها تتسلل ببساطة إلى الدولة العباسية، لأن تلك العناصر ـ أو بعضها على الأقل ـ تعتقد أن لها يدًا فى نشر دعوتها، وأسلوب قيامها بل وبقائها فى الحكم أيضًا ضد المعارضيين لها وهم جماهير من العرب وفى مقدمتهم العلويين والخوارج[1].

ومهما يكن من شىء فإن قيام الدولة فى بنى العباس واستقلالهم بالخلافة كان نذيرًا بصراع جبار بين العلويين والعباسيين، كما أن التخلص من ابن مسلم الخراسانى قد أسهم بقدر كبير فى ثورات المشارقة وأشياعهم فى خراسان وغيرها، وكان ذلك من معاول الهدم والفناء في جسم الدولة العباسية على المدى الطويل، عندما اضطرت إلى الاستعانة بالعديد من العناصر الأخرى الفارسى منها والتركى، وأهملت شأن العرب بعض الشيء. من كل هذا لم يكن هذا الحكم متقبلا من بعض فئات المجتمع الإسلامى، والعربى منه بخاصة، والعلوى منه بشكل أخص، ذلك أن العلويين قد كان لهم دور بارز فى مناوأة الأمويين منذ أن قامت دولتهم، فأثاروا الكثير من المشاكل فى وجه الدولة الأموية، وقاموا بثورات عديدة طيلة الحكم الأموى، وكانوا أحد العوامل الرئيسية فى إضعاف الحكم الأموى، وبالتالى تقويض هذا الحكم، إذ عمل الهاشميون جميعًا وبكل ما يستطيعون في محاولة للقضاء على الدولة الأموية، واتخذوا شعارًا هو «الرضا من آل محمد». والواقع أن بداية الصراع بين العلويين والعباسيين هو فى الحقيقة بداية قيام الدولة العباسية

---

1 ـ عبد العزيز اللميلم ـ نفس المرجع ص77.

ذلك أن العلويين والعباسيين كانوا موتورين بصفة شخصية من الحكم الأموى لأسباب بسيطة تتلخص فى اضطهاد الأفراد من العلويين، والتنافس على الحكم بين البيتين الهاشمى والأموى.

وعندما تفاقم التشيع فى العصر الأموى كافحه الأمويون، وعملوا جاهدين على الإجهاز عليه باعتباره دعوة إلى تمزيق وحدة الأمة الإسلامية، ودونما مبرر معقول، وكان هذا من أسباب إيقاع الجفوة بين الهاشميين والأمويين، والطالبيين منهم بوجه خاص، وكان كل ذلك دافعًا للبيت الهاشمى إلى أن يفكر جديًا فى التخلص من الحكم الأموى. ففى أواخر خلافة مروان بن محمد أحس الهاشميون أن دعوتهم ضد الحكم الأموى قد نجحت، وأنهم قاربوا الانتهاء من الإجهاز على الأمويين، فانعقد مؤتمرهم الذى اتفق فيه الجميع على أن يسند الأمر إلى واحد من الهاشميين هو «النفس الزكية» ليكون الخليفة الأول منهم، وكان من بين الحضور إبراهيم الإمام، وعبد الله بن على، وصالح بن على، وأبو العباس عبد الله بن محمد، وأبو جعفر عبد الله بن محمد من الجانب العباسى، وجعفر الصادق وعبد الله المحض والنفس الزكية محمد بن عبد الله وإبراهيم بن عبد الله بن الحسن من الجانب العلوى، وكان ذلك فيما يقال عام 127هـ الموافق سنة 744م. وفى عام 132هـ فوجئ الناس بأبى العباس السفاح خليفة وقيام حكم جديد، ويبادر الناس إلى بيعته، ولا يذكر شىء عن مؤتمر مكة، ولا عن بيعة النفس الزكية، بل أكثر من هذا لا يستدعى أحد من العلويين فى ذلك الوقت ليكون إلى جانب السفاح. قد يقال: إن المسألة لا تزال فى بدايتها، وأن العباسيين من أبناء على بن عبد الله العباسى وأحفاده كانوا مشغولين بمكافحة الأمويين وشيعتهم، إذ ظلوا فى صراع دموى طيلة عهد السفاح تقريبًا، فلم يكن ثمة مجال لاستدعاء بعض العلويين، أو الاستعانة بهم فى شىء، ولكن الذى

حدث في الواقع يدل دلالة قاطعة على أنه كان ثمة تدبير لإبعاد العلويين مما اعتبره العلويون اغتصاباً لحقوق أقرها مؤتمر مكة والمدينة.

ويقول البعض في هذا: كانت البيعة لأبي العباس مفاجأة غريبة دون شك للغلاة من العلويين، كما كانت موضع اشمئزاز ونفرة لدى آل علي أنفسهم لأن الطامحين منهم اعتبروها خدعة ويشير البعض الآخر إلى أن العباسيين ما إن تسلموا السلطة حتى بدأوا ينظرون إلى العلويين نظرة شك باعتبارهم المنافسين لهم على الخلافة، ومصدر خطر على النظام الجديد. أما العلويون فقد نظروا إلى العباسيين كمغتصبين مبتزين للسلطة من أصحابها الشرعيين. وهكذا دخل النزاع حول الخلافة مرحلة جديدة، حيث أصبح نزاعاً بين الهاشميين[1].

يكاد يجمع المؤرخون على تبرير خروج محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم على المنصور بأنه المطالبة بحقهما وحق العلويين الذى اغتصبه العباسيون، وذلك بمقتضى قرارات المؤتمر الهاشمى، فهى كما ورد فى المراسلات بين النفس الزكية والمنصور، والتى نقلها بعض المؤرخين، يزعمون أنهم موصى إليهم بالخلافة، وأنهم بصفتهم من بنى على مقدمون على من سواهم، ولهذا فإنهم بخروجهم هذا إنما يطلبون حقاً مفروضاً إذا فلا مناص من أن يرد العباسيون ما سلبوه من العلويين وهو الخلافة فإن لم يفعلوا فلا بد من استعمال القوة لاستعادة ذلك الحق. غير أن الذى يقرأ رد المنصور يشهد نفياً قاطعاً لحق العلويين، ويرى أنهم بتلك المطالبة إنما يتجنون على الحقيقة، ويجنون على أنفسهم وعلى الأمة الإسلامية، إذ يعملون على إراقة الدماء فى سبيل وهم تصوروه، أو خيال جسموه، أما الحقيقة فهى كما قال شاعرهم:

---

1 ـ عبد العزيز اللميلم ـ نفس المرجع ص79 وانظر: مصطفى/ شاكر: دولة بنى العباس، جـ1 ص214. فاروق عمر: بحوث فى التاريخ العباسى ص93.

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثة الأعمام

ولنترك لبعض المؤرخين الحديث عن العوامل التى دفعت بمحمد وإبراهيم ابنى عبد الله بن الحسن إلى هذا الموقف المتشدد، وهو حديث إبان العهد الأموى أن اجتمع الهاشميون واتفقوا على العمل سويًا للإطاحة بالحكم الأموى لأسباب وعوامل ترجع إلى استشهاد واضطهاد كثير من العلويين، ثم قاموا جميعًا بضم الأعوان والأنصار، ويختارون الإمام المناسب الذى سوف يرضى عنه الجميع من العرب والعجم، ويكون على يديه الخير والبركة. إضافة إلى ظلم وجور الحكام الأمويين بما نجم عنه من قتل الإمام الحسين عليه السلام سبط الرسول محمد ﷺ وغيره من شيعتهم، وأن كثيراً من رجالات الدول التى فتحت وضمت إلى الخلافة الإسلامية قد أبعدوا عن المناصب القيادية فى السياسة والإدارة، وسائر مرافق الدولة المهمة. وقد تزعم أبو مسلم الخراسانى أخيراً الدعوة للرضا من آل محمد فى خراسان وما جاورها بعد أن مهد له الدعاة السابقون جميع السبل سواء فى خراسان أم فى الكوفة، فقد كانت الأمور غامضة والدعوة مبهمة قبل أبى مسلم، إذ استجاب الكثير من سكان خراسان وهم لا يعرفون من هو الرضا، وكان الدافع بالطبع هو الظلم والاضطهاد من الدولة الأموية التى لم تتح لهم الفرصة لتولى المناصب القيادية، وكانوا يرون بأن الدولة تنظر إليه على أنهم أقل مكانة من العرب، ولا يمكن بحال من الأحوال مساواتهم بهم. وعلى أية حال، فإن الدعاة نجحوا فى دعايتهم ضد الحكم الأموى، ولكن ليس من الحق أن يقال أن دعوتهم أو دعايتهم كانت لأنهم أصحاب حق مقدس، وأوصياء وورثة للنبى ﷺ، وكذلك عن موقف الدولة الأموية من الموالى، واعتبارهم طبقة أقل بكثير من العرب، وليس لهم حق مساواتهم بغيرهم من العرب كل هذا دفع بالهاشميين وفئات أخرى من الأمة الإسلامية خاصة المشارقة منهم إلى الوقوف صفًا واحداً فى وجه الدولة الأموية.

وبعد أن نجح الدعاة في محاولة لإسقاط الحكم الأموى بعد أن استفادوا من النزاع القبلى بين الحجازية واليمانية فى خراسان برزت نذر التدهور للأمويين، وأخطر الهاشميون بنجاح الموقف بما قام به أبو مسلم الخراسانى فى خراسان وفي مرو خاصة من السيطرة على الموقف رغم وجود القوة والنفوذ فى أيدى الولاة الأمويين هناك نعم[1].

ويقول ابن الأثير: إن المنصور كان ممن بايعه النفس الزكية ليلة تشاور بنو هاشم بمكة فيمن يعقدون له الخلافة حين اضطرب أمر مروان بن محمد أما الأصفهانى فيقول: بايع أبو جعفر للنفس الزكية مرتين، إحداهما فى المدينة المنورة، والأخرى فى مكة المكرمة فى المسجد الحرام، فلما بايعه قام معه حتى خرج من المسجد الحرام فأمسك له أبو جعفر بركاب دابته ثم قال له: يا أبا عبد الله أما إنه أفضى إليك هذا الأمر نسيت هذا الموقف ولم تعرفه لى ويقول فى موضع آخر: إن نفراً من بنى هاشم اجتمعوا «بالإبواء» من طريق مكة فيهم إبراهيم الإمام والسفاح والمنصور وصالح بن على وعبد الله بن الحسن وابناه محمد وإبراهيم وغيرهم، فقال لهم صالح بن على: إنكم القوم الذين تمتد أعين الناس إليهم، فقد جمعكم الله فى هذا الموضع، فاجتمعوا على تبعة أحدكم، فقال أبو جعفر:

لأى شيء تخدعون أنفسكم؟ والله لقد علمتم ما الناس إلى أحد أميل أعناقاً، ولا أسرع إجابة منهم إلى هذا الفتى، يعنى النفس الزكية محمد بن عبد الله، قالوا: والله صدقت إنا لنعلم هذا، فبايعوا جميعاً محمداً وبايعه إبراهيم الإمام والسفاح والمنصور وسائر من حضر، فذلك الذى أغرى القوم لمحمد بالبيعة التى كانت فى أعناقهم كما يشير فى موضع ثالث إلى أن أبا

---

1 - عبد العزيز اللميلم - نفس المرجع وانظر: تاريخ الرسل والملوك جـ7 ص517، البلاذرى/ انساب الأشراف (مخطوط ص608ب).

جعفر كان ينتظر النفس الزكية، فلما خرج وثب أبو جعفر فأخذ بردائه حتى ركب دابته، ثم سوى ثيابه على السرج، ومضى محمد، فقيل له: «من هذا الذي أعظمته هذا الإعظام حتى أخذت بركاب دابته، وسويت عليه ثيابه؟ فقال: هذا محمد بن عبدالله، مهدينا آل البيت. أما الطبري فقد أشار هو الآخر في مناسبة أخرى حول هذا الموضوع قائلا: حينما قبض المنصور على عثمان بن خالد اليزيدي قال له: هيه يا عثمان، أنت الخارج على أمير المؤمنين والمعين عليه؟ فقال عثمان: بايعت أنا وأنت رجلا بمكة، فوفيت ببيعتي، وغدرت ببيعتك، فأمر المنصور به فضربت عنقه. أما الأزدي فقد قال عن ذلك أيضًا: لما أدخل عثمان بن محمد بن خالد اليزيدي على المنصور، قال له: أين المال؟ قال: دفعته إلى أمير المؤمنين رحمة الله عليه، قال: ومن أمير المؤمنين؟ قال: محمد بن عبد الله، قال: بايعته؟ قال: نعم كما بايعته أنت، قال: يا ابن اللخناء، قال: ذلك من قامت عنه الإماء يقصد بذلك المنصور لأن أمه كانت أمة ولم تكن عربية، قال لله فأمر بضرب عنقه. ثم أتى المنصور بكل من: مطر الوراق وبشير الرجال، فقال المنصور لبشير: أنت القائل: إني لأجد في قلبي حراً لا يذهبه، إلا عدل أو حد سنان؟ قال: أنا ذاك، قال: والله لأذيقنك حد سنان يشيب رأسك، قال: إذا أصبر صبراً يذل سلطانك، قال: ولتراجل عند الموت قال: هو ما ترى وتسمع، قال: مدوا يده، فقبضها بشير، فقال له المنصور هذا خلاف ما يظهر من كلامك، قال: لا، ولكني لا أعينك على معاصي الله، فمدوا يده فقطعها، ثم مدوا يده الأخرى فقطعها، قال: فما قطب ولا عبس ولا تحلحل. ثم قدم مطر الوراق، فقال المنصور: يا مطر، نسيت الحرمة وطول الصحبة؟ قال: نسيناها بنسيانك كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وتضييعك أمور المسلمين، قال: فتخرج علي مع من لم تأنس منه رشداً؟، فهذا خلاف مذهبك، قال: لو خرج عليك الذر - وهو أضعف

الخلق ـ لخرجت معهم حتى أؤدي ما افترض الله علي فيك، قال: يا ابن حسنة الزانية، قال: إنك تعلم أنها خير من سلامة سلامة: هي أم المنصور ولولا أنه قبيح بذي الشيب السفه لأعلمتك ما تكره ولا تطيق رده، قال: خلوه، قال: إن بعد موقفك هذا موقفًا، وإن بعد أخذتك هذه أخذة، فانظر لمن تكون العاقبة، فجزع المنصور من قوله جزعًا شديدًا أظهر فيه ثم قتله[1].

وبالرغم مما قيل حول هذا الموضوع بالنسبة لنزول هؤلاء والخليفة إلى المنابزة، بالألفاظ التي لا تليق بمقام هؤلاء إلا أنها تعطينا صورة واضحة عن وجهة نظر هؤلاء تجاه خلافة آل العباس وموقفهم وحبهم المتشدد من العلويين من «آل البيت» أما ابن طباطبا فيقول في معرض حديثه عن هذا الموضوع:

اجتمع بنو هاشم في ذيل دولة بني أمية، وتذكروا حالهم، وما هم عليه من الاضطهاد، وما قد آل إليه أمر بني أمية من الاضطراب، وميل الناس إليها، ومحبتهم لأن تكون لهم دعوة، واتفقوا على أن يدعوا الناس سرًا، ثم قالوا: لابد لنا من رئيس تبايعه، فاتفقوا على مبايعة محمد النفس الزكية، وكان هذا المجلس قد حضره أعيان بني هاشم علويهم وعباسيهم، فحضره من أعيان الطالبيين: الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام، وعبد الله بن الحسن بن الحسن، وابناه محمد وإبراهيم قتيل باخمرى، وجماعة من الطالبين. ومن أعيان العباسيين، السفاح والمنصور وغيرهما من آل العباس، فاتفق الجميع على مبايعة محمد النفس الزكية، إلا الإمام جعفر الصادق عليه السلام فإنه قال لأبيه عبد الله المحض: إن ابنك لا ينالها، يعني الخلافة، ولن ينالها إلا صاحب القباء الأصفر، يعني المنصور، ثم ضرب الدهر ضربه، انتقل الملك إلى بني العباس أما سيد أمير علي فقد أشار إلى ذلك قائلا:

---

1 ـ عبد العزيز اللميلم ـ نفس المرجع ص83.

«لما رأى آل البيت أن الخلافة الأموية قد بدأت تتردى في دركات التدهور والانحلال عقدوا اجتماعًا خطيرًا في المدينة لبحث مصير الإمبراطورية العربية، وكان من جملة الحاضرين المنصور نفسه ومعظم رجال البيت الهاشمي، وقد أجمع هؤلاء على مبايعة محمد النفس الزكية، وبهذا فإن المنصور قد عاهد محمدًا على الطاعة والولاء».

كل هذه الأنباء التي تواترت في عدد من كتب التاريخ تؤيد حقيقة هذه البيعة التي تمت في مؤتمر مكة والمدينة لمحمد النفس الزكية، وأقر بها العديد من العباسيين، ومن بينهم أبو جعفر نفسه الذي كان له موقف مميز من النفس الزكية وأخيه إبراهيم بعد أن تولى الخلافة.

فإذا كان الأمر كذلك فالمنصور قد نكث العهد الذي قطعه على نفسه وهو المبايعة للنفس الزكية قبل أن تقوم للعباسيين دولة وهذه المعلومات للتدليل على صحة عقد ذلك الاجتماع وتفنيد الآراء التي أنكرت وجود مثل ذلك الاجتماع وقبل هزيمة مروان بن محمد وقتله على أيدي بني العباس.
جئ بأبي العباس السفاح، وجلس على أريكة الخلافة العباسية في الكوفة التي أعلن فيها قيام الخلافة العباسية، والتي كانت من قبل عاصمة للخلافة الإسلامية في عهد الإمام علي بن أبي طالب ﷺ إلا أن صخب المعركة وعنف المقاومة التي استعرت بشكل جنوني بين شيعة الأمويين ومعظمهم من العرب، وشيعة الحكم الجديد وهو العباسيون جعلوا العلويين يأخذون حذرهم، ويستعدون للموقف من جديد، فقد وضح أمام أعينهم كيف لم يفكر العباسيون في القرار الذي أجمعوا عليه، ومن ثم فقد أعرض العلويون عن العباسيين وأشاحوا بوجوههم عن البيعة لهم، فلم يعرف أن النفس الزكية أو أخاه إبراهيم - على الأقل - قد بايعا للسفاح ولا لأبي جعفر. ويشير البعض إلى أن الحلف العباسي العلوي الذي كان قائمًا زمن بني أمية انفرط

بمجرد استلام العباسيين الخلافة، فقد أحس العلويون مرارة الخيبة وذاقوا طعم الخذلان. ولذلك لجأوا إلى الثورة والمعارضة، وقد رافق العمل العسكرى ودعمه جدل نظرى مهمته أحقية العلويين من آل البيت بالخلافة دون بنى العباس ولقد رد العباسيون التحية بأحسن منها، وحاولوا دون حقهم فى الخلافة عسكريًا ونظريًا، وفى أحقية العباس فى الخلافة ووراثة رسول الله ﷺ دون «آل البيت»، ويبدو ذلك فى مراسلات المنصور والنفس الزكية[1].

أما سيد أمير على فقد تهكم على الوضع الذى انتهت إليه تلك الأمور إذ يقول:

«وهكذا ارتقى العباسيون إلى السلطة على أكتاف العلويين، الذين جوزوا فيما بعد جزاء ستمار، ذلك أن الطمع فى السلطة الدنيوى هو أسوأ أنواع الطمع، فقد جلب على الإنسانية من الكوارث ما هو أنكى وأشد مما جلبته أية نزوة من نزوات النفس البشرية، ثم إن صاحب الطمع لايتورع عن التذرع بأية وسيلة للوصول إلى مأربه، فهو يتذرع بالفضيلة والرذيلة على حد سواء ليدارى بالأولى نيته، ويحقق بالثانية غايته ويقول آخر: لقد شعر العباسيون بأنهم حديثو عهد بدولة، وأنهم فى حاجة إلى الشدة والقسوة لتدعيم ملكهم، فقسوا على العلويين بأكثر مما قسا الأمويون، ثم كانوا أعرف بالعلويين وأساليبهم يوم أن خالطوهم وحالفوهم للعمل ضد الأمويين، فكانوا أقدر على تتبعهم، ومعرفة مكائدهم، ومنازلتهم بمثل أساليبهم، وانكشف الأمر عن معسكرين آخرين كلاهما من بنى هاشم، العلويون والعباسيون، الأولون يدلون بعلى بن أبى طالب ابن عم رسول الله وزوج ابنته فاطمة، والآخرون يدون بجدهم العباس عن النبى ﷺ، وبهذا احتدم القتال بينهم سرًا

---

1 - عبد العزيز اللميلم - نفس المرجع ص85 وانظر: حمادة / محمد ماهر/ الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر العباسى الأول ص13.

وجهراً، وعادت المسألة سيرتها الأولى بل أشد، ورأوا أن نار الأمويين كانت جنة إذا قيست بنار العباسيين ولكن ياترى هل رضى العلويون، وطابت نفوسهم لما حدث؟ وهل اطمأنوا لحظة واحدة إلى الوضع الجديد الذى استقرت عليه الأمور؟ الواقع يستبعد هذا، فالدعوة لم تكن فى مفهوم العلويين إلا أنها لواحد منهم، وكثير من أنصار الدعوة السرية كانوا يتفقون مع العلويين فى هذا المفهوم، ولعل موقف أبى سلمة الخلال الإيجابى من تولية العلويين، ومحاولة المبايعة لهم يقرب هذا المفهوم.

من هنا أدرك العلويون بأن العباسيين قد خدعوهم، واستأثروا بالحكم دونهم، فهل سكت العلويون على هذا، وتركوا للعباسيين التصرف فى شئون الدولة الجديدة، وذلك بترك الحبل لهم على الغارب؟ لقد أثبتت الأيام عكس ذلك إذ رفض زعماء العلويين ذلك جملة وتفصيلا واستمر هذا الرفض فترة طويلة من حكم الدولة العباسية، ولعل ما أشار إليه مؤرخ معاصر حول هذا الموضوع يعطى تلك الدلالة إذ يقول[1]:

وهذا نظر الشيعة إلى العباسيين نظرتهم إلى مغتصبين، وسلوا السيوف لقتالهم وكما حدث فى أحيان كثيرة خلال التاريخ الإسلامى خسر الشيعة المعركة، ولكنهم لم يخسروا الحرب، وظلت النقمة الشيعية دملا مقيحًا فى جسم السياسية العباسية ويقول آخر: وقد ظل العلويون يقدمون العباسيين سراً وجهراً، وظل أتباعهم يزدادون، والعباسيون يرصدونهم جميعًا، فمن حدثته نفسه بالثورة أو الفتنة زج فى السجون أو قتل.

1 ـ عبد العزيز المسيلم ـ نفس المرجع ص87 وانظر: روح الإسلام جـ2 ص189. أمين/ أحمد: ضحى الإسلام جـ3 ص281.

خراسان والدعوة الشيعية العباسية:

لاشك بأن الدعوة للرضا من آل محمد هي في الواقع دعوة يغلب عليها الغموض والتعمية، ولعل الدافع إلى اللجوء إلى تسميتها بهذا الاسم إنما قصد به أن يعتقد العلويون بأن تلك الدعوة إنما هي باسمهم ومن أجلهم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، هو كسب مزيد من الأعوان والأتباع الذين يدينون بالولاء للعلويين سواء من العرب أو من غيرهم، وذلك للانضمام إلى تلك الدعوة. ومن ناحية ثالثة، هو صرف أنظار الأمويين عن العباسيين، والاعتقاد بأن من قام بهذا الأمر إنما هم العلويون، أما ما يحدث بعد ذلك ـ أي بعد إسقاط الدولة الأموية إن قدر لهم ذلك ـ فأمر تقرره الظروف، ويكون للحيطة والحذر والذكاء الدور الأكبر في تحقيق النصر، والاستحواذ على السلطة، وهذا هو ما أثبتته الأيام اللاحقة بعدما تمكن العباسيون من إقامة دولتهم. ويحسن أن أورد نصاً أشار إليه صاحب كتاب «منتخبات التواريخ لدمشق» إذ يقول في معرض حديثه عن الدعوة[1]:

«لم تكن الدعوة في مبدئها مقصوداً بها بنو العباس بخصوصهم، وإنما كانت معماة، وعلى وجه عمومي للأصلح من بني هاشم، لتذهب كل نفس مذهبها، وتتبع هواها في اختيار من توده، واصطفاء من تتشيع له، والأمر دائر بين أبناء الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وأبناء العباس بن عبد المطلب، والكل راج لها، والأمة على وجه عمومي مبتهجة بملكة أحدهما، ما عدا أقواماً قليلي العدد تغالوا في التعصب والتشيع لأحد الفريقين، وأكثرهم غلواً شيعة آل علي بالعراق، وهذا المسلك الذي سلكه أهل الدعوة من التعمية، وعدم تعيين المدعو له من المسالك العريقة في الدهاء، والتبصر بعواقب الأمور، ومن المنازع المؤثرة في استجلاب الكافة، لأن الإبهام يحمل الجميع

---

1 ـ عبد العزيز اللميلم ص59 انظر روح المذهب 301/3.

على تعلق كل نفس بما تريد وذهابها إلى مشتهاها، حتى إذا استحكم النفور في قلوب الناس، وسئموا مُلك الدولة الأموية، واستثقلوا ظلها، واستوبأوا مرعاها، بسبب أعمال خلفائها العاجزين، وبسبب ما يلقيه أولئك الدعاة في قلوب العامة من موجبات التنفير والشقاق في عين المدعو له، والنفوس متعطشة إلى الجديد، فتجمع القلوب عليه، وإن شذ أحد فبحيث لا ينفع ولا يضر.

عند نهاية الأسرة الأموية كانت النفوس مضطربة. ويلزم لفهم هذه الحالة بصفة عامة دراسة تفصيلية دقيقة. ويحتمل أن حالة البلاد كانت كما صورها أحد المعاصرين كالآتي: فالكوفة شيعية علوية، وبلاد الشام مروانية وهي لا تتفق مع الهاشمية، أما النفوس المطمئنة فلا توجد إلا في خراسان، حيث الصدور السليمة والقلوب الفارغة التي لم تتقسمها الأهواء والتي كانت تشعر بالظلم وتنتظر الخلاص. فمنذ عهد عمر بن عبد العزيز، عندما ظهرت مشكلة الدخول في الإسلام والجزية بشكل شائك، بدأت ولايات المشرق الإسلامي في الخروج عن بلاد الشام. والحقيقة أن عصيان أهل البلاد يعود إلى السياسة الأموية - وقد أشرنا إلى ذلك - التي لا تعرف، كما كان الحال بالنسبة للسياسة العباسية، فكرة الدولة الإسلامية بل تهدف إلى سيادة الأمة العربية، عن طريق الجهاد والغنائم ولقد نتج عن ذلك تضارب بين السياسة المالية والسياسة الدينية. وتساءل الولاة هل تؤخذ الجزية عن أسلم من أهل البلاد أم لا تؤخذ وكان من سياسة عمر بن عبد العزيز عدم أخذ الجزية ممن أسلم، ونجح عماله في نشر الإسلام. فى مثل هذه الظروف كانت الحركة المعادية للدولة الأموية لها فرص كبيرة للنجاح. ومع أن الطبري يقول أن الدعوة الشيعية بدأت في خراسان أيام عمر بن عبد العزيز إلا أن الحارث سميج لم يرفع الراية السوداء إلا في عام 116هـ/ 734م. وذلك باسم العودة

إلى كتاب الله وسنة رسوله والوعد برعاية أهل الذمة، وألا تؤخذ الجزية من المسلمين، وألا يضر أحدا من الناس. وكان مثل هذا البرنامج جديراً بأن يجمع حوله المسلمين الجدد خاصة وكذلك غير المسلمين[1].

وفي أول الامر لم تتصف الحركة بعد أوتها للأمويين بل لقد قبل الحارث اقتراح والي خراسان «عاصم بن عبدالله الهلالي» بأن يرسلا مبعوثين إلى الخليفة هشام يطلبان منه اتباع السنن التي كان يعمل لها، وأن يكتفيا بذلك إذا أجيب مطلبهما. وكان رد الخليفة على ذلك هو عزل عاصم، وعودة أسد بن عبدالله واليا من جديد (من عام 117 ـ 121هـ/ 735 ـ 738م). وعقب عودة أسد مباشرة أمر بقتل الدعاة العباسيين وحارب الحارث من جديد. وبعد أسد استمر نصر بن سيار (من عام 121 ـ 131هـ/ 738 ـ 748م) في الحكم بنفس النشاط (اشترك نصر في حملة قتيبة عام 86هـ/ 705م)، وكان مسنا يسمى «شيخ المضرية» أي عرب الحجاز. وأعادت انتصارات نصر فيما وراء النهر للعرب ذكرى قتيبة، كما نجح في أول الامر في حل المشاكل الداخلية. فعمل على تحويل الضرائب (الجزية) من المسلمين إلى غير المسلمين ورغم ما يقوله الطبري من أن خراسان بلغت الذروة في الرخاء، على عهد نصر، فإن هذا أمر غير محتمل. فلم يستطع نصر إيقاف العداء بين الحزبين العربيين المتنازعين من الحجازية واليمنية. إذ لما كان نصر حجازيا على عكس من سبقه وهو أسد اليمني، فإنه يتخذ جانب الحجازية أول الامر ويعين منهم العمال، ولو أنه عاد وحاول أخيراً إرضاء اليمنية كذلك. ورغم هذا فإنه لم يستطع منع قيام ثورة يمنية (عام 126هـ/ 744م) قام بها جديع بن على الكرماني الذي كان قد حكم خراسان لفترة قصيرة عقب موت أسد، ولكن هذه الثورة كانت أقل خطورة من ثورة الحارث (ابن سريج). وفي نفس العام

---

1 ـ د. سعد زغلول ـ تاريخ الدولة العباسية ص33.

(126هـ/ 744م) حصل نصر على عفو من الخليفة عن الحارث واتباعه وطلب منه العودة إلى خراسان، وكان حينئذ فيما وراء النهر متحالفا مع الترك. وعاد الحارث إلى خراسان (مرو) ووقف موقف الحكم بين نصر والكرماني، ولكنه عاد ورفع الراية السوداء من جديد. واضطر الحارث إلى مقاتلة الكرماني في أول الأمر ولكنه قتل في ربيع عام 128هـ/ 746م. وكان من الممكن لنصر الانتصار على كل أعداء الأمويين وخاصة بعد التخلص من منافسه الخطير، إذ أن داعية العباسيين «أبومسلم» لم يكن خطيراً في ذلك الحين[1].

لقد كان العباسيون موفقين غاية التوفيق حين اتخذوا من خراسان التي كانت تقع في الجانب الشرقي للدولة الاموية، مركزاً رئيسيًا لدعوتهم. هذا الاختيار الدقيق لذلك الإقليم بالذات كان الضمان الاكيد لنجاح دعوتهم، ومن ثم قيام دولتهم وظهورها على المسرح الدولي آنذاك. فخراسان كانت ملأى بالموالي المظلومين من البيت الأموي، والمعادين له، والعاملين على التخلص منه، ومن نظام الحكم الأموي ذلك النظام الذي في ظله وتحت سلطانه وسيطرته فرق في المعاملة بين المسلمين من العرب وبين المسلمين من غيرهم - وبخاصة المشارقة - وبات واضحًا تعصب الأمويين للجنس العربي دون غيره من بقية الأجناس الأخرى التي اعتنقت الإسلام، ودخلت فيه. لهذه الأسباب كانت خراسان بالذات أنسب المواقع لبدء الهجوم على الدولة الأموية.

ومن ناحية أخرى كان بعد خراسان عن مركز الخلافة الأموية في دمشق عاملا هامًا من العوامل التي جاءت سيطرة وإحساس الخليفة الأموي بما يدور بها ضعيفة جدًا، ومما يؤكد ذلك ويوضحه أن أبا مسلم الخراساني حين

1 - د. سعد زغلول - نفس المرجع ص34.

استولى على «مرو» عاصمة خراسان واستنجد واليها من قبل بالخليفة الأموى مروان الثانى، ولكن جاءت استجابة الخليفة الأموى لوالى خراسان متأخرة، وذلك بعد أن كان أبو مسلم قد سيطر على الإقليم كله سيطرة تامة وكاملة وبعد أن كان سيف العباسيين قد قوى وتمكن من فرض سيطرته على الإقليم. ومن خراسان كانت الانطلاقة الأولى لبدء قيام الدولة العباسية ونفوذ بنى العباس(1).

اتخذت الدعوة في كل من الكوفة وخراسان مقراً لها ذلك أن الكوفة قد عرفت بولائها التام لآل البيت، إذ كانت عاصمة الدولة الإسلامية أيام الخليفة الرابع الإمام على بن أبى طالب ﷺ، كما أراد لها الأئمة أن تكون حلقة الاتصال فيما بينهم وبين خراسان، كما كانت في نفس الوقت مكان التقاء لكل القادمين من خراسان من الدعاة ومن الحميمة ممن يحملون الأوامر والتعليمات من الإمام أما خراسان، فقد اختيرت مقراً للدعوة لعدة اعتبارات، لعل من أهمها:

1 ـ بعدها عن مركز السلطة فى الشام.

2 ـ موقعها الاستراتيجى المهم.

3 ـ كثرة الأنصار والأعوان لآل البيت.

4 ـ وجود عدد كبير من الناقمين من الفرس والأتراك على الدولة الأموية.

5 ـ النزاع القبلى الذى كان على أشده فى تلك الفترة بين الحجازيين واليمنيين، والذى استفاد منه الدعاة، وبخاصة أبو مسلم الخراسانى الذى استفاد بشكل كبير من ذلك الصراع.

---

1 ـ د. نايف السهيل ـ السياسة الخارجية للدولة العباسية ج1.

6 ـ وربما يعود اختيار الأئمة لخراسان أيضًا هو إدراكهم للحالة التى يعيشها الإقليم فى ذلك الوقت، إذ يقول محمد بن على فى وصيته لأتباعه حين اختلف الرأى حول المكان المناسب للدعوة[1]:

«أما الكوفة وسوادها فهناك شيعة الإمام على بن أبى طالب ﷺ. وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف وتقول: كن عبدالله المقتول، ولاتكن عبدالله القاتل. وأما الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كأعلاج، ومسلمون فى أخلاق النصارى، وأما الشام فليس يعرفون إلا آل أبى سفيان، وطاعة بنى مروان، عداوة لنا راسخة، وجهلا متراكمًا. ولكن عليكم بخراسان فإن هناك العدد الكثير، والجلد الظاهر، وصدورًا سليمة وقلوبًا فارغة، لم تتقسمها الأهواء، ولم تتوزعها النحل، ولم تشغلها ديانة، ولم يتقدم فيها فساد، وليست لهم اليوم همم العرب، ولا فيهم كتحازب الأتباع بالسادات، وكتحالف القبائل، وعصبية العشائر، ولم يزالوا يمتهنون ويذلون ويظلمون ويكظمون، ويتمنون الفرج، ويؤملون الدول، وهم جند لهم أجسام وأبدان ومناكب وكواهل وهامات، ولحى وشوارب، وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أفواه منكرة وبعد فكأنى أتفاءل إلى الشرق، وإلى مطلع سراج الدنيا، ومصابيح الخلق وإذا كان موقع خراسان الجغرافى له أثره الكبير فى نجاح دعوة العباسيين وقيامهم فإن موقع خراسان الجغرافي كذلك كان له أثره فى صبغ أناسها بصفات تجعلها أقدر على القتال وأقوى من غيرهم صبرًا فى ميدان الوغى، وأشدهم تذمرًا وأسرعهم غضبًا وحنقًا كل هذه الصفات التى أحسن العباسيون استغلالها أفضل استغلال بما يحقق لهم آمالهم المرجوة وطموحاتهم التى واجهوا من أجلها صعوبات جمة ومشاكل متعددة لا حصر لها.

---

1 ـ عبد العزيز المسيلم ـ المرجع السابق ص60.

نجاح العباسيين في الاستيلاء مع مقاليد الحكم

كان أمرًا طبيعيًا، إذا ما أخذت الحالة الاجتماعية، والظروف والملابسات آنئذ بنظر الاعتبار؛ فإن الأمة كانت مهيأة نفسيًا لقبول التغيير، أي تغيير. بل كانت تراه أمرًا ضروريًا، لابد منه، ولا غنى عنه؛ إذا كانت تريد لنفسها الحياة الفاضلة، والعيش الكريم ولهذا، فليس من الغريب أن تقول: إنه كان بإمكان أية ثورة أن تنجح، لو أنها تهيأت لها نفس الظروف، وسارت على نفس الخط، واتبعت نفس الأساليب، التي اتبعها العباسيون في دعوتهم، وثورتهم. وتستطيع أن نتبين أساليب العباسيين تلك في ثلاثة عوامل الأول: «كانوا يصورون أنفسهم على أنهم ما جاءوا إلا لينقذوا الأمة مع شرور بني أمية، وظلمهم، وعسفهم، الذي لم يكن يقف عند حد من الحدود. وكانت دعوتهم تتخذ اتجاه التبشير بالخلاص، وأنهم سوف يقيمون حكمًا مبدؤه العدل، والمساواة، والأمن والسلام. وقد كانت وعودهم هذه كسائر الوعود الانتخابية، التي ألفناها من سياسة العصر الحديث. بل لقد كانت الأماني التي خلقتها الدعوة العباسية في الجماهير مسؤولة إلى حد كبير عن ردود الفعل العنيفة، التي حدثت ضد الحكم العباسي بعد ذلك؛ حيث كان حكمهم قائمًا على الطغيان المتعطش إلى سفك الدماء..».

العامل الثاني: إنهم لم يعتمدوا كثيرًا على العرب، الذين كانوا يعانون من الانقسامات الداخلية الحادة، وإنما استعانوا بغير العرب، الذين كانوا في عهد بني أمية محتقرين، ومنبوذين، ومضطهدين، ومحرومين من أبسط الحقوق المشروعة، التي منحهم إياها الإسلام حتى لقد أمر الحجاج أن لا يؤم الناس في الكوفة إلا عربيا وقال لرجل من أهل الكوفة: لا يصلح للقضاء إلا عربي كما طرد غير العرب من البصرة، والبلاد المجاورة لها، واجتمعوا يندبون: وامحمداً وأحمدا. ولا يعرفون أين يذهبون؟! ولا عجب أن نرى

أهل البصـرة يلحقون بهم، ويشتـركون معهم في نعي مـا نزل بهم من حيف وظلم بل لقد قـالوا: «لا يقطع الصلاة إلا: حمـار، أو كلب، أو مولى..» وقد أراد معاوية أن يقتل شطرًا من الموالي، عندما رآهم كثروا، فنهاه الأحنف عن ذلك وتزوج رجل من الموالي بنتًا من أعراب بني سليم، فـركب محمد بن بشيـر الخارجي إلى المدينة، وواليـها يومئذ إبـراهيم بن هشام بن إسمـاعيل، فشكا إليه ذلـك، فأرسل الوالي إلى المولى، ففرق بينه وبين زوجـته، وضربه مائتي سـوط، وحلق رأسه، وحاجبـه، ولحيته.. فقـال محمد بن بشـير في جملة أبيات له:

قضيت بسنة وحكمت عدلا ولم ترث الخلافة من بعيد

ولم تفشل ثورة المختـار، إلا لأنه استـعان فيـها بغيـر العرب، فتـفرق العرب عنه لذلك.

ويقول أبو الفـرج الأصفهـاني: «.. كان العـرب إلى أن جاءت الدولة العباسية، إذا جاء العربي من السـوق، ومعه شيء، ورأى مولى، دفعه إليه، فـلا يمتنع». بل كان لا يـلي الحكم أحد من أبنـاء المولدين، الذين ولدوا من أمهات أعجميات.

وأخيرا فـإن البعض يقول: إن قتل الحسين كـان: «الكبيرة، التي هونت على الأمويين أن يقاوموا اندفاع المشرقيين إلى الدخول في الإسلام»..

وبعد هذا.. فإن من الطبيـعي أن يبذل الموالي أرواحهم، ودماءهم وكل غالٍ ونفيس في سـبيل التخلص من حكم يعاملهم هذه المعاملة؛ وله فيهم هذه النظرة؛ فاعـتماد الدعوة العـباسية على هؤلاء كـان منتظرًا ومترقعًـا، كما أن اندفاع هؤلاء في نصرة الدعوة العباسية كان متوقعًا، ومنتظرًا أيضًا.

العامل الثالث: أنهـم ـ أعني العباسيين ـ قـد حاولوا في بادئ الأمر أن

يربطوا دعـوتهم وثورتهم بأهل البيت عليـهم السلام بالذات وذلك لمالـها من الاهميـة البالغـة، بالنظر لما تركتـه من آثار بارزة على مدى التـاريخ، ولأنها كانت الناحية التي اعتمد العباسيون عليها اعتمادًا كليًا، وتعتبر السـبب الرئيسي في وصول العباسيين إلى السلطة، وحصولهم على مقاليد الحكم.

وكما هو معروف، كـانت الدعوة العباسية شيعيـة الأصل. والحقيـقة أن الدعوة الشيـعيـة التى قامت باسم آل البـيت، والتى أظهرت العلويـين بمظهر الورثة الطبيعيين لخلافة النبى وجـدت فى خراسان أرضا صالحة لبذر بذورها. وكان عرب الفـتوح، الذين توغلوا فى خراسان والتى تشمل فى الحقـيقة كل الهضاب والمرتفعات حتى بلاد ما وراء النهـر، معزولين فى هذا المشرق البعيد كما تميزوا بصـفات خاصة. ولم يكن المتزوجون منهم قـد تخطوا الجبال التى تحد خراسـان بل كـان غيـر المتزوجـين منهم هم الـذين أتوا إلى هناك فى جماعـات وتزوجوا من نساء من أهل البلاد. ويقـدر بعض المؤرخين عددهم بمائتى ألف إبان عهد الثورة، وذلك بما فـيهم النساء والأطفال، هذا هو أقصى عدد ممكن، كـما يقول «فلهوزن» وكـان الاندماج كامـلا بين السكان حتى لا يمكن التمـييز فى كتب التـاريخ إلا بصعوبة بين العرب المصـبوغين بالصـبغة الخراسانيـة وبين أهل البلاد الداخلين في الإسـلام وهما الذيـن عرفوا بالموالى والذين كانوا يحـتفظون بذكـريات حضارتهم القـديمة. هؤلاء كانوا يحـسون بمساواتهم مثل العرب، فـسيعملون فعلا فى القرن التـالى على إثبات تفوقهم الفكرى فى كل علوم العرب. ومنذ العصر الأموى كانوا يحاربون فى صفوف الجيش الإسـلامى للدفاع، ضد التـرك، عن بلادهم وكان الجمـيع يعيش فى وئام من الفاتحين العرب إلى الوطنيين الذين أسلموا إلى المزدكيين. وعلى عهد زياد بن أبيه والحـجاج بدأ نفى أو تهجـير العناصر العلوية التى كـانت تسبب الاضطراب فى العـراق إلى خراسـان، وفى نفس الوقت أوقفت هجـرة أهل الشام الذين لم يكونوا يشعرون بالاطمئنان هناك. ووجد العلويون ـ كما قلنا ـ

فى الأقاليم المشرقية مكانًا صالحًا لنشر أفكارهم: فالموالى من المشرق الإسلامى كانوا لايزالون يشعـرون بالحاجة إلى حاكم مطلق له الصفـات ما سمح له من بالتحكم فى توزيع الأرزاق والذى تنتشر السعادة أو التعـاسة بإرادته بين كل رعيته، كما ينتشر بها الخصب على الأرض أو الجدب. وكانت العـلاقات المستمرة بين خراسان من جهة وبين البصرة والكوفة، وهما مركزا الاضطراب العلوى من جهة أخـرى، سببًا فى أن يـعتنق كل أهل إيران للآراء المعـادية «للدولة العربية» التى كان الأمويون يحاولـون تنظيمها، والتى رغم تحولها إلى ملكية وراثية فإنها ظلت محتـفظة بطابعها العربى أو البدوى. هكذا شعر أهل المشرق الإسـلامى أنهم أكثر تعلقًا بالمذهب العـلوى أحفاد رسول الله مـحمد ﷺ(1).

كل هذا يفسـر النجاح الذى صادفته الدعـوة العلوية منذ بدء تنظيمها بالعراق وإرسال دعاتها إلى خراسان. ومنذ سنة 100هـ/ 718م كان الدعاة من الشيعة يظهرون بخراسان مـا بين الحين والحين بانتظام، حسب أوامر الكوفة، دون أن يعرف لحساب من يعملون! وحسـبما يقوله المؤرخون العباسيون ولدت الحركة الشيعية العباسية بين حاشية أحد أبناء الإمام علىّ ﷺ، هو محمد بن الحنفية. ويرى بعض الـباحثين المحدثين أن مـحمدًا هذا ـ كما الأمر بالنسبة لأبنائه ـ لم يكن سوى اسم يمثل مذهبًـا، هو مذهب استمرار روح النبى ﷺ فى سلالته، والذى يعرف باسم الكيسانية. وإن مـسألة اختيار أحد أبناء الإمام علىّ ﷺ من غير سـلالة فاطمة، أى من بين أبنائه من امرأة أخرى كـالحنفية لم يكن سوى مـرحلة انتقال موافقـة بالنسبة لادعاءات بنى العـباس عم النبى ﷺ فى الخلافـة حتى ليشك فلهوزن فى أنـها كانت تدبيرًا مـاهرًا من جانب العبـاسيين. وتقول هذه الرواية العـباسيـة أن ابن محمد بن الحنفـية وهو أبو

---

1 ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص35.

هاشم، عهد في عام 98هـ/ 717م بكل حقوقه في الخلافة إلى أحد أحفاد العباس. أما عن الشيعة، فقالوا أن أبا هاشم أوصى إلى عبد الله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر ابن أبي طالب الذي نادي به الشيعة، وهو يومئذ غلام صغير، إماما في الكوفة على أيام مروان بن محمد. وقالوا أن روح النبي ﷺ انتقلت إليه. وبعد انهزامه سار إلى فارس، فأقام بأصفهان ثم اصطخر حيث نشر سلطانه على عربستان وفارس وكرمان ثم إنه فر إلى مرو حيث قتله أبو مسلم وحتى عام 130هـ/ 747م كانت شخصية رئيس الجماعة الإسلامية الذى يدعى له (الإمام) مبهمة فدعاة العباسيين كانوا يقبلون أية مساعدة مهما كانت غريبة. فلقد نشر أحد دعاة الشيعة، وهو «الخداش» في خراسان حركة تدعو إلى إحياء المذاهب القديمة عن شيوعية النساء، وتوزيع الأرض، وهى الأفكار التى عملت لفترة ما على انتشار ـ مذاهب مزدك، والتى ستظهر لمرات عديدة في أرض إيران وبعد وفاة هذا المسلم الغريب الشأن عام 118هـ/ 736م رأى محمد بن على أنه من الضرورى تكفيره[1].

وكيفما كان الأمر فالمهم هنا هو أن محمداً بن على بن عبدالله بن العباس هو العباسى الحقيقى الذى سعى لنيل الخلافة. ومن مقره «بالحميمة» أخذ ينظم الدعوة أو الدعاية تنظيماً سريًا دقيقًا ويرسل الدعاة والنقباء العمال إلى الجهات الملائمة لهذه الدعوة وأهمها خراسان وهي البلاد التى تشمل كل الهضبة في المشرق الإسلامى حتى بلاد ما وراء النهر. لأن كل العناصر المعارضة للأمويين والساخطة على سياستهم قد تجمعت فى هذا الإقليم بالذات. ومما يدل على اهتمام الإمام محمد بخراسان كمسرح لهذه الدعوة الجديدة وانبعث الدعاة إلى خراسان متنكرين في زى أصحاب المصالح المشروعة كالتجار والباعة وأصحاب الحوانيت أو كمعلمين ومتصوفة.. إلخ.

---

1 ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص37.

وكانوا يدعـون الناس فى ستر وكتـمان، ولكل داعيـة اثنى عشر نقيـبا، لكل نقيب سـبعون عـاملا، والعمال يشـرفون على الخلايا السـرية التى تندس بين الجماهير فى جميع الأمصار.

وكـان هؤلاء الرجال فى العـادة على قـسط كـبير من المهـارة والخبـرة بالطبيـعة البشـرية وما فيـها من ضعف وقسوة كى يتمكنوا من إحراز النجاح المطلوب. وكانت دعـوتهم تنصب على الثورة وقلب الدولة الأموية مـتخذين فى ذلك الشعارات الجـذابة التى تستهوى نفوس الموالـى كمناداة بالمسـاواة التى ينص عليـها الإسـلام، والتنبيـه على أن هذه البلد هى بلدهم قـبل أن تكون للعرب مثل قول الـقائد قحطبة بن شبيب «يا أهل خـراسان هذه البلاد كانت لأبائكم» وقد حرص العباسيون على إخـفاء أطماعهم فى الخلافة عن الناس، فلم تكن البيعة تؤخذ باسم العباسيين بل لشخص من البيت النبوى يعين فيما بعـد، الرضى من آل مـحمـد وعلى اعـتبـار أن أهل البـيت هم أحق الناس بالحكم. وكان الفـرس يميلون لهم لان الإمام الحـسين ﷺ تزوج منهم بنت يزدجرد آخر ملوك الفرس، وكان الدعاة يبلـغون أخبارهم إلى القائم بالكوفة، وهذا بدوره يبلغها إلى الإمام محمد بالحميمة. ويرجع اهتمام العباسيين بمدينة الكوفـة كمـركـز لدعـوتهم ومقـر لكبـيـر دعاتهم، إلى مـركـزها المهم فى المواصـلات. وكان الدعاة فى بعض الأحيان يكتشف أمرهم فيعذبون أو يقتلون ولاسيمـا فى ولاية أسد بن عبد الله القـسرى الذى لقى دعاة العبـاسيين على يديه محنة كـبرى ولم تتقـدم دعوتهم إلا بعـد وفاته سنة 120هـ الموافق 737م وتنبغى الإشارة هنا إلى شخـصية عظيمة كان لها دور كبـير فى خدمة الدعوة العبـاسية، وهى شـخصيـة بكير بن مـاهان داعى العباسـيين بالكوفـة. فلقد استطاع هذا الرجل بفـضل ثرائه وغناه أن ينفق على الدعوة ويدعم أركـانها. فيروى الطبرى أن بكيـراً بن ماهان أعطى الإمام محمد العباسى أربـعة قضبان

من فضة وآخر من ذهب كما سلمه كل ماله فأصبحت له معه صلة وثيقة. وفى عام 125هـ الموافق 742م توفى الإمام محمد بن على بالحميمة وخلفه ابنه إبراهيم كما توفى بكير بن ماهان بالكوفة وخلفه صهره أبو سلمة الخلال، الذي لقب فيما بعد بوزير آل محمد[1].

سرية الدعوة:

يعد محمد بن على بن عبدالله بن العباس أول الساعين من العباسيين للوصول إلى الخلافة، فقد بدأ بتنظيم الدعوة تنظيمًا سريًا دقيقًا، وذلك بإرسال النقباء والدعاة والعمال، بزى التجار وأصحاب المصالح على أن يدعو الناس فى ستر وكتمان، إلى الجهات البعيدة التى يكثر فيها أعداء الدولة الأموية، والحاقدون على الأمويين بسبب سياسة التمايز بين من هو عربى ومن هو أعجمى. فكانت خراسان هي الأرض الملائمة لزرع الدعوة العباسية. جعل محمد بن على العباسى للدعوة مجلسًا يشرف عليها ويتكون من الدعاة ولكل داعية اثنا عشر نقيبًا، ولكل نقيب سبعون عاملاً ويشرف هؤلاء العمال على الخلايا السرية التى تنتشر بين الناس ثم يجتمع فيهم محمد بن على فى موسم الحج إذ يأتون إليه بالمال ويأخذون الأوامر، استجاب إلى العباسيين فى خراسان أناس كثيرون وقد ساعد على ذلك، أن أهل خراسان أسلموا قبل غيرهم فى أعداد كبيرة، وأظهروا حماسًا للدين الجديد بالاشتراك مع العرب فى الجهاد لقتال الترك. لكن العرب لم يحسنوا معاملتهم ولم يسوّوا بينهم وبين أنفسهم فى العطاء بل كانوا أحيانًا يجعلونهم يغزون دون عطاء ولا رزق، إلى أن جاء عمر بن عبد العزيز وقرر لهم، لذلك كان محمد بن على العباسى يوصى دعاته بالخراسانيين ويقول لهم: فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم تتوزعها

---

1 ـ د. أحمد مختار العبادى ـ المرجع السابق ص23.

النحل، ولم يقدم عليهم فساد، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة، ويبدو أن بنى أمية كانوا يخافون من حدوث انقلاب فى خراسان. فكانوا يرون أنهم يقدرون أن يرتقوا أى فتق إلا من خراسان غير أن محمدًا بن على مات قبل أن ينال غرضه من دعوته فى عام 124هـ/ 742م. فعهد بالإمامة إلى ولده إبراهيم الذى عرف بالإمام. فاستمر الأخير فى الدعوة بحماس شديد، إذا أرسل إلى خراسان بكير بن ماهان ليعلن وفاة محمد وولايته. ولما مات بكير فى سنة 127هـ/ 745م، عين الإمام إبراهيم مكانه أبا سلمة الخلال، الذى كان رقيق واعتق، وجعل له سيطرة تامة على الدعوة فعرف (الخلال): بوزير آل محمد وكان كثير التنقل بين خراسان و"الحميمة" مركز الإمام ثم أحسن إبراهيم اختيارًا بتعيينه قائدًا شابًا لم يتجاوز التاسعة عشرة من عمره، هو عبدالرحمن ابن مسلم، كنى بأبى مسلم بناء على طلب إبراهيم وقد جعل له سلطة تامة على الدعوة بخراسان عام 128هـ/ 746م، وأمر بقية الدعاة بطاعته. وقد زوده بنصائح فى سبيل نصرة آل البيت بأن يفرق بين طوائف العرب، باستمالة اليمانية ومعاداة الحجازية وحتى يقتل بخراسان من يتكلم العربية[1].

ولذا فقد اختار خراسان، فأرسل دعاته إليها، وأوصاهم بوصيته المشهورة، التى يقسم فيها البلاد والأمصار: هذا علوى، وذاك عثمانى، وذلك غلب عليه أبو بكر وعمر، والآخر سفيانى وأمرهم - أعنى الدعاة بالتحاشى عن الفاطميين، لكنه ظل هو شخصيًا، ومن معه من العباسيين، الذين استنوا بسنته، وساروا من بعده بسيرته - ظلوا - يتظاهرون للعلويين بأنهم معهم، وأن دعوتهم لهم. ولم يكن إلا القليلون يعرفون بأنه: كان يريد الأمر للعباسيين. وقد أعطى دعاته شعارات مبهمة، لا تعين أحدًا، وصالحة للانطباق على كل

1 - د. إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص22.

فريق، كشعار: «الرضا من آل محمد»، و«أهل البيت»، ونحو ذلك ولقد بذل محمد بن على جهدًا جبارًا فى إنجاح الدعوة، وكانت أكثر نشاطاته فى حياة والده، على بن عبدالله، الذى يبدو أنه لم يكن له فى هذا الأمر دور يذكر وكان قد بدأ نشاطاته، حسب ما بأيدينا من الدلائل التاريخية من عام 100هـ الموافق 718م. أى بعد وفاة أبى هاشم بسنتين. إذ فى: سنة 100هـ الموافق 718م. وجه محمد بن على من أرض «الشراة» ميسرة إلى العراق ووجه محمد بن خنيس، وأبا عكرمة السراج، وهو أبو محمد الصادق، وحيان العطار إلى خراسان. وفيها أيضا جعل اثنى عشر نقيبًا، وأمر دعاته بالدعوة إليه، وإلى أهل بيته، وفى عام 102هـ الموافق 720م. وجه ميسرة رسله إلى خراسان، وظهر أمر الدعوة بها وبلغ ذلك سعيد خذينة، عامل خراسان؛ فأرسل، وأتى بهم، واستنطقهم، ثم أخذ منهم ضمناء وأطلقهم وفى عام 104هـ الموافق 722م. دخل أبو محمد الصادق، وعدة من أصحابه، من أهل خراسان إلى محمد بن على؛ فأراهم السفاح فى خرقة، وكان قد ولد قبل خمسة عشر يومًا، وقال لهم: «والله، ليتمن هذا الأمر، حتى تدركوا ثاركم من عدوكم» وفى عام 105هـ الموافق 723م. دخل بكير بن ماهان فى دعوة بنى هاشم، وفيها مات ميسرة؛ فجعل محمد بن على بكيرًا هذا مكانه فى العراق، وفى عام 108هـ الموافق 726م. وجه بكير بن ماهان عدة من الدعاة إلى خراسان، فظفر بهم عامل خراسان؛ فقتلهم، ونجا منهم عمارة؛ فكان هو الذى أخبر محمد بن على بذلك وفى عام 113هـ الموافق 731م. صار جماعة من دعاة بنى العباس إلى خراسان؛ فأخذ الجنيد بن عبد الرحمن رجلا منهم؛ فقتله، قال: «من أصيب منهم قدمه هدر» وفى عام 117هـ الموافق 735م. أخذ عامل خراسان أسد بن عبدالله وجوه دعاة بنى العباس، وفيهم النقباء، ومنهم سليمان بن كثير؛ فقتل بعضهم، ومثل ببعضهم، وحبس آخرين وفى

عام 118هـ الموافق 736م، وجه بكير بن ماهان عمار بن يزيد ـ وهو خداش ـ واليًا على شيعة بني العباس؛ فنزل «مرو»، ودعا إلى محمد بن علي؛ ثم غلا وفي عام 120هـ الموافق 737م. وجهت شيعة بني العباس سليمان بن كثير إلى محمد بن علي في أمر خداش وفي عام 124هـ الموافق 741م. قدم جماعة من شيعة بني العباس الكوفة يريدون مكة. وفيها أيضًا اشترى بكير بن ماهان أبا مسلم[1].

وقد تزعم أمر الدعوة في كل من الكوفة وخراسان مجموعة من الدعاة، وهم: **دعاة الكوفة**: لقد نظم أمر الدعوة في الكوفة ثلاث هم على التوالي:

1 ـ ميسرة العبدي: كان مولى لعلي بن عبدالله بن عباس، وقد قام بأمر الدعوة في الكوفة منذ عام 102هـ الموافق 720م واستمر بها إلى أن توفي في عام 105هـ الموافق 723م.

2 ـ بكير بن ماهان: استمر في رئاسة الدعوة في الكوفة حوالي اثنين وعشرين عامًا تخللها رئاسته للدعوة في خراسان أيضًا في بعض الأحيان خاصة عندما يتأزم الموقف في خراسان مثل ما حصل من داعية خراسان خداش عندما انحرف عن مسار الدعوة، إذ أرسل الإمام بكيرًا لإعادة الأمور إلى وضعها الطبيعي، ولإقناع الناس هناك بكذب ما يدعيه خداش. ويعتبر بكير بن ماهان أهم دعاة الكوفة نظرًا لطول المدة التي مكثها في رئاسة الدعوة من ناحية، وإخلاصه لها، وتفانيه في خدمتها من ناحية ثانية، ذلك أنه لم يدخر وسعًا في سبيل إنجاحها، إذ دفع ما يملك من جهد ومال لهذه الدعوة، إذ يقال بأنه كان يملك ذهب حصل عليها من إرث في بلاد السند في باكستان؛ كل تلك الأموال صرفها في سبيل الدعوة، مما يدل على حرصه

1 ـ الطبري ـ ج5 ص316 ـ 512.

الشديد على إنجاحها. وقد استمر في رئاسة الدعوة من عام 105 هـ الموافق 723م ـ عام 127هـ الموافق 74م وهي السنة التي توفي فيها.

3 ـ **أبو سلمة الخلال**: هو آخر الدعاة في الكوفة إذ قاد الدعوة في العراق في السنوات الخمس الأخيرة التي سبقت قيام الدولة العباسية، وقد بذل هذا الرجل جهودًا ضخمة، وأموالا طائلة في سبيل نجاح الدعوة فالثورة فالدولة. يقول عنه الذهبي: «كان أبوسلمة من مياسير الكوفة، أنفق أموالا في إقامة دولة بني العباس لقد كان أبوسلمة من أكبر الدعاة للدعوة، وأعظم السعاة في استتباب الأمر. لقد قدم هذا الرجل خدمات جلية للدعوة، أمضى في خدمتها ثلاثين عامًا كانت حافلة بالنضال والكفاح الفرق بين بكير بن ماهان وأبي سلمة الخلال هو أن المدة التي مكثها بكير وهي: اثنان وعشرون عامًا كلها قضاها في رئاسة الدعوة في حين لم يكن أبوسلمة رئيسًا للدعوة سوى خمس سنوات، كان آخرها السنوات الخمس الأخيرة التي تزعم فيها أمر الدعوة للرضا من آل محمد في الكوفة منذ وفاة بكير عام 127هـ الموافق 744م إلى عام 132هـ الموافق 749م عندما أعلنت الدولة العباسية، فأصبح وزير آل محمد، إلا أنه اتهم في نهاية الأمر بالتواطؤ مع العلويين حيث قتل على يد أبي مسلم الخراساني بأمر من أبي العباس السفاح.

دعاة خراسان: أما ما يتعلق بدعاة خراسان فيحسن أن أورد أبرزهم وهم:

1 ـ **عكرمة السراج**: مولى لابن عباس، ويعتبر أول الدعاة، وقد كان اتصاله بالبيت العباسي إما بحكم الولاء، وإما بحكم مكانته في الدعوة، ويروى أنه زار بني العباس في «الحميمة»، ثم سافر إلى خراسان ونشر علم ابن عباس، ويقال بأنه هو الذي اختار النقباء، وأنه اختار أيضًا بكير بن ماهان[1].

---

1 ـ محمود/ حسن، الشريف/ العالم الإسلامي في العصر العباسي ص16.

2 ـ حرب بن عثمان: هو مولى بن قيس بن ثعلبة، وكـان ممن اشتهروا بالحماسة للدعوة إذ اتخذ من «بلخ» و«مـرو» مركزًا له، وقد انتهى أمره، بأن قتله الوالى الأموى على خراسان عندما انكشف أمره.

3 ـ كثير الكوفى: قدم من الكوفة ونزل فى «بلخ» مركز الدعوة هناك، وبالرغم من أنه كان أميًا إلا أنه كان لبقًا نشيطًا فى مجال الدعوة، وقد تعرض للحبس من قبل أسد القسـرى إلا أنه أطلق سراحه.

4 ـ خداش: اسـمه عـمار بن يزيد، وقـيل عمـارة، اتخذ من «مرو» مستقـرًا له، وقد اتهم بالزيغ والمروق عن الدين، وأنه لم يخلص للدعوة لأنه كمـا يقال: كان نصـرانيًا ثم أعلن إسلامـه، وقد انتـهى أمر ذلك الرجل بأن قبض عليـه والى خراسـان أسد بن عبـد الله القسـرى فقطع لسـانه، وسمل عينيه، ثم قتله بعد ذلك. وقد أدت هذه الفتنة التى أثارها خداش فى خراسان إلى حـذر الأئمة إذ تركـوا مكاتبة الدعاة فى خـراسان إلى حـين خوفًـا من افتضاح أمرهم. ونتيجة لخوف محمد بن على من فتنة خداش هذا فقد أرسل إلى خراسان أشـهر دعاته فى الكوفة آنذاك وهو «بكير بن مـاهان» ليؤكد لهم كذب ادعـاء خداش. وبالرغم من ذلك كله، فـإن أهل خراسان لن يصـدقوا بكيرًا عندما قال لهم بأنه موفدًا مـن الإمام، بل طلبوا منه ما يثبت ادعاءه هذا بعلامة يصدقـونه بها، فعاد إلى الإمام ثانية وجـاءهم بالعلامة المطلوبة، وهى عبارة عـن عصا مدببة، وبـهذا تمكن من إقناعهم، وإعادتهم إلى الطـاعة مرة أخرى.

5 ـ سليمـان بن كثيـر الخزاعى: يعتـبر سليمـان بن كثـير أحد النقـباء البارزين فى ذلك الوقت، أرسلـه الإمام محمـد بن على إلى خراسان للقـيام بالدعوة، ولبث فـى خراسان فـترة رئيسًـا للدعوة، وكان صـاحب استقـامة ورأى، وقد أشاد أبو جعفر «عبد الله بن محمد» (المنصور فيما بعد) بأثر ذلك

الرجل في الدعوة وقال عنه: «هو أحد فتياننا». وبالرغم من أن إبراهيم الإمام قد أوفد غيره لرئاسة الدعوة، وهو أبو مسلم الخراساني، إلا أن منزلته لدى الإمام بقيت على ما هي عليه، نلمس ذلك عندما أوصى إبراهيم الإمام أبا مسلم، حينما بعثه إلى خراسان قائلا له: ولا تخالف هذا الشيخ، «أي سليمان بن كثير» ولا تعصه، وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني ولكن هل التزم أبو مسلم بتلك الوصية؟ الواقع غير هذا، فقد دب الخلاف بين الرجلين سليمان بن كثير وأبي مسلم خاصة بعد أن لجأ أبو مسلم إلى العنف والشدة في خراسان، وانتهى الأمر باتهامه من قبل أبي مسلم وقتله على يده. ولعل قتل أبي مسلم لهذا الرجل كان واحداً من الأسباب التي دفعت بالمنصور إلى التفكير جديًا في القضاء على أبي مسلم، ذلك أن أبا مسلم قد تجاوز حدوده في نظر أبي جعفر خاصة عندما قتل أبو مسلم سليمان بن كثير دون أخذ رأي أحد من العباسيين بالرغم من وجود أبي جعفر هناك[1].

6 ـ أبو مسلم الخراساني: اتصل بالإمام إبراهيم شاب من نوابغ الشبان لم يتجاوز سنه الواحد والعشرين عامًا اسمه عبد الرحمن وكنيته أبو مسلم الخراساني لا نعرف شيئًا كثيراً عنه. ويصفه ابن خلكان بأنه كان قصير القامة، أسمر اللون، جميل الوجه، أحور العين، عريض الجبهة، وافر اللحية، خافض الصوت، فصيحًا بالعربية، لم ير ضاحكًا أو مازحًا في وقته، ولا يكاد يقطب في شيء من أحواله، تأتيه الفتوحات العظام فلا يظهر عليه السرور، وتنزل به الحوادث الفادحة فلا يرى مكتئبًا. تلقى أبو مسلم أصول الدعوة بالكوفة، فاسترعى انتباه رجال الحزب العباسي، فأخذوه وقدموه لإمامهم إبراهيم الذي لمس فيه ذكاء خارقًا وإرادة حديدية فأيقن أنه الشخصية

---

1 ـ عبد العزيز اللميلم ـ المرجع السابق ص65.

التي يمكن أن يعول عليها في هذا الأمر، لهذا ولاه رئيسا للدعاة في خراسان وأوصى شيوخ الدعوة بطاعته هناك»[1].

استرعى انتباه شيعة العباسيين حيث أرسلوه إلى إبراهيم الإمام الذي ضمه إلى أسرته، وعلمه لنفسه، وجعله من خاصته، وتبناه، وسماه عبدالرحمن، وقد توسم فيه الإمام علامات الذكاء والنجابة، ويبدو أن الإمام قد أعده لذلك اليوم حيث بعث به إلى هناك، وأوصاه بالجد في الدعوة، والتعاون مع سليمان بن كثير عندما قال له :ـ إنك رجل منا أهل البيت هذه العبارة التي قالها الإمام لأبي مسلم تدل على ثقته التامة بهذا الرجل، بل إنها رفعت من منزلة أبي مسلم أمام العديد من العرب والخراسانيين على حد سواء. لقد كان أبو مسلم على معرفة بأحوال ذلك الإقليم حيث قيل بأنه زاره عدة مرات، نزل أبو مسلم في «بلخ» عند أبي النجم عمران بن إسماعيل في خراسان فاتصف بالدهاء والحزم، وكان يدير الأمور بحكمة ودهاء، إذ أحرز نجاحًا كبيرًا في نشر الدعوة أولا، ثم استفاد من ذلك الصراع القبلي بين اليمانية والحجازية هناك، إذ اتخذ موقف الحياد من هذه القبائل المتصارعة أول الأمر، ثم انحاز إلى اليمانية بعد ذلك دون أن يفقد علاقته مع الحجازية، وبالتالي استخدام أسلوب الشدة والقسوة بعد ما منحت له الفرصة. لقد تزعم أبو مسلم الدعوة في خراسان آخر الأمر، وكانت الأمور غامضة والدعوة مبهمة، فاستجاب الكثير من الخراسانيين عربًا ومشارقة، وهم لا يعرفون من هو الرضا من آل محمد، ولا يعرفون أيضًا ما هي الدولة التي ستخلف دولة الأمويين، وكان الدافع إلى ذلك هو الحقد والكراهية للدولة الأموية. نعم لقد أخذ أبو مسلم البيعة على الناس في خراسان بعبارات غريبة وعجيبة كذلك، إذ لم يشهد العالم الإسلامي حدوثها في بيعة ما منذ بيعة

---

1 ـ د. أحمد مختار العبادي ـ المرجع السابق ص24.

السقيفة إلى ذلك الوقت الذي نتحدث عنه، إذ أخذ تلك البيعة على عرب خراسان وعجمها وجميع مواطنيها على كتاب الله وسنة نبيه، والطلاق والعتاق والمشي إلى بيت الله الحرام، وما إلى ذلك من عبارات مستحدثة. وكان المبايع له شخص مجهول الاسم والمكان أشير إليه بكلمة «الرضا من آل محمد». وهنا يتساءل المرء عن سر هذا الإلغاز، وحكمة هذا الغموض فلا يصل إلى بيان مقنع يكشف عن الحقيقة في هذا، حتى لقد قضى أبو مسلم نحبه دون أن يخلف شيئًا يفسر تلك الأمور البالغة التعقيد والسرية التامة. ولم يقتصر أمر البيعة بهذا الأسلوب على أبي مسلم بل سرى ذلك بالنسبة للعديد من الدعاة الذين قاموا بهذا الأمر سواء في خراسان أو في غيرها يقول البعض في هذا[1]:

«ويظهر أن المناداة بوصية أبي هاشم للعباسيين إنما كانت ضرورة سياسية ملحة حتمتها الظروف التي مرت بها الدعوة العباسية، ولهذا فإن السر في نجاح الدعوة العباسية هو أنها ظهرت بواجهات مختلفة، ورفعت شعارات متنوعة من أجل أن تجذب أكبر عدد ممكن من المعارضة للحكم الأموي، وقد غير العباسيون نظرتهم بعد نجاح الثورة، وبنوا حقهم على دعوى أن العباس عم الرسول ووارثه.

وبالرغم من ظهور هذه الدعوة في نهاية القرن الأول الهجري فإن بني أمية لم يكن لديهم علم بمن تدعو له الشيعة في شخصه، الذين كانوا حتى ذلك الوقت يدعون للرضا من آل محمد ولا يعلم الحقيقة في تلك الدعوة سوى الدعاة والنقباء، أما غالبية العامة من الناس فقد كان اعتقادهم بأن الدعوة لواحد من البيت العلوي. وقد استمر هذا الغموض حتى وقع كتاب في يد الخليفة الأموي مروان بن محمد من إبراهيم الإمام كان قد بعث به إلى

1 ـ عبد العزيز اللميلم ـ المرجع السابق ص66.

أبي مسلم، وفيه سبب لمروان بن محمد، يقول المسعودي عن ذلك: قبض رجال مروان على رجل يحمل كتابًا من أبي مسلم إلى إبراهيم الإمام يخبره فيه خبره، وما آل إليه أمره، فلما تأمل مروان كتاب أبي مسلم قال للرسول: لاترع، كم دفع لك صاحبه؟ قال:ـ كذا وكذا، قال: هذه عشرات آلاف درهم لك، وإنما دفع إليك شيئًا يسيرًا، وامض بهذا الكتاب إلى إبراهيم، ولا تعلمه بشيء مما جرى، وخذ جوابه فائتني به، ففعل الرسول ذلك، فتأمل مروان جواب إبراهيم إلى أبي مسلم بخطة يأمره فيها بالجد والاجتهاد والحيلة على عدوه، وغير ذلك من أمره ونهيه كما يتضمن هذا الخطاب أيضًا أمرًا لأبي مسلم بأن يقضي على نصر بن سيار، عندها بعث مروان كتابًا إلى عامله على دمشق «الوليد بن معاوية بن عبد الملك» يأمره بالكتابة إلى عامل البلقاء للقبض على إبراهيم الإمام في مقره «بالحميمة»، وشد وثاقه وإرساله إلى الخليفة. فبعث عامل دمشق إلى نائب البلقاء يطلب منه تنفيذ أوامر الخليفة، فذهب إلى المسجد ووجد إبراهيم جالسًا فقبض عليه وقيده وأرسله إلى دمشق ومنها إلى مروان. ولما شعر إبراهيم بما يلير له نعى نفسه إلى أهله، وأوصى بأن يكون الخليفة من بعده أبو العباس «عبد الله بن محمد» وأمره بالمسير إلى الكوفة والسمع والطاعة لأبي العباس[1].

ولم تأخذ الدعاية العباسية شكلها الكبير إلا بعد وفاة محمد بن علي عام (25هـ/ 743م) إذ عهد ابنه إبراهيم الإمام بإدارة هذه الدعاية إلى أبي مسلم، وهو من المشرق الإسلامي من غير شك، الذي سير الأحداث التي أدت إلى الثورة ويقول الطبري أن أبا مسلم كان شابا حدثا عمره 19 سنة عندما اختارة الإمام، ولهذا السبب رفضه أتباع الدعوة أول الأمر. وكانت وصية إبراهيم الإمام له: النظر في هذا الحي من اليمن فالزمهم واسكن بين

1 ـ عبد العزيز اللميلم ـ نفس المرجع ص67 وانظر: مروج الذهب جـ3 ص ص 258 ـ 259.

أظهـرهم، فإن الله لايتم هذا الأمـر إلا بهم. وانهم ربيعـة فى أمرهـم، وأما مضـر فإنهم العدو القـريب الدار، واقتل من شككت فيـه. وإن استطعت لا تدع بخراسان من يتكلم العربية فافعل، وأيما غـلام بلغ خمسـة أشبار وتتهمه فاقتله. هذا كما يفهم من النصوص أن الـسجون فى العراق كانت مكانًا طيبًا لإعداد الثورات.

قام أبومسلم بأمر الدعـوة فى خراسان عام 129هـ الموافق 746م، فضم إليه الموالى من المشرق الإسلامى وهم الأغلبية، ثم أخذ يستميل القبائل اليمنية مستغلا الخصومات القبلية التى بينها وبين الحجارية. وكان والى خراسان نصر ابن سيار حجـازيًا، وقد حاول أن يجمع كلمة العـرب ضد المشرق الإسلامى كما حاول تـسوية الخلاف مع اليمينيـة فكتب إليهم يحضهم على ترك العصبية واستعان فى ذلك بملكته الشعرية إذ أخذ ينظم شعراً فى هذا المعنى ويذيعه بين القبائل مثل قوله:

من كان يسألنى عن أصل دينهم فإن دينهم أن تهلك العرب

غيـر أن هذه المحاولات باءت بالفشل أمـام دسائس أبى مـسلم فرفض اليمـنية الصلح واشـترط زعـيمهم الكـرمانى عزل نـصر بن سيـار من ولاية خراســان. ولما قويت شوكـة أبى مسلم، جـاهر بالدعوة علنا وأشـعل النيران على قمم الجبال لجمع الأنصار، كمـا اتخذ هو وأصحابه اللون الأسود شعاراً فى ملابسهـم وألويتهم ولذا عرفوا بالمسـودة. والمعروف أن العباسـيين اتخذوا اللون الأسـود شعـاراً لهم حزنًا على الـشهـداء من آل بيت النبى ﷺ الذين قتلهم الأمويون. غير أن هناك فـريقًا من المؤرخين يـرون أنه ليس هناك ثمة علاقة بين سواد الألوية ومـسألة الحزن والحداد. ويدللون على ذلك بأن بعض الذين ثاروا على الدولة الأمـوية قـبل ذلك مـثل أبى حـمزة الخـارجى وأبى

الحارث بن سريج، اتخذوا اللواء الأسود شعارًا لهم. وفي ذلك يقول الشاعر الكميت موجهًا كلامه إلى الحارث بن سريج:

وإلا فارفعوا الرايات سودا   على أهل الضلالة والتعديف

كأن هناك علاقة بين سواد الألوية وبين محاربه الضلال والخروج عن مبادئ الإسلام. يضاف إلى ذلك ما ترويه المصادر من أنه كانت للرسول راية تدعى العقاب من صوف أسود مربعة رسم فيها هلال أبيض، وإنه كان يحملها في حروبه مع الكفار. فلعل العباسيين أرادوا أن يتمثلوا عهد الرسول في كفاحهم مع بني أمية هذا وتجدر الإشارة هنا إلى أن شعار الأمويين كان البياض سواء في دمشق شرقًا أو في قرطبة غربًا[1].

يجب ألا يغيب عن الذهن أن أبا مسلم لايدين بالنجاح لمهارته فقط في الاستفادة من أخطاء أعدائه، ولكنه دين به بصفة خاصة عجزهم عن الاتحاد فأثناء الصراع بين نصر والكرماني انضم أبومسلم إلى الكرماني. ولولا ما هو معروف عن فردية العرب، لكان من المتوقع وجود حزبين متصارعين فقط: الموالي من المشرق الإسلامي الذين يريدون الاستيلاء على السلطة، والعرب المتحدون ضد هذا الخطر. وهكذا كانت الصراعات القبلية بين العرب هي السبب في نجاح أبي مسلم. وخلف خطوط المقاتلة كانت هناك شبكة للدعاية قد أعدت حسب المبادئ التي عرفتها جماعات العلويين والفاطميين والإسماعيليين والحشاشين: أي الجماعات السرية التي قالت بأن الأئمة يحيطون بالعلوم الإلهية، وإن السلف منهم يعهد إلى الخلف بالأسرار، ويعلم التأويل والباطن. وإن الإمام ينفرد وحده بتأويل القرآن[2].

---

1 ـ أحمد مختار العبادي ـ المرجع السابق ص26.

2 ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص37.

وجعل محمد بن على أتباعه السبعين(70) الأوائل ينتخبون 12 نقيبًا أى رئيسًا، كان عليهم إعداد البلاد للثورة. وهؤلاء النقباء السبعون كانوا يمثلون الكثير من قبائل العرب، فقد كان منهم من خزاعة: سليمان بن كثير ومالك ابن الهيثم، وزياد بن صالح، وطلحة بن رزيق، وعمرو بن أعين. ومن طئ قحطبة بن صالح بن شبيب. ومن تميم: موسى بن كعب ولاهز بن قريظ. ومن بكر بن وائل: أبو داود بن إبراهيم الشيبانى.. إلخ. وبصبر وجلد لا يعرفون الكلل قام هؤلاء بتمهيد البلاد للثورة الرائعة. والملاحظ أن بعض هؤلاء الدعاة كان يميل إلى العلويين بصفة خاصة، ويظهر أن هذا هو الذى دعا العباسيين إلى عدم الكشف عن حقيقة الدعوة، إذ دعواه: «الرضا من آل محمد».

علانية الدعوة: انضم إلى الدعوة العباسية بقيادة أبى مسلم فى ليلة واحدة أهل ستين قرية من نواحى مرو، وبناء على أمر الإمام إبراهيم أظهر أبو مسلم الدعوة علانية فى شهر رمضان عام 129هـ/ 747م على أن تكون الطاعة لبنى العباس. فعقد اللواء والراية اللذين بعث بهما الإمام، ويدعى الأول الظل والثانى السحاب، ومعناهما: أن خلفاءه العباسيين يظللون الأرض إلى آخر الدهر، وكان يتلو: (إن الذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير). واتخذ أبومسلم السواد شعارًا له، فعرف جيشه بـ «المسودة» نسبة إلى شعار العباسيين الأسود، حزنًا على الشهداء من بنى هاشم، ونعيًا على بنى أمية فى قتلهم. كذلك أمر بأن توقد النار وتضاء المشاعل الكبيرة على قمم الجبال. فأخذ ينضم إليه عدد كبير من الموالين كما ذكرنا سابقًا[1].

قرر أبو مسلم فى عام (129هـ/ 747م) بناء على تعليمات الكوفة أن يحدد مسلكه ويبدأ بالعمل الإيجابى. وتقول الرواية إن شخصًا من خراسان

---

1 - د. إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص23 - وانظر: الكامل فى التاريخ 295/4.

أتى إلى إبراهيم الإمام وكـان يختلف منه إلى خـراسان ويعود إليـه. وعندما وصـل إلى قومس كـتب إليه إبراهيم الإمام: «إني قد بعـثت إليك براية النصر فارجع من حيث لقيك كتابي...»، فـانصرف أبو مسلم إلى خراسان، ونزل قرية من قرى «مرو» يقال لها «فـنين» على أبي الحكم عيـسى بن أعين النقيب وذلك في شهـر شعبـان. ومن مركز قـيادته في «مرو» أخـذ أبو مسلم يوزع النقباء على مختلف الأقاليم ويأمره بإعلان الثورة. فوجه أبا داود النقيب إلى طخارستـان فما دون «بلخ»، فأمره بـإظهار الدعوة في شهر رمـضان، ووجه نصر بن صبيح إلى «مرو الروذ»، ووجه أبا عاصم عبد الرحمن بن سليم إلى «الطالقان»، ووجه الجـهم بن عطية إلى العلاء بن حريـث «بخوارزم» بإظهار الدعوة في رمضان. ومع أن أبا مسلم حدد للدعاة وقت إظهار الدعوة بالنسبة للجميع في الشهر التالي إلا أنه ترك لهم حرية التصرف. وذلك أن من اعجله العدو منهم دون الوقت بالأذى والمكروه فقد حل لهم أن يادفعوا عن أنفسهم ويجردوا السيوف، وكـذلك من شغله منهـم عدوهم عن الوقت فـلا حرج عليهم أن يظهـروا بعد ذلك تحول أبو مسلم مـن عند أبي الحكم النقيب ونزل «حصن سيفذنج» و«رمه» وسـد دروب القرية حتى لا يؤخذ على غرة. وهناك أظهر أمره، فأتاه في ليلة واحدة أهل ستين قرية، كما تقول النصوص، وذكر اسم الخليفة العباسي من أعلى المنبر، لأول مرة قبل صلاة الجمعة. وكان هناك علمان أسـودان أتي بهما من الكوفـة وعلقهمـا أسفل المنبر. وكان الإمـام قد أرسلهما إليه: اللواء الأول كان يسمى الظل، وعلق على رمح طوله 14 ذراعا والراية الثانيـة كانت تـسـمى السحاب، وعلقت عـلى رمح طولها 13 ذراعا. وكان أبو مسلم يتلـو وهو يعقد اللواءين: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج]، وربما كانت هذه الآية مكـتوبة على اللواء. وتأول أبو مـسلم الظل والسـحاب، فـقـال: إن السحـاب يطبق الأرض وأن

الأرض كما لا تخلو من الظل كذلك لا تخلو من خليفة عباسي إلى آخر الدهر. وكذلك لبس أبو مسلم السواد هو واتباعه. وإلى جانب اتخاذ لون خاص نجد أن أبا مسلم يغير في بعض الشعائر الدينية. إذ لما حضر عيد الفطر أمر أحد النقباء أن يصلي بالشيعة (الأتباع)، وأمره أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير آذان ولا إقامة. وكان بنو أمية يبدأون بالخطبة قبل الصلاة وبالآذان والإقامة.

وأعلن الاتباع يمين الولاء والطاعة. وكانت البيعة: «أبايعكم على كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ والطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله ﷺ، وعليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشي إلى بيت الله الحرام، وعلى أن لا تسألوا رزقًا ولا طعامًا حتى يتبدئكم به ولاتكم». هكذا بدأ أبو مسلم نشاطه في منطقة قبيلة «خزاعة»، ولكنه عندما اصطدم باتحاد قبائل العرب ضده خرج إلى «الماخوان» وخندق بها (وجعل للخندق بابين). وهناك عاد إلى نشاطه، ورغم أنه أصبح من المشكوك في أمرهم بالنسبة للعرب إلا أن هؤلاء كانوا مشغولين بنزاعاتهم القديمة فلم يستمر اتحادهم طويلا ضده بل إن عرب اليمنية تحالفوا جزئيًا معه، إذ أرسل إلى ابن الكرماني واجتذبه إلى جانبه. وهكذا من ناحية العرب أما من الناحية الأخرى فإن أنصار أبي مسلم من المشارقة الذين أقسموا على كتاب الله وسنة رسوله، على الإخلاص لمن يتم له إجماع المسلمين من أهل البيت «فكانوا خاضعين تماما له كما كان الجند مطيعين لقوادهم أحسن الطاعة. وبفضل مجهوداته كانت طبقة الأعيان من أهل البلاد من ملاك الأراضي المعروفين في خراسان بالدهاقين (جمع دهقان) وبالمرازبة (جمع مرزبان) قد دخلوا في الإسلام. هذا والظاهر أنه حرص في دعايته على ألا يهمل العقائد الشعبية في المشرق الإسلامي. وفي ذلك تقول النصوص: «كان أعداء أبي مسلم يرجفون عليهم بعبادة الأوثان واستحلال

الدماء والأموال والفروج. وأما أنه قبل فكرة تناسخ الأرواح، وما أضفاه عليه أتباعه من صفات قدسية، وهذا ما قال به أحد أتباعه وهو هاشم «المقنع»(1).

لما قوى أبو مسلم بمن اجتمع إليه، بدأ بإذكاء نار الخلاف بين نصر بن سيار - والى الدولة الأموية «بمرو» - و«الكرمانى» - زعيم قبيلة ربيعة اليمنية - الذى رفض الصلح بينهما وصمم على عزل نصر مما جعل هذا الأخير يطلب المساعدة من الخليفة الأموى بدمشق مروان بن محمد ضد الكرمانى قبل أن يستفحل أمر الخراسانى فى تلك البلاد ويصعب قتاله. لكن انشغال الخليفة بمقاومة الخوارج أخره فى إجابة الطلب وكتب إليه والى نصر، يقول له: «أضبط ثغرك بجندك، واهتم هو - الخليفة مروان - بالقضاء على رأس الدعوة الإمام إبراهيم «بالحميمة»، فأرسل إليه من أوثقه وزج به فى السجن، ثم أمر به أن يخنق أو تلف رأسه فى داخل جراب ولما لم يجد نصر بن سيار فائدة من محاولة الصلح مع الكرمانى، بعث إلى الأخير أبى الحارث بن سريج فقتله غدراً. تجاه هذا الأمر، انضم ابنا الكرمانى إلى أبى مسلم الخراسانى عندما تمكن من هذا من دخول «مرو» فى ربيع الآخر عام 130هـ/ 748م، واعترفا له بالإمارة لكنه ما لبث أن قتلهما خوفًا من أن تتفق اليمانية مع نصر. وقتل ستمائة من العرب بينهم عبد الله بن معاوية الذى كان قد استولى على فارس، وهرب إلى خراسان وبها أبو مسلم حينما علم بدعوته للرضا من آل محمد طمعًا فيها. كذلك قتل أبو مسلم الخوارج التى اجتمعت على قتله، فلما رأى نصر ما فعله الخراسانى من قتل لربيعة واليمانية والفرس، خرج هاربًا إلى نيسابور ثم هرب إلى «الرى» بعد أن لحقت به جيوش الخراسانى بقيادة الداعية قحطبة، حيث توفى هناك فى عام 131هـ/ 748م. فدانت بذلك

---

1 - د. سعد زغلول - المرجع السابق ص40.

سائر خراسان إلى أبي مسلم وسك العملة بها، باسم: أمين آل محمد، وعين عليها العمال[1].

نتج عن هذا الموقف ـ انقسام العرب وتماسك الحزب الجديد ـ أن تمكن أبو مسلم من الاستيلاء على «مرو» وهى عاصمة خراسان المنطقة الخصبة فى وادى المرغاب وهناك تفصيلات عن دخولها بالاتفاق مع ابن الكرماني. وهرب نصر (هو وامرأته المرزبانه ولكنه تركها فى الطريق) وسار إلى سرخس، ومنها إلى «طوس» ثم إلى نيسابور. ومن «مرو» أدار أبو مسلم الصراع ضد نصر. وهكذا بدأت الحرب التى انتهت بالقضاء على دولة الأمويين. ويقال أن الحركة انتهت فى كثير من الأحيان بمذابح راح ضحيتها العرب (انظر الطبرى) ولكن مهما يكن من شيء فإن عناصر عربية مهمة شاركت في تلك الحرب، فلم يدر أبو مسلم أول الهجمات بنفسه بل قام بها قحطبة بن صالح وهو من قبيلة طئ اليمنية وكان فى عام 100هـ/ 718م يعد من الاثنى عشر نقيبًا للحزب العباسي في خراسان، والذى كان قد عين قائدًا لمكة. وعند عودته إلى خراسان هزم تميم بن نصر بن سيار فى «طوس». وذلك بعد أن دعاه وأتباعه إلى كتاب الله وإلى الرضا من آل محمد فلم يجيبوه (سياسة)، وكان أتباع الشيباني الحروى من الخارج قد لحقوا بابن نصر هناك. وقتل تميم ابن نصر فى المعركة واستبيح عسكره. وهرب نصر من «نيسابور» إلى «جرجان»، وتمكن بذلك أبو مسلم من دخول نيسابور فى شوال عام 130 الموافق يونية عام 748م. وعندما استغاث نصر بوالي العراق يزيد بن هبيرة أرسل هذا إليه جيشًا «بجرجان»، ولكن قحطبة خرج لملاقاته وهزمه فى ذى الحجة عام 130هـ الموافق أغسطس عام 748م، بعد أن فتح «جرجان» وأوقع بأهلها الذين حاولوا الثورة فقتل منهم ما يزيد على 30 ألفا وبسبب

---

1 ـ د. إبراهيم أيوب ـ المرجع السابق ص24.

تردد بن هبيرة، مات نصر وهو يفر أمام قحطبة مات مريضًا قرب الري، وكان يحمل حملا وأخذت «الري» بعد موته وصادر أبو مسلم أملاك أهلها لأنهم كانوا سفيانية، كما يقول النص. وأحاط الحسن بن قحطبة ببقية الجيوش الشامية في «نهاوند». وعندما خرج جيش شامي كبير لتخليصها وعلى رأسه عامر المرى والى «كرمان» وداود بن يزيد بن هبيرة (في شعبان عام 131هـ الموافق مارس عام 749م) هزمه قحطبة وهو يتقدم قرب أصفهان. وتقول النصوص: أمر قحطبة بمصحف فنصب على رمح ونادى بأهل الشام إنا ندعوكم إلى ما في هذا المصحف فشتموه وأفحشوه في القول: وأنه هزم ابن ابن هبيرة وأصابوا عسكره وأخذوا منه مالا نعلم قدره من السلاح والمتاع والرقيق والخيل. وما رؤي عسكر قط كان فيه من أصناف الأشياء ما في هذا العسكر، كأنه مدينة. كان فيه من البرابط والطنابير والمزامير والخمر ما لا يحصى. واستراح قحطبة بعض الوقت «بأصفهان» ثم قدم على ابنه الحسن «بنهاوند». وبعد عدة أشهر من القتال استسلم الشاميون «بنهاوند» دون أن يفكروا في مصير إخوانهم بخراسان، وهؤلاء قضى عليهم دون شفقة أو رحمة. وبذلك انفتح طريق العراق أمام الخراسانية. خرج قحطبة من «نهاوند» وتوجه إلى العراق، واضطر في أول الأمر إلى الانسحاب أما والى الإقليم يزيد ابن هبيرة الذي خرج للقائه وراء دجلة، ولكنه عاد واتجه نحو الكوفة ـ وخرج يزيد بن هبيرة لمطاردته، وتمكن من مفاجأته في ذي الحجة عام 131هـ الموافق أغسطس عام 749م في معسكره قرب الأنبار، واضطر قحطبة إلى الانسحاب إلى واسط. وأثناء قتال الليل هذا وقع قحطبة في النهر (الفرات) ومات غرقًا ولكن ابنه الحسن الذي كان قد أظهر كفاءة ممتازة في القيادة، رأس الجند دون صعوبة، واستولى جيشه على الكوفة بعد هزيمة ابن هبيرة. والظاهر أن الكوفة أخذت بسهولة إذ كان محمد بن خالد بن عبدالله القسرى

قد خرج فيها على الأمويين الذين انسحبوا منها، وأعلن انضمامه إلى العباسيين وكتب بذلك إلى قحطبة[1].

بعد ذلك دخل الداعية قحطبة «نيسابور» ثم «الري»، ثم استولى على «أصفهان» وقتل عامل الخليفة مروان بن محمد بها. ثم حارب في «نهاوند» و«فارس». وأخيرًا هزم يزيد بن هبيرة - عامل الأمويين على العراق - وسلم عامل الكوفة المدينة إلى العباسيين[2].

هذه المدينة كانت مركز الدعاية الثورية للعباسيين منذ مدة. وقام أبو سلمة الخلال - وزير آل محمد - الذي كان يعمل على إثارة الناس عن طريق دعاته وباتصال وثيق مع أبي مسلم، قام بإزاحة النقاب عن وجهه وإدارة الأمور إدارة مباشرة باسم أهل البيت. وقبل ذلك بقليل كان رئيس البيت الهاشمي «إبراهيم بن محمد» قد قبض عليه في «الحميمة» بأمر الخليفة مروان بن محمد وأرسله إلى حران. الظاهر أنه قتل، ولايعرف كيف كانت نهايته. فيقال: مات في وباء حل بحران، ويقال اسمه مروان، ويقال: هدم عليه الدار التي يقيم فيها. وكان إبراهيم قد نصح أتباعه قبل ذلك بالهرب إلى الكوفة وطلب لديهم بيعة أخيه أبي العباس الذي أوصى إليه. وخرج أبو العباس من الحميمة وسار إلى الكوفة هو وأخوه أبو جعفر وعدد من أعمامه وبنو عمومته (كانوا 14 رجلا) فوصلوها في ربيع عام 132 هـ الموافق أكتوبر عام 749م. ولم يرد الوزير أبو سلمة الذي لم يكن قد بايع شخصيًا إلا إبراهيم، لم يرد أن يخضع لهم دون قيد أو شرط، وحاول أن يفصلهم عن العباسيين في خراسان. فكتم أمر وصولهم أولا والظاهر أنه اتصل بالعلويين، ولكن هؤلاء لم يكن لديهم من يقدموه ليأخذ على عاتقه إدارة الأمور. وقام

---

1 - د. سعد زغلول - المرجع السابق 42.

2 - د. إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص25.

أحد أتباع أبي مسلم بتقديم عدد من الزعماء والقواد الخراسانيين ـ دون علم أبي سلمة ـ لأبي العباس وبايعه هؤلاء القواد بالخلافة، وأقسموا له يمين الولاء والطاعة، كما عزوه في موت أخيه إبراهيم، واضطر أبو سلمة إلى عدم المقاومة.

خرج أبو العباس في يوم الجمعة 12 من ربيع الأول/ 28 أكتوبر (تشرين أول) عام 749م، إلى دار الإمارة، ومنها سار إلى المسجد الجامع بالكوفة حيث أخذ البيعة للأسرة الجديدة. وبعد الخطبة والصلاة للجمعة صعد المنبر وخطب خطبة «العرش» وفيها تكلم عن حقوق أسرته وبرنامجه كما أشاد بأهل خراسان، وتملكته الحمى وهو يخطب واضطر ان يقطع أول خطبة له من فوق المنبر، ولكن عمه داود تكلم نيابة عنه. وفي خطبته حاول أن يثبت عن طريق تأويل القرآن أن عائلته هي الأحق بالخلافة من العلويين ﴿...إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب]. وعندما صعد عمه داود المنبر طلب الدعاء بالعافية لأمير المؤمنين وقال «ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد»، وأشار بيده إلى أبي العباس، ثم قال: «اعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارجة منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم». هذا عن أحقية الأسرة في الحكم، أما عن الحكم نفسه فإن أبا العباس أعلن حلول العدل والصلاح وزوال عهد الجور والفساد. كما أنه أعلن زيادة أعطيات الجند (هدف سياسي). ويقال أن أبا العباس قال في خطبته استعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح» وأن هذه الصفة لصقت به وبعد الخطبة ترك أبو العباس أخاه أبا جعفر في المسجد يأخذ البيعة على الناس. وهذه المسألة محل بحث، إذ يقال أن هذا اللقب أُلصق به خطأ وأنه إنما أعطي لعمه عبد الله بن علي بطل مذبحة «أبي فطرس». قال بذلك صاحب أخبار مجموعة «لما كان من أمر

مروان بن محمد رحمة الله ما كان وانصرم أمر بني أمية بالمشرق وتغلب على ملكهم بنو العباس وقتل مروان في عام 132هـ فسير برأسه إلى السفاح ثم سار به أبي العباس ببغداد، وهو معسكر بها، وتتبع السفاح بني أمية حيث كان يقتل ويمثل.. وهناك إشارة لابن الأثير إلى ذلك إذ ينسب مذبحة أبي فطرس إلى العباس قائلا «ويقال أن هذه الحادثة كانت من السفاح». وكتب في ذلك الأستاذ عبدالحميد العبادي في مجلة الثقافة أو الرسالة؟[1].

نهاية مروان بن محمد:

وكانت الجيوش العباسية التي تعمل في أعالي دجلة تحت قيادة أبي عون عبدالملك بن يزيد الأزدي الذي عينه قحطبة،و لكن بعد سقوط الكوفة أعفي هذا القائد من القيادة التي أعطيت إلى عبدالله بن علي بن عباس. وسار مروان بن محمد على رأس جيش قوي لملاقاة الخراسانيين الذين تلقوا الإمدادات من أبي سلمة ومن أبي العباس، والتقى بهم على الضفة اليسرى لنهر الزاب، ودام القتال والمناوشات بين الطرفين مدة 9 (تسعة) أيام أحرز مروان خلالها بعض الانتصارات المحلية، لكن انتهى الأمر باضطراب جيشه إذ كانت كل عصبية تريد أن تتقدم العصبية الأخرى. وأعقب ذلك هزيمته نتيجة خطأ إستراتيجي إذ عقد جسراً على النهر وعبره رغم معارضة وزرائه في ذلك، إذ ترتب على هذا الخطأ أن انقطع الجسر عند الانهزام وكان من غرق يومئذ أكثر ممن قتل في يوم 11 جمادى الثاني عام 132هـ الموافق 26 يناير عام 750م. وكتب يومئذ عبد الله بن علي إلى السفاح بالفتح فصلى ركعتين شكراً لله وأمر لمن شهد الوقعة بـ500 دينار، ورفع رزقهم إلى 80 ديناراً. وبعد هزيمة الزاب فر مروان إلى الموصل، ولكنه استقبل استقبالا سيئا فسار إلى «حران» وأقام بها بعض الوقت أكثر من 20 يوماً. وتبعه عبد الله بن علي بأمر

---

1 ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص43.

أبي العباس فلما أقبل عليه مضى مروان إلى حمص، وبدأت مدن الشام تخلع طاعتها بالنسبة للأمويين وتسقط بين أيدي العباسيين مدينة بعد مدينة، مثل: «قنسرين» و«حمص» و«بعلبك». ولم تدافع إلا دمشق بعض الوقت، فدخلت عنوة في 5 من رمضان عام 132 هـ الموافق 17 من فبراير عام 750م، بعد أن حوصرت وضيق عليها ولكن مروان بن محمد لما دخل مصر عن طريق «الفرما»، لحقته الجنود الخراسانية كما قاتلته اليمانية من أنصار العباسيين الموجودين هناك. في قرية «بوصير» بـ«الأشمونين» قطعت رأس مروان وهو نائم في ذي الحجة عام 132 هـ/ 750م. بعد أن تعب من المطاردة. فلما حملت الرأس إلى أبي العباس (الخليفة الأول) خر ساجداً، وأعلن عن قيام الدولة العباسية بعدما بويع بالخلافة من قبل القواد.

وهناك رواية أخرى تقول: وتابع العباسيون مطاردة مروان، إذ تبعه صالح بن علي من أبي فطرس إلى العريش إلى النيل ثم واصل سيره إلى الصعيد. وفي بلدة بوصير (بالفيوم) حاول مروان الاختفاء في إحدى الكنائس، ولكن عرف مكانه ونازلته خيل صالح، فقتل في 27 من ذي الحجة عام 132هـ. واحتز رأسه وأرسل إلى صالح الذي مثل به (قطع لسانه) وسيره إلى أبي العباس وكان بالكوفة.

استسلام واسط ونهاية ابن هبيرة:

بالقضاء على مروان لم يبق للأمويين من قوة ولا حول إلا قوات ابن هبيرة التي لجأت بعد انهزامها أمام ابن قحطبة إلى واسط، المدينة الاستراتيجية التي بناها الحجاج في مستنقعات دجلة ودافعت المدينة عن نفسها ما يقرب من العام (11 شهراً). بدأ القتال بمناوشات خارج المدينة بين أهل الشام وجيوش الحسن بن قحطبة انتهت بانهزام أهل الشام والتجائهم إلى المدينة وتحصنهم بها، فأصبح القتال رمياً وتراشقاً من بعيد. ورغم الانقسامات بين عرب

الحجاز وعرب اليمن في صفوف ابن هبيرة بعد أن كاتب السفاح اليمانية من أصحاب ابن هبيرة، فإن هذا الأخير لم يدخل في مفاوضات مع العباسيين إلا عندما علم بموت مروان. وفي هذه الأثناء كانت قيادة القوات العباسية المحاصرة لواسط قد انتقلت ـ حسب سياسة الخليفة الجديد التي ترمي إلى وضع مقاليد الأمور وخاصة العسكرية منها بين أيدي أفراد أسرته ـ من يدى الحسن بن قحطبة إلى أبي جعفر أخي الخليفة إذ كتب السفاح إلى الحسن بن قحطبة: العسكر عسكرك والقواد قوادك ولكن أحببت أن يكون أخي حاضراً فاسمع له وأطع. بعد أن علم المحاصرون بقتل مروان طلبوا الصلح وطالت المفاوضات بين الطرفين (أكثر من 40 يومًا)، وانتهت بتأمين المحاصرين. ومضى السفاح المعاهدة ولكنه لم يحترمها عند تنفيذها (أبو مسلم لم يوافق على نصوصها) فقتل أفراد الحامية المستسلمة، وانتهى الأمر باغتيال ابن هبيرة نفسه. وباستسلام واسط تم القضاء على القوات الأموية النظامية وسار العباسيون في سياسة استئصال الأمويين، واستعمال القوة ضد أفراد الأسرة المنكوبة (شعار أبو مسلم منذ البداية: «اجعل سوطك السيف وسجنك القبر»، وهم في ذلك لا يتورعون عن الغدر والخيانة[1].

فر مروان إلى مصر عن طريق دمشق التي ترك فيها عاملا من قبله عليها ليقاتل العباسيين ويؤخر زحفهم ـ فلحق به عبد الله بن علي الذى استولى على المدينة بعد حصار أيام، فقتل بها ألوفًا كثيرة من الجند والأمراء كما نبش قبور الأمويين فيها ثم تابع تعقبه لمروان، فما أن وصل إلى فلسطين حتى نادى بالأمان في بني أمية، فاستأمن له أكثر من سبعين رجلا أدخلوا في سرادق عقد لهم مع بني هاشم الذين كانوا يجلسون على الكراسي وبني أمية على الوسائد التي ثنيت لهم. مع أنهم كانوا أثناء دولتهم يجلسون مع الخلفاء على

1 ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص47.

السرير ويجلس بنو هاشم على الكرسى، فأمر عبدالله بن على بقتلهم، فلما قتلوا دعا بالغداء، وأمر ببسط فبسطت عليهم، وجلس فوقهم يأكل وهم يضطربون تحته. فلما انتهى من الأكل، قال: ما أعلمنى أكلت قط أهنأ ولا أطيب لنفسى منها. ثم جروهم من أرجلهم وألقوهم فى بئر حفرت لهم خصيصًا. أما من لم يستأمن منهم، فقد هرب إلى أقاصى المغرب وحتى الحبشة أو إلى الأندلس وبذلك أصبح اسم عبدالله مرهوبًا فسماه أبو قتيبة بالسفاح[1].

ومن أهم المذابح تلك التى غدر فيها عبدالله بن على، عم الخليفة، بعدد عظيم من أمراء البيت الأموى (حوالى 90 رجلا) والتى تسمى بمذبحة أبي فطرس، وذلك بعد أن أمنهم ودعاهم إلى الطعام. ويقال أنه بعد أن قتلهم خيلة أمر بالبسط (الأنطاع) ففرشت على جثثهم فأكل عليها وهو يسمع أنين بعضهم (ربما سمى هذا الرجل بالسفاح من أجل ذلك؟) وتصيد العباسيون الأمويين فى الشام وفى فلسطين وفى العراق. وبعد مطاردة الأحياء طورد الأموات. وبذلك انتهكت قبور الخلفاء فنبشت بدمشق بأمر عبد الله بن على أيضًا، ونثر تراب جثثهم فى الهواء، ولم يستثن إلا قبر عمر بن عبد العزيز، بل ومثل ببعضها، هشام ضرب بالسياط وصلب وحرق. ولم ينج من الأمويين إلا حفيد الخليفة هشام «عبد الرحمن بن معاوية الذى هرب إلى أسبانيا حيث أنشأ دولة أموية جديدة أحيت مجدهم القديم. واستصفيت أموالهم وهدمت قصورهم وخربت خزانات المياه والصهاريج التى بنوها حتى لا يبقى لذكرهم أثر. حدث كل هذا وأهل الشام الذين كانوا يكرهون مروان يقفون موقف المتفرج على مصرع الدولة التى كانوا يدينون لها بكل شىء. هذا، ولو أنهم أفاقوا من ذهولهم بعد قليل وقاموا برد فعل لم يكن بعيد

---

1 ـ د. إبراهيم أيوب ـ المرجع السابق ص26.

الصدى. إذ نقضوا وخلعوا (بيضوا ـ عكس الذين يسودون) فى عدد من المدن مثل «البثنية» و«حوران» و«قنسرين» و«دمشق». أهم هذه الثورات كانت ثورة قنسرين، إذ قامت الحجازية بها ونادت بأبى محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية (خليفة). ولكن تمكن عبدالله بن على من تشتيت شملهم فى أواخر عام 133 هـ (أو 134) الموافق يوليه 751 (أو فى عام 752)، وأمن أهل المدينة فعادوا لطاعته، وسقط أبو محمد بين أيدي العباسيين وهو يفر إلى الحجاز. ولم يشأ أتباعه أن يعتقدوا فى موته بل انتظروا عودته كمهدى جديد يعيد المجد للشام فادعوا أنه السفيانى (المنتظر مثل القحطانى المنتظر والمهدى المنتظر). ولما يأسوا من عودته جعلوا منه المبشر بالمسيح الدجال المعروف فى علوم نهاية العالم الإسلامية، وفى البقية الباقية من المذاهب الأموية التى تضع آمالها السياسية فى المذهب الديني الذى يقول تتغلغل روح الله فى كل العناصر الطبيعية، ومثل اليزيدية من «الأزاد» فى منطقة الموصل والذين يعيشون حتى أيامنا هذه فى سفوح جبال سنجر ويمتدون شمالا حتى القوقاز[1].

1 ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص49.

الفصل الثاني

حكم أسرة آل العباس

مميزات الدولة الجديدة:

1) الناحية الدينية: قامت الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية عام 132هـ الموافق 749م وامتد حكمها خمسة قرون إلى أن سقطت أخيرًا على أيدى المغول بزعامة هولاكو حفيد جنكيزخان عام 656هـ الموافق 1258م. وعلى الرغم من أن الأسرة العباسية الحاكمة كانت أسرة عربية هاشمية، إلا إنها اعتمدت فى بادئ الأمر على الموالى الفرس، ولهذا لم يعد للجنس العربى تلك المكانة المرموقة التى كانت له أيام الدولة العربية. كذلك يلاحظ أن الخليفة الأموى كان أشبه بشيخ قبيلة يستمد سلطانه من القوى المادية ومن رضى رؤساء القبائل العربية. أما الخليفة العباسى فقد اتسمت سلطته بالقداسة وصار سلطانه مستمدًا من الله سبحانه وتعالى. فالخليفة العباسى أبو جعفر المنصور ثانى خلفاء العباسيين يقول فى أحد خطبه:

«أيها الناس، إنما أنا سلطان الله فى أرضه أسوسكم بتوفيقه وتأييده وحارسه على أمواله. اعمل فيه بمشيئته وإرادته، فاسألوا الله أن يوفقنى إلى الرشاد.

فنظام الخلافة قد تغير فى عهد العباسيين وأصبحت الخلافة تشبه نظرية الحق الإلهى فى الحكم التى كانت سائدة بين الفرس قديمًا أيام الساسانيين والتى سادت أوروبا فى بداية العصور الحديثة باسم Dt vine right of Rule ولقد اندمجت هذه النظرية فى نفوس المسلمين حتى صارت عقيدة يؤمنون بها. والفضل فى ذلك يرجع إلى الدعاية التى قام بها العباسيون لهذه الفكرة لدرجة أنهم استخدموا فى سبيل تدعيمها وترويجها أحاديث نبوية لم تثبت صحتها تبرر لهم هذا الحق إلى يوم القيامة. ولعل هذا هو السر فى بقاء

الخلافة العباسية مدة طويلة وفي تمتعها بمركز الزعامة الروحية في العالم الإسلامي حتى بعد زوالها من بغداد. يروي السيوطي في كتبه تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين أنه حينما سقطت الخلافة العباسية، وزالت من بغداد علي أيدي المغول «خيل للمسلمين أن العالم علي وشك الانحلال وأن الساعة آتية عن قريب، وصاروا يؤولون كل ظاهرة على أنها تعبير عن سخط الله واتخذوها أدلة علي ما سيحدث في العالم من انقلاب سيء لخلوه من خليفة». وإزاء هذه المكانة المقدسة التي تمتعت بها الخلافة العباسية في العالم الإسلامي، حرصت مصر علي إحيائها من جديد في القاهرة، وقد تم لها ما أرادت عام 1261م في عهد السلطان الظاهر بيبرس. واستمرت الخلافة العباسية قائمة بالقاهرة إلى أن احتل الأتراك العثمانيون مصر عام 1517م فقضوا على الخلافة واستأثر السلطان العثماني بالسلطتين الزمنية والروحية معًا[1].

2) من الناحية السياسية: خلط العباسيين:

نلاحظ أن العباسيين قد خلطوا السياسة بالدين وهم في هذه الناحية يختلفون عن الأمويين، الذي اتهموا بالخروج عن الدين الإسلامي والاهتمام بالمصالح الدنيوية لدرجة أن الثورات التي قامت في عهدهم اتخذت صبغة دينية اعتصمت بالأماكن المقدسة مما أوقع الأمويين في الحرج واضطرهم إلى ضرب الكعبة والاعتداء على أهالي مكة والمدينة لإخماد تلك الثورات مما أساء إلى سمعتهم الدينية.

أما الخلفاء العباسيين فعلي العكس من ذلك؛ أقاموا سياسة ممزوجة بالدين وأعلنوا أنهم يريدون إحياء السنة وإقامة العدل وإرجاع الخلافة الحقه بدلا من الملك الذي أقامه الأمويون. فأحاطوا أنفسهم بهالة من الدين وجذبوا

1 ـ أحمد مختار العبادي ـ المرجع السابق ص31 أنظر: السيوطي: تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ص309.

الفقهاء والعلماء حولهم، وتلقبوا بالأئمة، وارتدوا بردة الرسول ﷺ كرمز لسلطتهم الدينية وذلك في المناسبات الخاصة كصلاة الجمعة والعيدين، وفي ذلك يقول البحتري في مدح الخليفة المتوكل العباسي:

ووقفت في برد النبي مذكراً ... لله تنذر تارة وتبشر

والبردة رداء من الصوف يسدل على الكتفين، واستعمله العرب قبل الإسلام وبعده. ويروى أن الرسول ﷺ كانت له بردة من هذا النوع وأنه ألقاها يومًا على كتفي الشاعر كعب بن زهير تعبيرًا عن تقديره لشعره. ويقال إن معاوية بن أبي سفيان اشتراها من ولد كعب ثم حفظت بعد ذلك في خزانة الخلفاء أيام العباسيين. ولما استولى هولاكو على بغداد حاول حرقها ولكنها أنقذت من براثنه وهي الآن محفوظة بمدينة القسطنطينية يلاحظ في هذا الصدد أن قصيدة الشاعر الصوفي شرف الدين محمد البوصيري (ت 1294م) المعروفة بالبردة، اسمها في الأصل هو «الكواكب الدرية في مدح خير البرية». أما سبب تسميتها بالبردة فيرجع إلى أن البوصيري مرض يومًا مرضًا عضالا فجاءه الرسول في المنام وألقى ببردته على كتفه فشفي على الأثر ولم تلبث هذه المعجزة أن ذاعت واشتهرت حتى صار اسم البردة منذ ذلك الوقت عنوانا لهذا القصيدة. وقد ترجمت هذه القصيدة إلى الفارسية والتركية وكتبت حولها الشروح الكثيرة ونهج على منوالها عدد من الشعراء نذكر منهم أحمد شوقي في قصيدته المعروفة «نهج البردة».

كذلك استغل العباسيون فكرة المهدوية والعصمة أو المهدي المنتظر التي كانت أمل الغد عند جماهير الشعب المتعبة التي تنتظر المخلص الذي يخلصها مما هي فيه إلى حياة أفضل. ولهذا راجت هذه العقيدة بين جماهير الناس، وصارت بمثابة الشعار الديني والسياسي الذي يرفعه كل ناقم على ظلم بني أمية أو ظلم بني العباس بعد ذلك. ولقد استغلها الشيعة وغالوا في

استعمالها، واستغلها الحارث بن سريج في ثورته على الأمويين ولقب نفسه بالمهدى. كذلك عمل بها الأمويون أيضًا وأوجدوا مهديًا اسمه السفياني وهو الذى سيعيد ملك بنى أمية وكان من الطبيعى أن يستغلها العباسيون أيضا بعد توليهم الحكم لقطف ثمار الثورة على الأمويين دون شركائهم وأبناء عمومتهم العلويين. فاصطنعوا الأحاديث النبوية الموضوعة لتثبيت دعواهم بأن المهدى منهم، وأن يخرج وأصحابه من خراسان حاملين الرايات السود، مما ينطبق على الأحداث التاريخية التى توالت من قبل. كذلك استغل المنصور ثانى الخلفاء العباسيين هذه العقيدة حينما لقب ابنه وولى عهده بالمهدى. من كل ما تقدم نرى أن العباسيين قد استفادوا من الدين لتثبيت مركزهم السياسى وفى ذلك يقول ابن طباطبا فى كتابه الفخرى فى الآداب السلطانية: «إن هذه الدولة قد ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك، فكان أخيار الناس يطيعونها تدينًا والباقون يطيعونها رهبة أو رغبة. لكى يزيد الخلفاء العباسيون فى مهابتهم وقداستهم اتبعوا بعض عادات الأكاسرة الفرس مثل الاحتجاب عن الرعية والظهور فى وسط ستار كثيف من الأتباع ونشأت نتيجة لذلك وظيفة الحجابة، فلم يعد الخليفة يرى كما كان الحال من قبل إلا بعد برنامج محكم دقيق عند مقابلته. كذلك وجدت طريقة خاصة للتسليم على الخليفة مثل الانحناءات وتقبيل الأرض أو ذيل الثوب وهذه كلها تقاليد فارسية لأن السلام عند العرب كان ببسط اليد أو ضربها. وإلى جانب الحجابة وجد الخليفة أيضا بلاط يموج بالخدم والحشم والجوارى بحيث أصبح هذا البلاط نظامًا من نظم الدولة التى تؤثر فى سياستها[1].

---

1 ـ د. أحمد مختار العبادى ـ المرجع السابق ص33 وانظر: (أحمد أمين: المهدى والمهدوية ص12 (سلسلة اقرأ)، أحمد على: ثورة الزنج وقائدها على بن محمد ص32 ـ 33.

ـ د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف ـ الدولة العباسية ص7.

الوزارة:

كذلك استحدث العباسيون خطة الوزارة باختصاصاتها المعروفة، وهو نظام فارسي قديم وليس من مستحدثات الإسلام. ولهذا اختلف اللغويون حول أصل وزير هل هو من كلمة Wi - chir الفارسية أي الرئيس الذي يحكم، أم هو عربي من الوزر (بسكون الزاي) وهو الثقل والعبء، أو من الوزر (بفتح الزاي) وهو الملجأ أو المعتصم، بمعنى أن الوزير يحمل الثقل عن الخليفة أو أنه ملجأ إليه في الأمور المهمة. ومهما يكن من شيء فقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم في سورة طه ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾، كذلك عرفه العرب أيام الرسول وفي عهد الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية من حيث إن الخلفاء كانوا يرجعون إلى مستشارين أو أصحاب رأي فيما يحتاجون إليه من أمور. فهؤلاء كانوا يقومون بعمل الوزير إلا أنهم لم يحملوا هذا اللقب إلا نادراً. ثم جاءت الدولة العباسية على أكتاف الفرس، ومتأثرة بنظمهم وتقاليدهم. فجعلت للوزارة اختصاصات معينة وقواعد مقننة، من أهمها الإشراف على الشئون المالية، فالوزير هو المختص بحسابات الدولة من دخل وخرج ونفقات وهذا كان يتطلب منه دراية واسعة بإيرادات الدولة ومواردها الاقتصادية، في مختلف الأقاليم والأمصار. وقد حفظت لنا المراجع الإسلامية عدداً من قوائم الخراج التي كانت تمثل إيرادات الدولة العباسية مثل قائمة الجهشياري (ت 331هـ الموافق 942م) في كتابه الوزراء والكتاب، وهي تمثل الخراج في عصر الرشيد (170 ـ 193هـ الموافق 808م)، وقائمة ابن خلدون في مقدمته، وهي منسوبة إلى عصر المأمون (189 ـ 218هـ الموافق 833م) وقائمة ابن خرداذبة في كتابه المسالك والممالك، وهي تمثل خراج الدولة العباسية في القرن الثالث الهجري. وقائمة قدامة بن جعفر (337هـ الموافق 948م) في كتابه الخراج

وصنعة الكتابة وهى تمثل الخراج الكلى للدولة العباسية. فالوزير بحكم اختصاصه كان هو المشرف على ديوان الخراج فى الدولة (الدخل)، كما كان هو المشرف أيضًا على ديوان النفقات (المنصرف). وقدرة الوزير تظهر حينما يحدث عجز في الميزانية بين الدخل والمنصرف، فيتخذ التدابير اللازمة لتلافى الأمر وسد العجز. وإلى جانب هذه النواحى المالية والاقتصادية، كان الوزير أيضًا هو المختص بفن الإنشاء، وذلك ـ كما يقول الماوردى فى الأحكام السلطانية ـ كى يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه ـ ولهذا جرت العادة أن يكون الوزير من بلغاء اللغة، لأنه هو الذى يتولى بنفسه الإشراف على ديوان الرسائل الذى سمى فيما بعد بديوان الإنشاء. كذلك كان على الوزير أن يلم بأصول الآداب السلطانية ليعرف كيف يعامل الخلفاء، وأن يكون دارسًا كذلك لعقلية الجماهير ليعرف كيف يسوسهم. . .إلخ هذا وكان للوزير العباسى لباس خاص عرف بالسواد وهو شعار الدولة العباسية كما كانت له دار خاصة عرفت بدار الوزارة بجوار قصر الخلافة. وهكذا نجد أن الوزارة أيام العباسيين أصبح لها من حيث المظهر والاختصاص والتسمية، طابع جديد لم يوجد من قبل. يقول ابن خلدون فى تحديد اختصاصات الوزير العباسى[1]:

«فلما جاءت دولة بنى العباس، واستفحل الملك، وعظمت مراتبه وارتفعت، عظم شأن الوزير، وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقد، وتعينت مرتبته في الدولة، وعنت لها الوجوه، وخضعت لها الرقاب وجعل لها النظر في ديوان الحسبان، لما تحتاج إليه خطته من قسم الأعطيات في الجند، فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه، وأضيف إليه النظر فيه. ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ولحفظ البلاغة لما كان

1 ـ د. أحمد مختار العبادى ـ نفس المرجع ص35 نشر دى خويه De Goeje تبدأ من كتاب الخراج لقدامة بن جعفر مع كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه (ليدن 1889) راجع كذلك (محمد ضياء الدين الريس: الخراج فى الدولة الإسلامية ص422 ـ 435).

اللسان قد فسد عند الجمهور.. فصار اسم الوزير جامعًا لخطتي السيف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة، حتى لقد دعى جعفر بن يحيى البرمكي بالسلطان أيام الرشيد إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة، ولم يخرج عنده من الرتب السلطانية كلها إلا الحجابة التي هي القيام على الباب، فلم تكن له لاستنكافه عن مثل ذلك».

ويلاحظ أن معظم وزراء العباسيين كانوا من عائلات فارسية كأسرة البرامكة، وبني سهل، وبني الفرات وبني الجراح، وبني خاقان وبني وهب.. إلخ. وحينما ضعفت نفوذ الخلفاء العباسيين، تحول السلطان والنفوذ من الخلافة إلى الوزارة، وهنا أخذت الوزارة معنى آخر، فبعد أن كانت وزارة تنفيذ، أصبحت وزارة تفويض، أي بعد أن كان الخليفة يأمر والوزير ينفذ، صار الخليفة يفوض إلى وزيره تصريف جميع أمور الدولة بينما بقي هو كالمحجور عليه ولما استبد بالخلافة العباسية أسرة بني بويه الفرس، أنف هؤلاء من اتخاذ لقب وزير، وطمعوا في ألقاب الإمارة والسلطنة، فاتخذوا لقب أمير الأمراء ثم جاء من بعدهم الأتراك السلاجقة، فاتخذوا لقب سلطان، وصار بيدهم - كما حدث للبويهيين من قبل - الأمور السياسية والحربية معًا. أما لقب وزير، فقد ظل باقيًا، إلا أن مكانته في الدولة انحطت بعد أن زالت عنه جميع اختصاصاته، وصار عمله محدودًا ككاتب للخليفة أو كاتم لأسراره.

الناحية الحربية:

نلاحظ أن الدولة الأموية بحكم وجودها في الشام، وقربها من البحر الأبيض المتوسط كانت سياستها متجهة نحو هذا البحر فأنشأت أسطولا بحريًا قويًا سيطر على مياهه وشل حركة الأسطول البيزنطي فيه، كما استطاعت أن تمد سواحلها غربًا حتى شملت بلاد المغرب والأندلس وجزر البحر المتوسط.

فالدولة الأموية تعتبر دولة من دول البحر المتوسط. أما الدولة العباسية فإنها ابتعدت عن البحر واتجهت نحو المشرق الذى هو سر نجاحها، واتخذت بغداد عاصمة لها بدلا من دمشق. وقد نتج عن ذلك أن ضعف نفوذها فى المغرب الإسلامى. مما أدى إلى استقلال تلك الأقاليم الغربية عن نفوذها. فاستقلت الأندلس على يد صقر قريش عبد الرحمن الداخل الأموى. كما استقل المغرب الأقصى على يد الأدارسة العلويين. أما المغرب الأوسط فقد استقل به بنو رستم الخوارج الإباضية. وقد اكتفى العباسيون بإقامة دولة حاجزة Buffer state موالية لهم فى المغرب الأدنى وهى دولة الأغالبة، لتكون درعًا واقيًا لدولتهم من أخطار الشيعة والخوارج فى المغرب. على أن نفوذ العباسيين وإن كان قد ضعف فى المغرب، إلا أن قد قوى فى المشرق، فابن الأثير فى كتابه الكامل يشير فى حوادث عام 134هـ الموافق 751م إلى أن جيوش أبى مسلم الخراسانى، استطاعت أن تهزم الجيوش الصينية التى أخذت تتدخل فى بلاد تركستان. وقد عادت الجيوش العباسية محملة بالغنائم من متاع الصين كالأوانى الخزفية المنقوشة والديباج المزخرف، ويبدو أن هذا هو أول ذكر للاحتكاك الحربى بين المسلمين والصين فى المراجع الإسلامية، كذلك يلاحظ أن الحضارة الإسلامية قد أخذت تسود منذ ذلك الوقت بلاد أواسط آسيا بدلا من الحضارة الصينية[1]. هذا، وقد اصطلح المؤرخون على تقسيم تاريخ الدولة العباسية إلى أربعة عصور:

العصر العباسى الأول أو دور النفوذ الفارسى

(132 ـ 232هـ/ 750 ـ 847م).

العصر العباسى الثانى أو دور النفوذ التركى

(232 ـ 334هـ/ 847 ـ 945م).

---

1 ـ أحمد مختار العبادى ـ نفس المرجع ص38.

العصر العباسى الثالث أو دور نفوذ البويهيين الفرس

(334 ـ 447هـ / 945 ـ 1055م).

العصر العباسى الرابع أو دور النفوذ السلجوقى التركى

(447 ـ 656هـ/ 1055 ـ 1258م).

ويلاحظ أن هذا التقسيم وضعه المؤرخون لمجرد تسهيل دراسة تاريخ هذه الدولة، لأن التاريخ ـ كما هو معروف ـ تيار مستمر غير منقطع.

خلفاء العصر العباسى الأول: 132 ـ 232هـ الموافق 749 ـ 846م:

عبد المطلب ـ العباس ـ عبدالله ـ على ـ داود والى الحجاز ـ عبدالله والى الشام ـ الإمام محمد ـ صالح والى مصر ـ سليمان والى البصرة ـ إسماعيل والى الأهواز ـ موسى ـ عيسى ـ الإمام إبراهيم.

1 - أبو العباس عبد الله 132 - 136هـ الموافق 749 - 753م.

2 - أبو جعفر المنصور 136 - 158هـ الموافق 753 - 774م.

3 - محمد المهدى 158 - 169هـ الموافق 774 - 785م.

4 - موسى الهادى 169 - 170هـ الموافق 785 - 786م.

5 - هارون الرشيد 170 - 193هـ الموافق 786 - 808م.

6 - محمد الأمين 193 - 198هـ الموافق 808 - 813م.

7 - عبدالله المأمون 198 - 218هـ الموافق 813 - 833م.

8- أبو إسحاق محمد المعتصم بالله 218 ـ 227هـ الموافق 833 - 841م.

9 - أبو جعفر هارون الواثق بالله 227 ـ 232هـ الموافق 841 - 846م.

قائمة بأسماء خلفاء العصر العباسي الثاني والثالث

10 - المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بن الرشيد

232 - 247 هـ الموافق 847 - 861 م.

11 - المنتصر بالله محمد بن المتوكل بن المعتصم

247 - 248 هـ الموافق 861 - 862 م.

12 - المستعين بالله أحمد بن المعتصم

248 - 252 هـ الموافق 862 - 866 م.

13 - المعتز بالله محمد بن المتوكل بن المعتصم

252 - 255 هـ الموافق 866 - 868 م.

14 - المهتدى بالله محمد بن الواثق بن المعتصم

255 - 256 هـ الموافق 868 - 869 م.

15 - المعتمد على الله أحمد بن المتوكل بن المعتصم

256 - 279 هـ الموافق 869 - 892 م.

16 - المعتضد بالله أحمد بن الموفق طلحة بن المتوكل

279 - 289 هـ الموافق 892 - 901 م.

17 - المكتفى بالله على بن المعتضد بن الموفق

289 - 295 هـ الموافق 901 - 907 م.

18 - المقتدر بالله جعفر بن المعتضد بن الموفق

295 - 320 هـ الموافق 907 - 932 م.

خلع المقتدر أباه وبويع بالخلافة عبدالله المعتز، فمكث يومًا واحدًا في الخلافة ثم استظهر المقتدر عليه، فأخذه وقتله. ولذلك لم يعد عبدالله بن المعتز في الخلفاء لقصر الزمان - المدة - الذي تولى فيه.

19 - القاهر بالله محمد بن المعتضد بن الموفق

320 - 322 هـ الموافق 932 - 934 م.

20 - الراضي بالله محمد بن المقتدر بن المعتضد

322 - 329 هـ الموافق 934 - 942 م.

21 - المتقي بالله إبراهيم بن المقتدر بن المعتضد

329 - 333 هـ الموافق 941 - 945 م.

22 - المستكفي بالله عبد الله بن المكتفي بن المعتضد

333 - 334 هـ الموافق 945 - 946 م.

23 - المطيع لله الفضل بن المقتدر بن المعتضد

334 - 363 هـ الموافق 946 - 973 م.

24 - الطائع لله عبد الكريم بن المطيع بن المقتدر

363 - 381 هـ الموافق 973 - 991 م.

25 - القادر بالله أحمد بن إسحاق بن المقتدر

381 - 422 هـ الموافق 991 - 1030 م.

26 - القائم بأمر الله عبد الله بن القادر

422 - 467 هـ الموافق 1030 - 1074 م.

27 – المقتدى بأمر الله عبد الله بن محمد بن القائم بأمر الله

467 – 487 هـ الموافق 1075 – 1094 م.

28 – المستظهر بالله أبو العباس أحمد بن المقتدى

487 – 552 هـ الموافق 1094 – 1118 م.

29 – المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن المستظهر

552 – 529 هـ الموافق 1118 – 1135 م.

30 – الراشد بالله أبو جعفر المنصور بن المسترشد

529 – 530 هـ الموافق 1135 – 1136 م.

31 – المقتفى لأمر الله أبو عبد الله بن محمد بن المستظهر بالله

532 – 555 هـ الموافق 1138 – 1160 م.

32 – المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتفى

555 – 566 هـ الموافق 1160 – 1170 م.

33 – المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسين بن المستنجد

566. – 575 هـ الموافق 1170 – 1179 م.

34 – الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله

575 – 622 هـ الموافق 1179 – 1225 م.

35 – الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله

622 – 623 هـ الموافق 1225 – 1226 م.

36 - المستنصر بالله أبو جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله

623 - 640 هـ الموافق 1226 - 1242 م.

37 - المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله

640 - 656 هـ الموافق 1242 - 1258 م.

نهب المغول لبغداد

وانتقال الخلافة للقاهرة 659 - 923 هـ الموافق 1261 - 1517

38 - المستنصر	659 هـ الموافق 1261م.
39 - الحاكم الأول	660 هـ الموافق 1261م.
40 - المستكفى الأول	701 هـ الموافق 1302م.
41 - الواثق الأول	704 هـ الموافق 1340م.
42 - الحاكم الثانى	741هـ الموافق 1341م.
43 - المعتضد الأول	753هـ الموافق 1352م.
44 - المتوكل الأول للمرة الأولى	763هـ الموافق 1362م.
45 - المعتصم للمرة الأولى	779هـ الموافق 1377م.
46 - المتوكل الأول للمرة الثانية	779هـ الموافق 1377م.
47 - الواثق الثانى	785هـ الموافق 1383م.
48 - المعتصم للمرة الثانية	788هـ الموافق 1386م.
49 - المتوكل الأول للمرة الثالثة	791هـ الموافق 1389م.
50 - المستعين	808هـ الموافق 1406م.

51 - المعتضد الثانى 816هـ الموافق 1414م.

52 - المستكفى الثانى 845هـ الموافق 1441م.

53 - القائم 855هـ الموافق 1451م.

54 - المستنجد 859هـ الموافق 1455م.

55 - المتوكل الثانى 884هـ الموافق 1479م.

56 - المستمسك للمرة الأولى 903هـ الموافق 1497م.

57 - المتوكل الثالث للمرة الأولى 914هـ الموافق 1508م.

58 - المستمسك للمرة الثانية 922هـ الموافق 1516م.

59 - المتوكل الثالث للمرة الثانية (حتى الفتح العثمانى لمصر)

923هـ الموافق 1517م.

قامت الأسرة الخلافية الجديدة وهى أسرة العباسيين بالكوفة، وكان أول خلفائها أبو العباس عبدالله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس «السفاح». والعباس جد الأسرة التى تنسب إليه، وهو عم النبى ﷺ كما نعرف، وكان يكبر النبى بسنة أو سنتين، وكان تاجراً غنيا على عكس اخويه: أبى طالب وعبدالله والظاهر أنه كان موفقا فى رحلاته التجارية حتى أنه كان يظهر بمظهر الأمير، كما كان له شرف السقاية. والروايات تصوره كمعارض للنبى ﷺ طالما كان النبى ﷺ بمكة ولكنه لم يكن يبغض النبى ﷺ، بل ومن المحتمل أنه بعد موت أبى طالب أصبح حاميا لابن اخيه النبى ﷺ. ورغم أنه قاتل فى صفوف أهل مكة يوم بدر وأسر إلا أنه يقال أن المكيين أرغموه على الانضمام إلى جانبهم. ورغم أنه عاد بعد أن افتدى إلى مكة، فيقال أن النبى ألح عليه بذلك. والحقيقة أن تصرفاته فى مكة كانت فى مصلحة المسلمين. إذ

حمى المناصرين لهم وتحسس حسابهم. وبعد فتح مكة ترك النبي ﷺ له السقاية، كما أن العباس ساعد النبي ﷺ مساعدة قوية بأمواله. وهناك أساطير عباسية نظمت في صالحه منها أنه كان يجلب المطر بصلاته للاستسقاء. والعباسيون من سلالة ابنه عبد الله الذي ولد قبل الهجرة ببضع سنوات. وحسب رواية البخاري أسلم عبدالله هو وأمه قبل أبيه العباس. بدأ عبدالله يتميز أيام عثمان الذي عهد إليه بإمارة الحج سنة مقتله 35هـ/ 655م، وبعد ذلك أخذ جانب علي الذي استعمله كسفير له، كما ولاه البصرة. وانضم إلى معاوية بعد أن أخذ من بيت مال البصرة 3 ملايين درهم، وبايع يزيدا بعد موت معاوية عندما وجد الأغلبية يبايعونه وأخيرًا مات بالطائف عام 67هـ الموافق 686م[1].

شهرة عبد الله لا تعود إلى نشاطه السياسي، ولكن إلى ما اشتهر به من التبحر في العلوم الدينية والدنيوية من فقه إلى تفسير للقرآن حتى أطلق عليه اسم حبر الأمة كما سمي «البحر». وهناك روايات مطلولة عن علمه واهتمام النبي ﷺ به. وإلى جانب درايته للحديث عرف بكثير من الآراء الجريئة، إذ تنسب إليه الأساطير مثل اشتراك إبليس في مناقشات القرشيين وغيرها والتي ربما نسبت إليه زيفا فيما بعد، وكذلك الاقتباسات المأخوذة من علوم اليهود، المعروفة بالإسرائيليات. وعلي ابن عبد الله هو الذي ذهب إلى دمشق أيام عبد الملك والذي انتقل بعد موت الوليد إلى «الحميمة» عن طريق الحج الشامي حيث مات وهو مسن جدا عام 118هـ/ 736م. وفي حياته كان ابنه محمد قد طالب بالإمامة بين الشيعة وأورث ابنه إبراهيم الحق بالمطالبة بها، كما رأينا سابقا، ثم صار الأمر لأبي العباس. وتقول الروايات أن أبا جعفر كان أسن من أخيه أبي العباس ولكنه تنازل عن حقوقه. وحتى ذلك الوقت كان مروان محمد يدافع عن كيانه الخلافي، كما أن ابن هبيرة لم يكن قد استسلم، وكان

1 ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص45.

لابد للعباسيين من القضاء عليهما. وكان الخليفة لايشعر بقوته تمامًا في الكوفة، في ذلك الحين، فإنه انتقل إلى معسكر الخراسانيين «بحمام أعين» مع أبي سلمة، وأقام بينهما سترا وحاجبا (بمعنى بدء النظم في الدولة الجديدة بالوزير والحاجب). ولكنه انفصل بعد فترة قليلة عن أبي سلمة وذهب إلى الحيرة فنزل «الهاشمية». وبعد قليل تخلص من أبي سلمة بيدي رجل من أتباع أبي مسلم[1].

نقل الخلفاء العباسيون العظام المركز الإسلامي السياسي نحو المشرق الإسلامي كما يعتبر خطوة مهمة بالنسبة للتغييرات الحضارية في تاريخ العالم الإسلامي، ويعتبر انتصار العباسيين من حيث المبدأ من الأمور ذات الصبغة الدينية، فالاضطهاد الذي لا يعرف الرحمة والذي قاموا به كان ثأرًا لمقتل حفدة النبي ﷺ، وسيعرف الإسلام عصرا من عصور النهضة على عهد هؤلاء الخلفاء الذين ينتسبون إلى السلالة الهاشمية. وإلا أن ارتقاء العباسيين لعرش الخلافة سيأتي بشيء أهم من انتصار مبدأ الأحقية في العرش وهو الأمر الذي كان مبهمًا على كل حال فالخلافة التي كانت قد خرجت من جزيرة العرب لن تعود إليها، إذ ستنتقل إلى الأمصار من الشام إلى العراق ومن العراق إلى مصر، كما أن سيادة الإسلام لن تضيع من أهل الشام فقط بل من أيدي العرب جميعًا. والحقيقة أن العراق يظهر على نفس المسافة مثل الشام وذلك بالنسبة لمكة. ولكن بينما كان الشام يكون جزء من قلب العالم العربي كان العراق طرفًا من أطرافه، هذا إلى جانب أن العراق لم يصبح مركزا للدولة فحسب وإنما خراسان، لأن المشارقة هم الذين تحملوا عبء الصراع، وأن العرب هم الذين انهزموا. وبذلك انتهت الدولة العربية التي أنشأها معاوية وقاومها خلفاؤه. وأخلص أبناء المشرق الإسلامي لأمر

---

1 - د. سعد زغلول - نفس المرجع ص45.

العباسيين وتلقوا المكافأة جزاء لذلك، إذ وقع على عاتقهم إدارة الدولة التي عاونوا في إقامتها. ولم تستخدم الدولة هؤلاء في الجيش فقط وديوان الجند بل وجد العباسيون بين أبناء المشرق الإسلامي أحسن العمال لحكومتهم. ولا شك في أنه كان قد حدث شيء مثل هذا عندما بدأ في إقامة الدولة الأموية. فالشاميون من أهل الذمة الذين كانوا يمدون الدواوين بالموظفين على أيام خلفاء الأمويين، كانوا رعايا من الدرجة الثانية حتى أنهم كانوا يستخدمون اللغة اليونانية في دواوينهم فهم لم يكونوا بأكثر من معاونين للخلفاء. أما سكان المشرق الإسلامي هنا فقد أراقوا دماؤهم من أجل انتصار العباسيين كما أنهم أقبلوا بشغف على تعلم اللغة العربية(1).

فكانوا شركاء فعلا في ممارسة مهما الحكم. وعند هذا الطريق عملتا لتقاليد الفارسية، وكذلك ما كان قد تبقى في البلاد من تراث الساسانيين على أن تجعل من الخلافة العباسية وريثة للملوك آل ساسان ومن الدولة العربية ما يسميه الأوروبيون بملكية شرقية. هذا ولو أن أبناء المشرق الإسلامي لن يحلوا محل العرب في كل شيء إذ سيظل بعض العرب يحتلون مراكز مهمة بين القواد والموظفين وكان لهم في القبائل الحجازية واليمانية سند قوي. كذلك احتفظت اللغة العربية بمكانتها التي لاتنازع بصفتها اللغة الرسمية للدولة الجديدة كما صارت لغة الثقافة والدين والعلم والتجارة. عمرت الدولة الجديدة خمسة قرون انتهت بسقوط العاصمة بغداد بين أيدي تتار هولاكو عام 656هـ/ 1258م. والقرن الأول منها هو عصر الخلفاء العظام (إلى عهد المعتصم 833 ـ 842م ثامن الخلفاء وربما حتى خلافة المتوكل 847م وهو العاشر). هذا ولو أن بعض المؤرخين (مولار) يحدد فترة عظمة العباسيين بعهد المنصور والبرامكة فقط (أي الرشيد 786 ـ 809م) إلا أن هذا يعتبر تحديدا

1 ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص50.

ضيقا. وبعد الخلفاء العظام أتت خلفاؤهم ممن هم أقل منهم حظًا، وتلى هؤلاء أشباح من الخلفاء الذين كانوا يظهرون على مسرح الأحداث خلال جزء من القرن الـ10 والـ11. تميز عصر هؤلاء بالحروب والدسائس والحفلات والتبذير والثورات غير المتقطعة، والاغتيالات الجنة والتدبير، كما عرف ذلك العصر البؤس المملوكي والشعبي[1].

أبو العباس السفاح 132 - 136هـ الموافق 750 - 754م:

أول هؤلاء الحكام، كما رأينا هو أبو العباس عبد الله الذي لم يتمتع إلا بملك قصير الأجل 132 ـ 136هـ/ 750 ـ 754م، والذي لا يعرف في التاريخ إلا بلقب «السفاح» ومن الطبيعي ألا يشتهر أول العباسيين إلا بهذا الاسم والخلافة العباسية كانت في مبدأ أمرها: فالبلاد مضطربة والنفوس ثائرة، والهدوء لم يستقر بعد، وهناك عظماء الرجال ممن مهدوا لقيام الأسرة الجديدة من كبار الدعاة والقواد، وعلى عاتق هؤلاء كانت تقع معظم المسئوليات، وإلى هؤلاء يرجع الفضل في اعتلاء السفاح العرش. وعرف السفاح هذا الموقف ـ وربما كان ذلك بمساعدة أخيه أبي جعفر ـ وعمل منذ البداية على إقامة التوازن بين الأسرة المالكة وكبار أتباعها وموظفيها من مدنيين وعسكريين، فرسم سياسة اشراك أفراد الأسرة في الحكم والإدارة والقيادة، وذلك عندما عهد إلى إخوته وأعمامه وأبناء عمومته بالقيادات العسكرية وولايات الأقاليم، كما رسم سياسة التخلص من كبار الأتباع ممن يخشى بأسهم أو يستشعر خطرهم. بدأت هذه السياسة بجعل أخيه أبي جعفر قائد الجيش ثم الحسن بن قحطبة ثم العهد إلى عمه عبد الله بن علي بقيادة الجيش الذي هزم مروان بن محمد على نهر الزاب ثم العهد إلى عمه صالح بن علي بمتابعة مروان في فراره نحو مصر والقضاء عليه في الفيوم. ومن ذلك الوقت

1 ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص51.

بدأ شروعه في التخلص من أبي مسلم (أمير آل محمد) كما سبق أن تخلص من أبي سلمة الخلال (وزير آل محمد)[1].

وولد أبو العباس عام (100هـ = 718م) تقريبًا وبويع في «الكوفة» في شهر ربيع الأول عام 132هـ = 749م). واستمر في الحكم أربع سنوات استطاع خلالها توطيد أركان الخلافة العباسية، والقضاء على كل مقاومة ظهرت في عهده. مما لا شك فيه أن هناك بعض التجاوزات التي حدثت في إقليم «الشام» على يد الوالي العباسي «عبدالله بن علي»، عم الخليفة «أبي العباس»؛ حيث تعقب الأمويين في كل مكان وقتل كثيرًا منهم، مما دفع بعضهم إلى الفرار إلى مناطق بعيدة، كما فعل «عبدالرحمن بن معاوية» - صقر قريش - الذي فر إلى «المغرب» ومنها إلى «الأندلس»؛ حيث أسس دولة الأموية هناك عام (138هـ = 755م)، كما حاول بعضهم الآخرين التخفي وطلب العفو. ومن ناحية أخرى، لم يقف أنصار الأمويين وأعوانهم مكتوفي الأيدي أمام انتصارات العباسيين، وما ارتكبه بعض ولاتهم من مذابح تجاه البيت الأموي، فقاموا بعدة ثورات في أماكن متفرقة، إحداها بالبلقاء و«حوران» عام (132هـ = 749م)، وأخرى في «قنسرين»، وثالثة في «دمشق»، لكن قوات العباسيين استطاعت الانتصار عليها والسيطرة على الموقف. واجهت «الدولة العباسية» قبل إعلانها وفي بداية قيامها انحراف بعض المسئولين فيها، ولم تكن الظروف السياسية التي صاحبت قيام «الدولة العباسية» تسمح بالتخلص من هؤلاء، فلما بويع «أبو العباس» بالخلافة وبدأت الدولة تأخذ طريقها إلى الاستقرار، وكان أول من عوقب «أبا سلمة الخلال» بسبب عدم تحمسه كثيرًا لانتقال أفراد البيت العباسي من «الحميمة» إلى «الكوفة»، ولم يأذن لهم بدخول «الكوفة» إلا بعد فترة، وحاول نقل

---

1 - د. سعد زغلول - الدولة العباسية - ص52.

الخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي إلا أنه فشل في ذلك، كما حاول قتل «أبي العباس» وفشل في ذلك أيضًا، فلما استقرت أمور الدولة استقر رأي أفراد البيت العباسي على أخذ رأي «أبي مسلم الخراساني»، الذي وافق على التخلص منه، فتم اغتياله وأعلنت القيادة العباسية أن جماعة من أعداء الدولة هم الذين نفذوا هذه المؤامرة. كما قام «أبو مسلم الخراساني» والي إقليم «خراسان» بالتخلص من أحد كبار الدعاة وهو «سليمان بن كثير»، الذي كان يعرف بنقيب النقباء، عقب اتهامه بالاتصال بأحد أبناء البيت العلوي وتحريضه على الثورة ضد البيت العباسي. وتوفي الخليفة العباسي الأول «أبو العباس» بالأنبار في (13 من ذي الحجة عام 136هـ = 9 يونيو 745م)، وعمره نحو ست وثلاثين سنة.

أبو جعفر المنصور (136 - 158هـ = 753 - 775م):

هو «عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب الهاشمي»، وكنيته «أبو جعفر» ولد عام (95هـ = 714م) في قرية «الحميمة» بالشام، وتربى وسط كبار الرجال من «بني هاشم»، فنشأ فصيحًا عالمًا بسير الملوك والأمراء، ودرس النحو والتاريخ والأدب شعرًا ونثرًا وغير ذلك، كما كان كثير الأسفار. ولما تولى أخوه «أبو العباس» الخلافة استعان به في محاربة أعدائه وتصريف أمور الدولة، وكان ينوب عنه في الحج، كما أوصى «أبو العباس» قبيل وفاته مباشرة بولاية العهد لأخيه «أبي جعفر» الذي كان غائبًا في موسم الحج، فلما توفي «أبو العباس» قام ابن أخيه «عيسى بن موسى» بأخذ البيعة لأبي جعفر من «بني هاشم» وغيرهم، وأرسل إلى عمه «أبي جعفر» بوفاة أخيه ومبايعته بالخلافة. ولما وصل «أبو جعفر» إلى «الأنبار» استكمل أخذ البيعة من القادة والرؤساء، ثم خطب فيهم مبينًا سياسته في إدارة الدولة في النقاط الآتية:

1 ـ زهده في منصب الخلافة، وأنه لم يكن يتطلع إلى ذلك أو يرغب فيه.

2 ـ تعهده بتنفيذ ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

3 ـ تعهده بإقرار العدل ورفع الظلم عن الناس، وإرجاع الحقوق إلى أصحابها.

يعد «أبو جعفر المنصور» المؤسس الحقيقي للدولة العباسية، وقد واجه بحزم واقتدار العديد من المشاكل والثورات حتى نجح في السيطرة عليها والقضاء على القائمين بها، منها: ثورة عمه «عبدالله بن علي»، وتمرد «أبي مسلم الخراساني»، وثورة «محمد النفس الزكية» وثورات الفرس، وحركات الخوارج. توفي «المنصور» في 6 من ذي الحجة عام 158هـ الموافق 7 من أكتوبر 775م، وهو في طريقه إلى الحج. بعد أن كان قد عهد لابنه المهدي ـ الذي كان قد كبر ـ بولاية العهد بدلا من عيسى بن موسى الذي كان السفاح قد عينه. ولم يتم تنازل عيسى عن حقوقه إلا بعد ضغط شديد استعمل فيه المنصور أساليب شاذة حتى اضطر عيسى أن يحل الناس من البيعة له عام 147هـ/ 764م. وأصبح يلي المهدي في ولاية العهد بعد أن أرغم على التنازل، وحلف على ذلك فقال: ها أنا أشهدك أن نسائي طوالق ومماليكي وما أملك في سبيل الله تصرف ذلك فيمن رأيت يا أمير المؤمنين «ولقد تندر الناس بذلك، فقالوا: ذلك الذي كان غدا فأصبح بعد غد». وعن شخصية المنصور وتقديرها فيمكن تلخيص ذلك في أنه كان دائم النشاط مهتما بمنصبه كصاحب الأمر، يزاول مهنة الحكم بذكاء ومقدرة، وكان غادر مخادع، عنيف بخيل، ناكر للجميل. مات المنصور بالقرب من مكة واختلف بتأبينه وأخذ البيعة (بيعة الخاصة) للمهدي هناك. وتوجد تفصيلات لها دلالتها: منها أن ابن المهدي وهو موسى الهادي فيما بعد، هو الذي أخذ البيعة. ومعنى هذا تأييد فكرة

الوراثة من الأب إلى الابن، إذ كـان من الحاضـرين وقـتـئـذ بعض عمـومتـه (القاسم بن المنصـور) بل وولي العهد التالي عيـسى بن موسى الذى لم يكن راضيًا عن تنازله عن ولاية العهد، والذى كان مترددًا فى البيعة، ثم أنه طلب من أحد العلويين (وهو الحسن بن زيد) أن يكون أول المبايـعين، وهذا احتياط أيضـا لإعطاء البيعة صفة أكثر شرعية وقانونية[1].

وقد أشار «ابن الأثير» في كتابه «الكامل فى التاريخ» إلى:

أن «المنصور» كان يجعل نهاره لتصـريف أمور الدولة، فإذا صلى العصر جلس مع أهل بيته، فـإذا صلى العشاء جلس ينظر فيمـا ورد إليه من رسائل البلاد، حتى يمضى ثلث الليل الأول فينام، ثم يقوم فى الثلث الأخير فيتوضأ ويصلى حتى يطـلع الفجر، فـيصلى بالناس، ثم يجلس فى ديوانه لتـصريف أمور البلاد وهكذا يقضى وقته.

الخليفة الثالث: محمد المهدي (158 ـ 169هـ = 775 ـ 785م):

هو «محـمـد بن عـبدالله بن محـمـد» ولد «بالحـميـمـة» عام (126هـ = 743م)، وقد هيـأه والده «المنصور» وأعـده ليكون جديرًا بمنصب الخـلافة من بعده، فنشأ على ثقافة عربـية واسعة، ودراية بفنون الحرب وأساليب الإدارة. وقد أوصى «المنصور» ابنه وولى عـهده «محمدًا» وصـية جامعة، قـبـل وفاته تضمنت:

1 ـ التمسك بأن تظل «بغداد» عاصمة للخلافة.

2 ـ الاهتمام بأهل بـيته وحاشـيته وأهل «خراسان» لـدورهم فى قيام الدولة.

3 ـ تقوى الله وإبعاد النساء عن السياسة.

---

1 ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع السابق.

4 ـ تجنب إهدار دماء المسلمين، ومعاقبة المفسدين والملحدين وتتبعهم.

5 ـ الاستعداد المستمر بالقوة والسلاح، وأن يباشرالأمور بنفسه.

وصل خبر وفاة المنصور إلى المهدي ببغداد يوم 14 ذي الحجة كما أرسلت إليه إشارات الملك من البردة والقضيب وخاتم الخلافة، وتمت له بيعة أهل بغداد (بيعة العامة). وبذلك ورث المهدى تلك الإمبراطورية العظيمة بمزاياها ومشاكلها: فمشكلة وراثة العرش كما رأيناها على عهد المنصور ستظل قائمة: فعيسى بن موسى مازال ولي العهد التالي، كما أن العلويين لم يرجعوا عن المطالبة بأحقيتهم العرش رغم خضوعهم للأمر الواقع والخوارج يثيرون الاضطراب ما بين الحين والحين وفي جهات متفرقة، هذا واستمرت الحركات المذهبية الثورية تظهر في خراسان مما سيكون له تأثير كبير على عهد المهدي.

تسلم محمد المهدي الخلافة العباسية بعد وفاة والده المنصور وقد مل الناس سياسة الأخير المبالغة في الاقتصاد والتقتير إلى جانب الحروب المتواصلة في الداخل والخارج. فجاءت سياسة المهدى لتلبي رغبة الناس بالاستمتاع بقدر من الترفيه والراحة والتغيير، إذ كان سخيًا كريمًا فرق الأموال التي اكتنزها أبوه ـ على الناس، فأحسوا بالمال يجري بين أيديهم، الأمر الذي جعلهم يقارنون بين الوضع الذي كانوا عليه في عهد المنصور، وبين ما صاروا عليه في عهد المهدي. وعرف عن المهدي حبه لحديث النساء حتى صار للجواري نفوذ كبير في شؤون الدولة، وخير مثل على ذلك محاربة المغربية خيزران التي تزوجها المهدي وأنجب منها موسى الهادي وهارون الرشيد، والتي كان قصرها مقصداً لذوي الحاجات في الدولة. وأحب المهدي الاستماع إلى الغناء، وحضور جلسات الغناء التي أجزل فيها العطاء للمغنين والسماح لأصحابه بشرب النبيذ في حضرته، حتى أنه لم يستطع بعد ذلك أن يوقفهم

عند حد معين، فاندفعوا في تلك الحياة لا يلوون على شيء، مما أعطى الحياة الاجتماعية - وخاصة في بغداد - طابعًا جديدًا وثمة ظاهرة جديدة ظهرت في انطواء القبائل العربية على نفسها وضعف نفوذها، أمام تيار الموالي وضغطهم، فأخذت العادات وأساليب الحياة الشرقية تزحف على المجتمع لتحل محل عادات العرب وأساليبهم في الحياة[1].

اختلفت سياسة «المهدي» عمن سبقه، فاتسم عهده بالاستقرار والهدوء والتسامح والصفح، فأطلق سراح المسجونين السياسيين، واهتم بإقرار العدل بين الناس، وجلس للنظر في مظالم الناس مستعينًا بالقضاة، وأمر بالإنفاق على مرضى الجذام؛ حتى لا يختلطوا بالناس فتصيبهم العدوى، كما اهتم اهتمامًا خاصة بالحرمين الشريفين وبكسوة «الكعبة». وقد عفا «المهدي» عن بعض آل البيت ومنحهم الأموال والإقطاعات، وحينما أدى فريضة الحج عام (160هـ = 777م) وزع أموالا كثيرة على أهل «مكة» و«المدينة» وأصدر عفوا عامًا عمن عاقبهم «المنصور» من أهل «الحجاز» لمشاركتهم في الثورة العلوية، واختار خمسمائة من رجال الأنصار وكون منهم حرسه الخاص، كما قام ببث العيون والجواسيس بالبلاد لرصد أي تحرك معاد للدولة. ورغم ذلك فقد حاول بعض العلويين مثل «عيسى بن زيد بن علي» و«علي بن العباس بن الحسن» القيام بثورة ضد النظام العباسي، لكنها لم تنجح؛ حيث عاجلهما الموت.

أما عن مسألة وراثة الحكم فإنها حلت بنفس الطريقة التي حلت بها على عهد المنصور (بتغليب مبدأ الوراثة) وذلك أن عيسى بن موسى مر بنفس المحنة فضغط عليه المهدي وأتباعه ولحقت به الإهانات والاضطهاد. وبعد التهديد ومحاولات الإقناع عن طريق الفقهاء والقضاة، خلع نفسه في أوائل

---

1 - إبراهيم أيوب - التاريخ العباسي السياسي والحضاري - ص15.

عام 160هـ/ نوفمبر 776م وجدد بيعة المهدى كما بايع ابنه موسى (الهادى) وكان له ما أراد في مقابل عشرين ألف دينار وقطائع كثيرة أخذها عيسى ثم بايع في عام 166هـ الموافق 782م بولاية العهد لهارون الرشيد بعد الهادى. وأخيرا مات عيسى بن موسى بالكوفة عام 167هـ (قبل المهدى بقليل محرم 169هـ)، وأشهد قاضى المدينة بذلك. اتخذ المهدى الزندقة ذريعة للفتك بالأبرياء. فقد كفانا الجهشيارى مؤونة الحديث عنه؛ حيث قال: إنه في زمن المهدي هذا: «كان أهل الخراج يعذبون بصنوف من العذاب، من السباع، والزنابير والسنانير..» وقد خرج عليه يوسف البرم بخراسان، منكراً عليه أحواله، وسيرته، وما يتعاطاه.

واجه «المهدى» عدة ثورات من الخوارج وقضى عليها بحزمه وسرعة مواجهته، منها:

1 ـ ثورة «يوسف بن إبراهيم البرم» فى «خراسان» عام (160هـ=777م).

2 ـ حركة «عبد السلام بن هاشم اليشكري» فى «قنسرين» عام (160هـ = 777م).

3 ـ حركة الخوارج بالموصل بزعامة «ياسين الموصلى» عام (168هـ = 784م).

ترك «المنصور» بعد وفاته في بيت المال أربعة عشر مليون ديناراً وستمائة مليون درهم، قام «المهدى» بتوزيعها على الناس؛ فشاع بينهم الترف والنعيم واللهو واللعب، كما اتجه الناس فى حبه للآداب والفنون؛ فارتقت الآداب والفنون، وسادت بين طبقات الشعب. وكان «المهدى» أول خليفة يحمل إليه الثلج إلى «مكة» فى الحج، كما كان مترفًا فى ملبسه ومأكله. توفى «المهدى» عام (169هـ = 785م) وعمره ثلاث وأربعون سنة، وقد قضى فى الحكم إحدى عشرة سنة.

الخليفة الرابع: موسى الهادى (169 ـ 170هـ = 785 ـ 786م):

هو «موسى» ابن الخليفة «المهدى»، تولى الخلافة فى (22 من المحرم عام 169هـ = 5 من أغسطس 785م).

كان موسى الهادى بجرجان يوم أن مات المهدى فبويع له فى نفس اليوم وأرسلت إليه شارات الملك مع صاحب البريد. وعاد الرشيد ـ الذى كان مع المهدى ـ إلى بغداد حيث أخذ البيعة العامة للهادى الذى عاد بسرعة من جرجان (ركب على البريد مجدا فبلغ بغداد فى 20 يومًا) ولن تطول خلافة الهادى أكثر من 15 شهرا)، شغلت مسألة ولاية العهد بوجه خاص.

وتولى موسى الهادى الخلافة بعد وفاة أبيه محمد المهدى عام 169هـ/ 785م لكنه لم يعش طويلا، إذ توفى فى ربيع الأول عام 170هـ/ 786م، فدامت خلافته مدة سنة وشهرين تقريبًا. وكان كوالده محبًّا للهو والغناء، فقرب إليه المغنى الشهير إبراهيم الموصلى العراقى وابنه إسحاق الموصلى. الذى نال خمسين ألف دينار من الخليفة لقاء ثلاثة أبيات لهذا قال إبراهيم: «والله لو عاش لنا الهادى لبنينا حيطان دورنا بالذهب». هذا فضلا عن حبه للشراب ومجالسه، كما كان الهادى يميل إلى سماع الأدب والتاريخ. ومن ذلك مثلا مجالسته للمؤرخ الحجازى عيسى بن دأب الذى كان يحدثه عن أخبار البلاد الإسلامية وأخبار الأمم والشعوب. وكانت شخصية الهادى موصوفة بالشراسة والغلظة ورباطة الجأش، إذ يروى عنه أن أحد الخوارج اقترب منه ليقتله وهو بمفرده، فلم يتحرك إلى أن اقترب منه الخارجى، فصاح الهادى «اقتلاه»، فظن الخارجى أن وراءه أحد من الحراس، فالتفت وراءه، عندها هجم الخليفة عليه وانتزع سيفه وقتله.

ولم يختلف موقف الهادى عن موقف أبيه مع الزنادقة. فأخذ يطاردهم، وينكل بهم، ومع هذا الاضطهاد، وما تعرضوا له من تنكيل

وملاحقة لم يستطع أن يضع حدًا لنشاطهم. وتبقى مشكلة ثالثة اعتبرها الهادى سيئة بحق خلافته، ألا وهى تدخل أمه الخيزران في شؤون الإدارة إلى حد أن الناس وقفوا بباب قصرها جماعات بقصد قضاء حوائجهم لأن كلمتها صارت مسموعة بسبب النفوذ الذى تمتعت به منذ أيام زوجها المهدي وامتد هذا النفوذ إلى عهد الهادى، إذ سيطرت على أموره واستبدت بالأمر والنهى. لذا أرسل إلى أمه. «ألا تخرجي من خفر الكفاية إلى بذاءة التبذل، فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض في أمر الملك وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتلك». ثم قال لها: «تستوعبى كلامى والله وإلا فأنا أنفى قرابتى من رسول الله، لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى أو أحد من خاصتى أو من خدمى لأضربن عنقه ولأقبضن ماله، فمن شاء فليلزم ذلك، ما هذه المواكب التى تغدو وتروح إلى بابك فى كل يوم؟ أمالك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك؟» إياك وإياك. فانصرفت وهى لا تعقل فقد كانت تستبعد بالأمور به من الهادى وتسلك مسلك المهدى حتى مضى الناس إلى بابها.

وأحس الهادى بخطر أخيه هارون الذى كانت تؤيده أمه خيزران وهذه كانت تتدخل في شؤون الدولة فحاول حمل الرشيد على التنازل والحد من نفوذ خيزران. والظاهر أن الرشيد كان مستعدا للتنازل عن ولاية العهد لابن أخيه جعفر، وربما تم ذلك لولا صغر ابن الهادى ونصح يحيى بن خالد بن برمك، الذى كان يتولى أمور الرشيد لمخدومه بعدم الاستجابة لرغبة أخيه الخليفة. وعرف الهادى تأثير يحيى على الرشيد، فهدده ورماه بالكفر. ولكن البرمكى تمكن من إقناع الهادى بترك هذه المسألة مؤقتًا على الأقل، مؤملا إياه بأن الظروف كفيلة بحلها فيما بعد. وذلك أنه طلب إليه ألا يحمل الناس على نكث الإيمان حتى لاتهود عليهم، كما لفت نظره إلى أن جعفر لم يزل صغيرا، وسأله كيف يرضى به الناس لصلاتهم وحجهم وغزوهم. ثم أنه رغبه فى أن يكون ابنه ولى العهد التالى.

فأخذ يماطل ويتهرب من أخيه. ولما علم الهادي بما فعله يحيى البرامكي أمر بإلقاء القبض عليه تمهيدًا لقتله. لكن المنية عاجلت الخليفة الهادي قبل أن يحقق غرضه، فتوفي وله من العمر 26 سنة وقد ذهب على حد قول أبليايف ضحية المؤامرات والدسائس التي كانت تحاك في البلاط من قبل مختلف الفئات في الحاشية بدافع المنافسة.

اتصف الخليفة «الهادي» بالغيرة والشهامة والجرأة، ورفض تدخل أمه «الخيزران» في سياسة الدول كما كانت تفعل في عهد والده «المهدي».

فقد كان الهادي «يتناول المسكر، ويحب اللهو والطرب، وكان ذا ظلم وجبروت» وكان «سيء الأخلاق، قاسي القلب، جبارًا، يتناول المسكر، ويلعب.» وقد قال عنه الجاحظ: «كان الهادي شرس الأخلاق، صعب المرام، سيء الظن. قل من توقاه، وعرف أخلاقه إلا أغناه، وما كان شيء أبغض إليه من ابتدائه بسؤال. وكان يأمر للمغني بالمال الوفير الجزيل..» وقال الجهشياري: «كان فظًا قاسيا، غير مأمون على وفاء بوعد» نعم . لقد كان يأمر للمغنى بالمال الجزيل الوفير – من بيت مال المسلمين – كما يقول الجاحظ. وقد بلغ من إسرافه في إجازة الخلعاء والمغنين، أن دفع إسحاق الموصلي لأن يقول: «لو عاش لنا الهادي لبنينا حيطان دورنا بالذهب والفضة»[1].

توفي «الهادي» ليلة الجمعة، نصف ربيع الأول عام (170هـ = نصف أغسطس 786م) وبذلك تكون مدة خلافته سنة وشهرا واثنين وعشرين يومًا.

1 ـ د. إبراهيم أيوب ـ المرجع السابق ص74 وانظر ـ البغدادي ـ تاريخ بغداد 6/14 والطبري 268/8.

الخليفة الخامس: هارون الرشيد (170 - 193هـ = 786 - 809م)

هو «هارون بن محمد المهدى»، ولد «بالرى» فى آخر ذى الحجة عام (145هـ = فبراير 763م)، وتولى الخلافة وعمره اثنان وعشرون عامًا. ويعد «الرشيد» أشهر خلفاء العباسيين وأبعدهم صيتًا، فقد ملأت أخباره كتب التاريخ شرقًا وغربًا.

ويمثل عصر الرشيد عصر نقلة فى المجتمع العباسى من وجهة الإسراف فى الترف، ساعد على ذلك استقرار الأمور فى الدولة إلى جانب دخل الدولة الضخم حتى بلغ فى عهد الرشيد أكثر من سبعين مليون دينار. وتشير المصادر التاريخية إلى وصف الرشيد بالتدين الشديد والمحافظة على التقاليد الشرعية. فقد كان يصلى فى كل يوم مائة ركعة ويتصدق بألف درهم من ماله بالإضافة إلى ما يجود به على الناس. كما أنه لا يتخلف عن الحج سنويًا إلا إذا كان مشغولا بالجهاد، حتى قيل: كان يحج عامًا ويغزو عامًا، وكان إذا حج، حج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أحج عنه ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة. وإذا علمنا أنه عاش جنديًا قبل خلافته، وأنه قاد فى أكثر من غزوة لبلاد البيزنطيين، وحقق انتصارات باهرة جعلته معروفًا من الناس، ومحبوبًا منهم ومع هذا فإنه لم يخرج عن روح العصر الذى عاش فيه والجو الذى أحاط به. فاشتهر الرشيد بأنه كان يشرب النبيذ وأنه كان يسمع الغناء فى مجالس اللهو والطرب ويجزل العطاء عليه، لذلك قرب إليه إبراهيم الموصلى، كما جمعت مجالسه العلماء والقضاة. «فقد كان يحب الفقه والفقهاء ويميل إلى العلماء، ويحب الشعر والشعراء ويعظم فى صدره الأدب والأدباء».

والغريب فى هذا الأمر أن الرشيد لم يستفد من دروس الماضى، ولم يحسم هذه المسألة فأشرك ابنيه معه فى الحكم، وعهد إليهما بوراثة الخلافة

بعده، ولم يجنبهما ما سينجم من نزاع طبيعي بينهما من أجل السلطان، مع أنه هو نفسه كاد أن يروح ضحية مثل هذا النزاع مع أخيه الهادى. لاحظ ذلك ابن الأثير الذى يقول: «وهذا من العجائب فإن الرشيد قد رأى ما صنع أبوه وجده المنصور بعيسى بن موسى حتى خلع نفسه من ولاية العهد، وما صنع أخوه الهادى ليخلع نفسه من العهد، فلو لم يعاجله الموت لخلعه، ثم هو يبايع للمأمون بعد الأمين وحبك الشيء يعمى ويصم».

كان الصراع بين الحزب العربى والحزب الخراسانى على أشده فى أيام الرشيد وهذا الصراع استمرار للأوضاع التى كانت سائدة فى أيام الأمويين، عندما جعلوا السيادة للعرب. ولم يساووا بين العرب والموالى، الأمر الذى استاء منه أبناء المشرق الإسلامى وأخذوا يتعصبون لأنفسهم وأصلهم. ولما حاربهم الأمويون لم يسعهم إلا أن جعلوا هذه النزعة دعوة سرية، ثم وجدوا فى الدعوة العباسية ستاراً وحافزاً لهم. لكن العنصر العربى لم يستسلم لسيطرة المشارقة فى ظل الدولة العباسية، لذلك حاولوا أن يجمعوا كلمتهم، ويوحدوا صفوفهم ويصفوا خلافات القبائل العربية بين بعضها. وبالرغم من أن الرشيد أنجب المأمون من جارية فارسية تدعى «مراجل» فى ربيع الأول عام 170هـ/ 786م، وأنجب الأمين من ابنة عمه زبيدة بنت جعفر بعده بأربعة أشهر فى شوال من السنة نفسها 170هـ. فقد رضخ الرشيد لضغط الحزب العربى المتمثل فى زوجته «زبيدة»، وأمه الخيزران التى يعود لها الفضل فى إقناعه بالزواج من ابنة عمه، وإلى حاجبه الفضل بن الربيع، وعهد بولاية عهده من بعده إلى ابنه الأمين 175هـ/ 791م. من جهته، حزب المشرق الإسلامى، وعلى رأسه البرامكة، لم يرضوا بهذا الوضع، فسعوا لدى الرشيد حتى تمكنوا من إقناعه فى جعله يعهد بولاية العهد إلى ولده المأمون بعد الأمين عام 182هـ/ 798م. وعلى أن يتولى المأمون ولاية المشرق بعد وفاة أبيه

وبمعنى آخر تقسيم الخلافة إلى خلافتين. وتكرس هذا التقسيم عام 186هـ/ 802م عندما حج الرشيد ومعه ولداه الأمين والمأمون، بكتابته مواثيق الإخلاص لبعضهما على ولديه. وفي هذه المواثيق أن يترك الأمين للمأمون كل ما عهد إليه من بلاد المشرق، ثغورها، وكورها، وجندها، وخراجها، وبيوت أموالها، وصدقاتها، وعشورها، وبريدها. وقد سجلت هذه المواثيق وعلقت في الكعبة حرصًا على زيادة قدسيتها وقوة تنفيذها، كما كتب منشورًا عامًا بهذا المعنى[1].

وكان «الرشيد» قلد «يحيى البرمكي» منصب الوزارة وفوضه في إدارة شئون البلاد، ومنحه لقب «أمير»؛ فكان أول من لقب بذلك من الوزراء من المشرق الإسلامي في «الدولة العباسية».

اهتم «الرشيد» بإقامة العدل في الناس، فأمر بإعادة الأراضي التي اغتصبها أهل بيته في عهد الخلفاء السابقين إلى أصحابها، ورفع الظلم عن المسجونين ظلمًا، وقسم أموال ذوي القربى بين «بني هاشم» كلهم بالعدل، وأصدر عفوًا عن المعتقلين السياسيين، فأخرج من كان في السجن من العلويين، وسمح لهم بالعودة إلى «المدينة»، ومنحهم الرواتب، كما أجرى «الرشيد» تعديلات واسعة في مناصب الدولة في كل من «مكة» و«المدينة» و«الطائف» و«الكوفة» و«خراسان» و«أرمينية» و«الموصل».

وأثناء سفر «الرشيد» من «بغداد» إلى «خراسان» وهو في طريقه للقضاء على ثورة رافع بن الليث بن نصر بن سيار، اشتد المرض عليه، وتوفي صباح يوم الجمعة (2 من جمادى الآخرة 193هـ = 23 من مارس 809م)، وعمره خمس وأربعون سنة ودفن بمدينة «طوس». وقد حكم «الرشيد» البلاد ثلاثة وعشرين عامًا، بلغت فيها «الدولة العباسية» قمة ازدهارها وأوجها.

---

1 - جعفر مرتضى العاملي - المرجع السابق ص118 وانظر السيوطي ص279 والأغاني 163/5.

الخليفة السادس: محمد الأمين (193 - 198هـ = 809 - 813م):

هو «محمد بن هارون الرشيد»، ولد بالرصافة وأمه «زبيدة» ابنه «جعفر الأكبر بن المنصــور»، تولى الخلافة عقب وفـاة أبيه «هارون الرشيد» باعـتباره ولى عهده، وكان عمره حينئذ ثمانية وعشرين عامًا. تشير مصادر التاريخ إلى أن بداية الخلاف كانت من جانب «الأمين»، حـين خالف أمر والده «الرشيد» في مرضه، بأن يكون ما في معسكره من أموال ومتاع وجند لأخيه «المأمون»، في «مرو»؛ مما أحدث أثرًا سيئًا في نفس «المأمون». وكانت الخطوة التالية قيام «الأمين» بتعـيين ابنه «موسى» وليا للعهـد بدلا من أخويه «المأمون» و«المؤتمن» فقـام «المأمون» بـإسقاط اسم «الأمـين» من الطرز والسكة، ومنع البـريد من الوصول بأخبار «خراسان».

وكـان البـرامكة يمـثلون أحـد أقطاب هذا الصـراع، تلاهم بعـد ذلك وبشكل واضح الفضل بن سهل المؤيد للمأمـون (الاتجاه المشرقي)، أما الفضل بن الربيع - وهو مولى - فـكان مؤيدا لأمين (الاتجاه الـعربي). وهكذا تشكل الاتجاهان: حزب العبـاسيين ذوى العلاقة المشرقـية لهم، مع الأمين، وحزب الخراسانـيين ذوى العلاقة العلوية مع المأمون. كان القرار الذى اتخـذه الرشيد بتعـيين ابنيه على ولاية العـهد بالتتـالى (الأمين ثم المأمون)، وتقـسيم الدولة بينهمـا، قد وضع بذور الشـقاق والانقسام بين الأخوين وبين العـصبيـتين. ونعتقد أن الرشيد كان يتـوقع صراعًا وشيكًا بين الأخوين، ولكن إجراءاته لم تؤد إلى ما كـان يتوقعه من اسـتتباب الأمن وانصـراف كل منهما إلى تسـيير شؤون الجـزء الموكولة له إدارته ويبدو أن الكفـة كانت راجحة لصـالح المأمون (فقد كان أخوه الأمين أفسده الدلال وأصابه الغرور وأبطره الغنى وخانه أتباعه الذين لم يحـسن اختيـارهم، والمخلصون منهم كانوا عاجـزين، ولا يوازون بأنصـار أخيـه المأمون. إذ لم يفـده اعتـقاده بأنه مـتمـيز من حـيث إن أبويه

هاشميان عباسيان، ولم يجن من ذلك شيئًا كبيرًا. إلا نقمة الناس لاستهتاره وخروجه عن التزامه بالعهود بمساعدة الفضل بن الربيع، واستفحال الفوضى في عهده، فقد قال الشاعر معبرًا عن وضع الخلافة:

أضاع الخلافة غش الوزير وفسق الإمام وجهل المشير

فهذا يدوس وهذا يدار كذاك لعمري اختلاف الأمور

أما المأمون فكان أنصاره وشيعته أكثر فائدة له من أقربائه الذين خذلوه. وإذا أضفنا إلى ذلك أن المشرقيين اعتبروا الصراع صراعهم فالتفوا حول المأمون، في حين لم يفعل العرب نفس الشيء، أمكننا أن نتنبأ بنتيجة الصراع الحتمية، أي إبعاد الأمين والقضاء عليه وانتصار المأمون. ومن بين تحديات الأمين الصارخة التي صعدت الخلاف بينه وبين المأمون[1]:

1) طلب الأمين من المأمون أن يتنازل له عن جزء من خراسان أي عن الجزء الذي عهد به الرشيد للمأمون رغم تعهد الأمين على ذلك خطيًا.

2) طلب الأمين من أخيه أن يبايع لموسى بن الأمين قبله. رغم أن الأمين تعهد بولاية العهد بعده لأخيه، والتزم بذلك أمام الرشيد. وكان الأمين يحاول إضفاء صفة الشرعية على حكمه، والتقرب من أهل خراسان ـ شيعة المأمون ـ مريدا أن يبين لهم أن خلافه مع أخيه قضية عائلية خاصة يجب أن لا تمس العامة، بل يرى أن من واجبه رفع الجور عن الرعية والتخفيف من أعباء الخراج عليها. ذلك ما نلاحظه من خلال وصيته لقائده الموجه للقبض على المأمون، (امنع جندك من العبث بالرعية والغارة على أهل القرى وقطع الشجر وانتهاك النساء. ومن خرج إليك من جند أهل خراسان ووجوهها فاظهر إكرامه وأحسن جائزته، ولا تعاقب أخا بأخيه، وضع عن أهل خراسان

---

1 ـ محمد نجيب أبو طالب ـ الصراع الاجتماعي في الدولة العباسية ص56.

ريع الخراج). ولكن المأمون أيضا، كان يحاول إظهـار الأمين بمظهر مغتصب الخلافة وناكث العهود. فكانت حملتـه الدعائية القوية تتجه في ذلك الاتجاه وركز على جد الأمـين وقواده، فأرسل لهم رسائل يذكرهم بالعـهود، ويبين لهم أن أخاه ظالم ومعـتد ممزق للمواثيق، وقد أثرت تلك العـملية في بعض قواد الأمين فأجـابره. تلك الحملات بدأت في مرحلة متأخرة من خـلافهما، أما في البداية فكان الخلاف مستوراً، تعـبر عن ذلك رسائلهما المتبادلة التي لم تظهر فيها صيغ التهديد المباشر والانذار الصريح. ويظهر أن كلا الاتجاهين كانا يبديان مـا لا يضمـانه، فليست دعوة الأمـين للمأمون بـالحضور إليـه بهدف استشارته والاستعانة به، واعتذار المأمون بسـبب مهامه الشاقة وحاجة خراسان إلى حزمـه وإشرافـه، إلا دليلا على تلك المـواربة. إن إجراءات الرشـيد في تعيين الأمين ومحاولة استفـراد الأخير بالخلافة ـ مع ابنه ـ والقضاء على نفوذ المأمون ومن وراءه، لم تكن بالأمر الهين على المجتمع الذي عرف حالة تغلب عليهـا التعايش والتـمازج الحضاري منـذ أيام الأمويين حتى فتـرة العباسـيين الأوائل حينما تـوطد ذلك الاختلاط الاجتمـاعي في القوى الاجتمـاعية التي كانت بعيدة نسبيا عما يجري من صراعات على السلطة.

فقد هذا التوازن دوره في عهد الأمين، فتـأثر بالصراعات السياسية التي بدأت تأخذ بعدا طبـقيًا واضحًا. إذ أدت نفـقات الأمين الخاصة، واستـهتاره بأموال الدولة، فـضلا عن انقطاع جزء كبـير من إيراد الولايات الشرقية التي سـيطر عليـها المأمـون، أدى كل ذلك إلى ظهـور اخـتـلال واضح في البناء الاجتماعي، فازدادت الهوة اتساعًا بين الطبقات الغنية والطبقات الفقيرة، وقد تجلى ذلك في انقسـام العاصمة بغـداد إلى قسمـين متمايزين، أحـدهما ثري بقصـورة ومعالمه والآخر فـقير محطم. وتعـمق ذلك التناقض عند استفـحال الصراع بين شـيعة الأمين وشـيعة المأمون وخـاصة عند تعرض بغداد لحـصار

عنيف، فالمؤرخون اظهروا لنا طبـقة متميزة من فقراء المدينة ومعـدميها الرعاع والشطار والعيـارين. تلك الطبقة اندفـعت تدافع عن حياتهـا وتقاتل دون أن تعرف لصالح من هى تقاتل، لكن المهم بالنسبة لها هو أنها لا تملك عقارًا ولا مالا فوجـدت المجال مناسبًا للثورة والانتـقام، ولكنها ـ كمـا يظهر ـ ساندت تجار بغداد وحرفييـها، فهم فى كلتا الحالتين مصدر رزقها، فـالتجار يعتمدون على هؤلاء الكادحين المعدمين فى خدمات السـوق اليومية، وربما كان مصدر دفاعـهم عن التجار جاء من دفـاعهم عن مدينتـهم بعد استلام جـيش الأمين فقـاوموا ظاهرا قائد جـيش المأمون «فذلت الأجناد وتواكلت عن القـتال، إلا باعة الطريق والعـراة وأهل الـسـجون والأوبـاش والرعـاع والطرارين وأهل السوق، بل ربما قاتل هؤلاء لاعـتقادهم أن الفتنة والفوضى والتـمرد واختلال الأمن يؤدى إلى خروج السجناء وحصول المحـرومين على جزء مما فقدوه من لقمة العيش. وبـاعتراف المؤرخين فإن الفقراء هم الذيـن دافعوا عن بغداد من فـوضى الجند فى الأسـواق، ولعل الموقف الطبـقى الحـاقـد على العـيـارين وأشباهـهم أربك المؤرخين فى نسبة الفـوضى وانتهاب الأسواق إلى العـيارين بدلا من أن ينسبـوها إلى الجند المتقاتلين. على أن ذلك فى حـال حصوله لا يعتبر أمرا سلبيا فى تاريخ الفقراء المـعدمين. فالطبرى وغيره من الذين يسمون التجار ورجال الدولة بـ «أهل الصلاح» و«أهل الستر» يقفون موقفًا أرستقراطيًا يبرر لاتجـاه الأمين، ويظهر تحيـزهم حينما يصـفون موقف حثالة الكادحين وصفا مبالغًا فيه فيقول الطبرى: «ونقب أهل السجون السجون وخرجوا منها، وفتن الناس، ووثب على أهل الصلاح الـدعار والشطار، فعز الفـاجر، وذل المؤمن، واختل الصالح، وساءت حال الناس»[1].

---

1 ـ د. محمـد نجيب أبو طالب ـ نفس المرجع ص158 وانظر: الطبرى ـ التاريخ ـ جـ8 ص 448.

وبعد انهزام الأمين لاحق طاهر أنصاره في ديارهم ونهب جنده الأسواق، يقول الطبري: «وكان محمد أعطى بنقض قصوره ومجالسة الخيزرانية بعد ظفر الغزاة ألفي ألف درهم، فحرقها أصحاب طاهر كلها، وكانت السقوف مذهبة، وقتلوا من الغزاة والمنتهبين بشرا كثيراً. وتظهر لنا حيثيات الصراع بين الطرفين، الموقف الانتهازي الذي اتخذه تجار بغداد إثر هزيمة الأمين، فقد تبرؤوا من قائدهم المهزوم، كما تبرؤوا من الشطار والعيارين الذين دافعوا عن مدينتهم، وهذا الموقف كان طبيعيا لأنه لا يخرج عن الملامح التاريخية لسلوك طبقة التجار. يظهر لنا ذلك من خلال نص رسالتهم في طلب العفو من قائد الجيش المأموني، ومبايعتهم المأمون وتبرئهم من الطبقات الفقيرة التي لا تملك الدور والعقار. ويبدو أن الموقف الرسمي (الأمين) قد استفاد من انتفاضة العيارين وشغبهم في دفاعهم عن العاصمة. ولكن ردة الفعل التي خرجت من بين أعيان المدينة ووجهائها وتجارها تمثلت في تكون جماعات «المطوعة» وهم جماعات من المتطوعين الذين حاولوا تهدئة الأمور وإقرار الأمن متخذين من دعوى «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» شعاراً لحملتهم:

«ثم إنه طاف ببغداد وأسواقها وأرباضها وطرقها، ومنع كل من يخفر ويجبي المارة والمختلفة»، كما يقول أحد المتطوعة: «أنا لا أعيب على السلطان شيئًا ولا أغيره، ولا أقاتله، ولا آمره بشيء ولا أنهاه. ولكن أقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائنا ما كان، سلطانا أو غيره، والحق قائم في الناس أجمعين، فمن بايعني على هذا قبلته، ومن خالفني قاتلته» تلك كانت حركة إصلاحية، ولكنها ظهرت على ما يبدو بعد هروب الأمين، ولعلها لاتختلف كثيراً عن صالح طبقة التجار. وكانت آثار الفتنة وخيمة على بغداد، فقد لحقها الخراب نتيجة لصراع الجيوش وتمرد العامة في الأسواق والدروب.

يذهب أكثر المؤرخين إلى أن الصراع بين الأمين والمأمون صراع بين العرب والمشرقيين، ويقولون إن العرب كانوا إلى جانب الأمين، والمشرقين كانوا إلى جانب المأمون، ويدعون أن الأمر انتهى بتغلب المشارقة على العرب وتمكنهم من الحكم. هذا القول مضعف من جهات مختلفة: وإنه لم يكن الصراع بين العرب والمشارقة، وإنما كان بين حزبين. نعم إننا أيضًا مع المأمون - كما يقولون - عددا من المشارقة كالفضل بن سهل، لكننا نجد أيضا من الأمين الفضل بن الربيع وهو مولى، كان جده عند عثمان بن عفان واسمه أبو فروة كيسان «ابن خلكان 151/2». ونجد مع الأمين أيضا على بن عيسى بن ماهان، وهو مشرقي كما يدل عليه اسمه. وإذا كان إلى جانب المأمون عدد من المشارقة، فإن بين قواده هرثمة بن أعين، واسمه يدل على أنه عربي، هذا والحوادث نفسها تدل على أن العرب لم يكن لهم شأن خاص أكيد بالصراع. والصراع إنما كان بين طائفتين أو حزبين: أحدهما حزب العباسيين الهاشميين مع الأمين، وثانيهما حزب الخراسانيين المشرقيين ذوى العلاقة العلوية مع المأمون. حصل التطاحن بين الحزبين وأدى إلى النزاع بين الأخوين، وانتهت بقتل الأمين، لكنا نجد أنفسنا على خلاف مع ما يقوله بعض المؤرخين. فى رأينا أن النزاع لم ينته بانتصار المشارقة ذوى النزعة العلوية، بل كان النصر الأخير إلى جانب العباسيين الهاشميين الذين خذلوا مع الأمين أولا اى ان الأمر عاد إلى العباسيين أخيرًا عندما افاق المأمون إلى نفسه وإلى مستقبل الخلافة، وصحح الأوضاع، وعاد يتألف العباسيين، وأعاد مركز عمله إلى بغداد إليهم أخيرًا. والتطاحن بين الحزبين يظهر واضحًا فى الحوادث التى جرت، ويظهر واضحًا بين الأخوين، وما الكتابان اللذان علقهما هارون الرشيد فى الكعبة عهدًا على كل من الأخوين إلا دليلين واضحين على هذا التطاحن كما رأينا[1].

1 - د. يوسف العشى - المرجع السابق ص85.

وأيا كان السبب فالغلطة فيما حصل تقع على عاتق الرشيد. فهو قد بذر بذور انشقاق المملكة، فقسمها بذلك إلى خراسان وغير خراسان، ولعل الرشيد كان قد نسي أن خراسان طامحة إلى الاستقلال في الحكم، فإنها تعتقد اعتقادًا جازمًا أن ما فعلته مع العباسيين للوصول إلى الحكم ذهب هدرًا، وأن عليها أن تعيد حقها إلى نفسها، ونسى أيضا أن حول المأمون شخصًا خطرًا، هو الفضل بن سهل، وهو رجل من صنائع البرامكة، وممن يقولون بقولهم، ويذهبون مذهبهم؛ وهكذا رصف الرشيد الطريق بدون قصد إلى الخصام بين الأخوين وإلى تشتت المملكة؛ وما كان يريد إلا الخير لولديه. بموت الرشيد أوشكت الدولة العباسية أن تنقسم إلى قسمين ينازع كل منهما الآخر: الجزء العربي حيث مدينة الخلفاء بغداد، وعلى رأسه الأمين، والجزء الشرقي أى خراسان والولايات الشرقية حيث يقيم المأمون بمدينة «مرو». ويعود الفضل فى هذا التقسيم إلى الرشيد، كما رأينا، بل ولربما تحقق الانفصال فعلا بين مشرق الدولة ومغربها عقب وفاته مباشرة لو أن كلا من الابنين احترم وصية أبيه.

والظاهر أن هذا الانفصال كان لا بد منه إذ أن المشرق كانت له أمانيه وآماله السياسية التى يعمل على تحقيقها، والتى ظهرت جليا بقيام الدولة العباسية نفسها، وسنرى فإن المشرق سيحقق استقلاله فعلا - إن لم يكن شكلا - على عهد الطاهرين وعلى أيام المأمون. يفهم من ذلك أن مسألة الصراع بين أبناء الرشيد لن تأخذ شكل نزاع عائلى من أجل وراثة العرش بل سيكون لها شكل النزاع العصبى بين العرب والمشارقة. وعلى ذلك فلن يكون للمطالبين بالخلافة رأى كبير فى سير الحوادث بل سيوجه كل منهما رجال يتعصبون لأحد الفريقين. ويدل سير الحوادث هذا على أن ظفر المأمون، وغلبته على الأمين، إن هو إلا انتصار للمشرق التركى على المغرب العربى، يعيد إلى الأذهان قيام أمر العباسيين على أكتاف الخراسانية وزحف هؤلاء نحو الغرب

وتغلبهم على العالم العربي الشامي. أحس بذلك وزير المأمون الفضل بن سهل المشرقي الأصل الحديث الإسلام (منذ 5 سنوات) فكان يشبه أصحابه بنقباء الحركة العباسية الأولى. كان يقول للتميمي نقيمك مقام موسى بن كعب، وللربعي نقيمك مقام أبي داود، وخالد بن إبراهيم نقيمك مقام قحطبة.

أسباب النزاع بين الأمين والمأمون:

بدأ الاختلاف بين الأمين الذي بويع له بالخلافة وبين المأمون عندما رفض الأمين - بصفته صاحب السلطان - الاعتراف بما أوصى به الرشيد، من أن يؤول عسكره وكل ما فيه من الأموال والأمتعة والعدد إلى المأمون. وعمل على أن يعود هذا الجيش بكل أثقاله إليه، بفضل الفضل بن الربيع الذي حضر وفاة الرشيد، وغيره من القواد الذين أرسل إليهم بتعليماته. ولكن يخفف من روع المأمون كتب إليه يهون عليه من الأمر، ويأمره بترك الجزع وأخذ البيعة لهما، وكذلك لأخيهما القاسم (المؤتمن).

قام ابن الربيع بدعوة الجند إلى الانفضاض من حول المأمون والعودة إلى بغداد. وفعلا أجابه كثير منهم، رغم ما قام به قواد المأمون وعلى رأسهم ابن سهل من تذكير الناس ببيعة المأمون وسوءا لهم الوفاء وتحذيرهم الحنث قال ابن الربيع إنما أنا واحد من الجند. نتج عن ذلك أن أشفق المأمون عن حرج الموقف، ولكن ابن سهل طمأنه ورسم له السياسة الواجب اتباعها، والتي تتلخص أولا في الاعتصام بخراسان في المشرق، إذ الخراسانية أخواله (المأمون) وهم بحكم قرابتهم هذه لم ينقضوا البيعة التي له في اعناقهم. ثانيا انتهاج سياسة دينية رزينة بدعوة الفقهاء إلى الحق والعمل به وإحياء السنن. ثم الاهتمام شخصيًا بأمور الدولة ورد المظالم وإظهار التقشف والزهد. ويبدأ تنفيذ

هذا البرنامج بعمل موفق، وذلك أنه وضع أو خفض ربع الخراج عن خراسان مما كان له وقع حسن عند أهل البلاد (قالوا ابن أختنا وابن عم نبينا). كما أنه في نفس الوقت الذى عمل فيه علي توطيد مركزه في ولاياته الشرقية، بأن كتب إلى أخيه وعظمه وأهداه الهدايا. أما عن الأمين فإنه من جهته لم يرض عن موقف أخيه، وعمل على إعادة الوحدة للدولة، وعلى أن يحقق لنفسه السيادة الفعلية، وبدأ ذلك على حساب الأخ الثالث، وهو القاسم (المؤتمن) الذى كان يلي الجزيرة وما يتبعها بأن نحاه عن جزء كبير من ولايته وأقره على قنسرين والعواصم فقط. وكانت هذه هي الخطوة الأولى. ففى السنة الثالثة 194هـ (810م) خطا الخطوة الثانية، وكان فيها تهديد مباشر للمأمون وما يمكن أن نسميه بتمهيد للإغارة على حقوقه في وراثة العرش والخلافة. وإذ أمر الأمين - بإغراء وزيره الفضل بن الربيع - بالدعاء لابنه موسى، الذى كان طفلا صغيراً في خطبة الجمعة إلى جانب الدعاء لأخويه[1].

لم يخلص الحزبان أحدهما للآخر، ولم يخلص الأخوان النية في تنفيذ العهد. إذا نظرنا فيما فعل الرشيد وفي الحوادث التي جرت قبل ذلك، فإنا لا نجد أثراً للخصام بين العرب والمشارقة. لعله حدث خصام بين المشارقة والعباسيين، بين خراسان والعراق بعد ذلك، لكن الأمور حتى ذلك الوقت كانت تفسر باختلاف حزبين: حزب عباسي وحزب مشرقي يميل إلى العلويين - كما رأينا - وبعد أن وضعت العهود، وأزيح البرامكة لم يخلص كل حزب للحزب الآخر، ولم يتهادن معه، بل بقى الشقاق بين الأخوين، يثيره من جهة، الفضل بن الربيع، ومن جهة الفضل بن سهل، وكان المأمون خائفا علي نفسه من أخيه «الأمين».

---

1 - د. سعد زغلول - المرجع السابق ص111.

وبعد أن فعل الفضل بن الربيع ما فعل، وجد أنه بذلك أعلن عداءه للمأمون، فكان عليه أن يسير في خط ذلك العداء، وإلا وقع بين فكي الأسد حين ينتقل الأمر إلى المأمون. فصار يوغر صدر الأمين على أخيه، ويحسن له أن يعفي أخاه من ولاية العهد، وأن يوليها ابنه موسى. وكان الفضل بن سهل يوغر صدر المأمون أيضا على أخيه، ويظهر له نقضه للعهد؛ وصار الأمين يراسل المأمون ليخلع نفسه وكاد المأمون ان يرضى بخلع نفسه لولا أن الفضل بن سهل ضمن له الخلافة. وكيف يضمن الفضل بن سهل الخلافة للمأمون والجيش ليس بين يديه، والأمين هو الخليفة وصاحب الأمر؟ ليس بين أيدينا عن الفضل بن سهل قول يفيدنا بالكشف عن رأيه في ذلك الضمان، لكننا نستطيع أن نستشف فكرته في ذلك من مجرى الحوادث؛ لعله أقنع المأمون برأيه على الوجه الآتي: إذا أقدم الأمين على محاربة المأمون، فإن جيش خراسان الموجود عند الأمين لن يخلص له بأي حال، فهو ميال إلى شيعة المأمون، لأن المأمون في خراسان بين أخواله، وهو يحسن معاملة الشعب وله منزلة كبيرة عندهم. لذا فإن الجيش الخراساني في العراق لن يفيد الأمين، وسيكون سندًا للمأمون في المستقبل. إن الأمين من جهة أخرى ليس صاحب سياسة وحنكة، فهو رجل لعوب منطلق إلى لذاته، فلا يستطيع أن يضمن الجيش إلى جانبه، وسيضطرب أمره حتما إذا حاول المأمون وأصحابه إفساد الجيش عليه. إن الأمين ليس محبوبًا في الكوفة والبصرة والمدينة، ففي هذه البلاد عدد كبير من أشياع العلويين. هؤلاء الأشياع هم أقرب إلى المأمون منهم إلى الأمين، لأن حزب الأمين من العباسيين، أما حزب المأمون فهم أهل خراسان من المشرق الإسلامي، نعم إن أهل خراسان ليسوا شيعة، ولكنهم يستطيعون أن يلتفوا حول الشيعة وإن يتقربوا إليهم. وبهذا الاتفاق يضمن المأمون إلى طرفه عددًا كبيرًا، ويجعل موقف الأمين حرجًا. هذا

العرض للأمور مقنع للمأمون. لاسيما أن المأمون يعتمد على عهد صحيح أقامه له أخوه في عهد والده، وهو ينص صراحة أن الأمر يكون للمأمون إذا أخل الأمين به[1].

وكان من الطبيعي أن لا يسكت المأمون - تحت ضغط وزيره الفضل بن سهل هو أيضا - على هذا العمل غير الودي. أجاب عليه بالمثل بأن تجاهل خليفة بغداد، وقطع كل علاقة به وأسقط اسمه في الطرز ومن النقود وقطع عنه البريد. وزاد ذلك من تأزم الموقف إذ كشف الأمين عن نواياه، وأرسل بعثة إلى المأمون يطالبه بالحضور عنده ببغداد. وكان الهدف من هذه الزيارة هو الضغط عليه للتنازل عن بعض حقوقه في الوراثة (تقديم موسى بن الأمين عليه) وربما في ولايته للمشرق طلب إليه أن يتنازل عن بعض كور خراسان وأن يكون له عنده صاحب البريد يكاتبه بالأخبار كتب له المأمون: «إنما أنا عامل من عمال أمير المؤمنين وعون من أعوانه أمرني الرشيد - معناه تمسكه بوصية أبيه - بلزوم الثغر ولعمري أن مقامي به أرد على أمير المؤمنين وأعظم غناء للمسلمين».

وكان من الطبيعي أن يرفض المأمون إجابة مطالب الخليفة، كما لم يوافق حزبه إطلاقا على خروجه من خراسان، هذا رغم أن الموقف السياسي للأطراف الشرقية من ولايته كان ينذر بالخطر، فإذا كان رافع بن الليث قد مال إلى الاستسلام والطاعة فإن غيره كان قد أعلن العصيان مثل جابغو أو جبغوية القارلوق على سيحون وخاقان التبت، وملك كابل الذي كان يستعد للغارة على خراسان، وملك أترار (مركز لغز) الذي منع الضريبة.

واستطاع بن سهل أن يدبر الأمور تدبيرا حسنا، وأن يظهر مقدرة سياسية فائقة وذلك أنه بدأ بأن استمال أحد أفراد بعثة الأمين وهو العباس بن

1 - د. يوسف العشي - المرجع السابق ص88.

موسى بن عيسى حفيد عيسى بن موسى الذى خلع على عهدى المنصور والمهدى ـ وعده كسرة الموسم ومواضع من مصر، فكان يكتب إليهم بالأخبار من بغداد. ثم أنه شدد الحراسة على حدود خراسان ومنع العبور إلى ولاياته إلا للأشخاص المعروفين. أما فيما يتعلق بملوك الأطراف من الوطنيين فإن الفضل نصح المأمون بإرسال خطابات لجابغو والخاقان يؤكد لهما سيادتهما على بلادهما، ويعدهما بالمساعدة ضد أعدائهما، وأن يرسل هدايا إلى ملك كابل، وأن يعفى أمير اترار من جزية عام. وفعلا نجحت هذه الإجراءات فى استتباب الأمن والسلام فى هذه النواحى.

خلع المأمون:

حاول الأمين إنفاذ الرسل لإقناع المأمون بالعدول عن موقفه ولكنهم منعوا من حرية الاتصال بأهل البلاد. حفظوا فى حال سفرهم وإقامتهم من أن يخبروا أو يستخبروا. عندئذ رأى الأمين أن القطيعة قد تمت وعمل على أن يعيد توحيد الدولة عن طريق استعمال أساليب العنف. وفى أوائل عام 195هـ الموافق 810م أعلن خلع المأمون من ولاية العهد، وأخذ البيعة لابنه موسى بدلا منه ولقبه «الناطق بالحق»، وجعل له ديوانا من شرطة وحرس ورسائل، وعهد بإدارة شئونه وتأديبه إلى على بن عيسى بن ماهان والى خراسان السابق ثم عهد لابنه الآخر عبدالله ولقبه القائم بالحق». كما أعلن عدم صلاحية النقود التى ضربها المأمون والتى لا تحمل اسم خليفة بغداد للتداول. وأتبع الأمين ذلك بأن أرسل إلى الكعبة وأتى بكتابى العهد الذين كتبهما الرشيد ومزقهما. خرج من حيز الكلام إلى حيز العمل وكلف على بن عيسى بن ماهان القائم بأمر ولى العهد الجديد بالسير إلى خراسان لقبض على ولى العهد المخلوع، وتنفيذ ما اتخذه من إجراءات ضده.

واتخذ الصراع بين الأخوين في هذه المرحلة صورة المراسلات والسفارات المتبادلة حول العهد المعلق في الكعبة. ذلك أن المأمون رأى وفقًا للعهد ومواثيقه السابقة أن يستقل بشؤون خراسان خلال حكم أخيه الأمين. أما الأمين فقد رأى بحكم وضعه كخليفة، أن من حقه السيطرة التامة على كامل أجزاء الدولة، في المشرق، كما في المغرب، وإن طلب أخيه المأمون الاستقلال يعني إقامة دولة ضمن الدولة، وهذا غير جائز في أصول الحكم ورد الأمين على أخيه المأمون بأن ولايته على خراسان لا تعني اقتطاع هذا الجزء المهم من جسم الدول وأصر على وضع نظام بريد تابع له في خراسان، ليطلع عن طريقه أولا بأول على ما يجري في خراسان من أمور بحيث تظل مرتبطة بقلب الخلافة، ويظل الخليفة مشرفًا على أمورها مطلعًا على خفاياها. وطالت عملية الأخذ والرد بين الأخوين. وكثر تبادل المراسلات بينهما مع إصرار كل طرف على التمسك بموقفه في عناد وإصرار[1].

امتنع المأمون من خلع نفسه، وكتب كتابًا فيه تذكير للأمين بعهوده ومواثيقه. إن الأمين لم يتبصر عواقب الأمر، بل وجد الوسيلة إلى نقض العهد وتمزيق الكتابين، وإلى تولية ابنه موسى. يعني هذا أن الأمين والمأمون أعدا نفسيهما للحرب.

ولا شك في أن اختيار بن ماهان للقيام بهذه المهمة لم يكن اختيارا موفقا، فالرجل معروف بسوء السيرة في خراسان لجشعه في ابتزاز الأموال حتى اضطر الرشيد إلى عزله بعد أن جمع ثروة طائلة، وبعد أن كان يقاسمه في استغلاله للبلاد. والظاهر أن الأهواء الشخصية قامت بدورها في هذا الاختيار، فابن ماهان كان يطمع في العودة إلى منصبه القديم المغري، وربما أراد الأمين أن يكيد لأهل خراسان فولاه هذا الأمر نكاية فيهم. ولكن بلغ

---

1 ـ د. إبراهيم أيوب ـ المرجع السابق ص73 وانظر: الأخبار الطوال والطبري 374/8.

عدم التوفيق، هذا حدا قيل معه أن عينا للفضل ابن سهل هو الذى اشار بإنفاذه حتى يقاومه أهل خراسان.

بداية الصراع:

سار على بن عيسى على رأس 50 ألف رجل، وخرج الأمين ووجوه أهل دولته لوداعه. واتجه جيش بغداد نحو «الرى»، حيث كان طاهر بن الحسين قائد المأمون يعد العدة للدفع ويستعد للقتال. وحاول على بن عيسى أن يستغل معرفته السابقة للبلاد والاتصال بالملوك الوطنيين وإثارتهم، هذا ولو أننا لانعرف إلى أى حد نجحت هذه الخطة رغم ما يقوله الكاتب من أن هؤلاء الملوك أجابوه إلى قطع طريق خراسان. ولكن المحقق أن ابن ماهان استهان بأمر طاهر، إذ تقول النصوص بأنه عندما طلب إليه أصحابه بث العيون وعمل خندق، قال: «مثل طاهر لايستعد له». وخرج طاهر من مدينة «الرى» فى جيش قليل العدد (نسبيا 4 آلاف) حيث عسكر على بعد قليل منها (5 فراسخ) كما حرض جنده على القتال، خالعا الأمين داعيا بالخلافة للمأمون، وكان الغرض هو إعطاء موقف جيشه صفة شرعية حتى لا يخيل للجند أنهم يقفون موقف الخارجين على صاحب الأمر. واتخذ كلا من الجيشين تشكيل القتال ووقف الواحد منها أمام الآخر.

وأخطأ الأمين خطأ كبيرًا، فإنه ـ بدلا من أن يولى جيشه رجلا قديرًا فاهمًا عارفًا بالأمور ـ ولى على بن عيسى بن ماهان، وهو قائد مكروه عند الخراسانيين الذين أقام عندهم واليًا أمدًا من الزمن، وكان قد ظلمهم، وجمع الأموال الكثيرة منهم. هذا الرجل الفاشل ولاه الأمين قيادة الجيش، وكان الجيش خراسانيًا فى معظمه؛ وكان عدده يقرب من خمسين ألف مقاتل. أما المأمون فقد ولى القيادة طاهر بن الحسين، وكان من أعظم القواد أرسل معه جيشًا عدته أربعة آلاف، يلاحظ أن الفرق بين الجيشين كبير جدًا، حتى إن

بعض مؤرخينا المحـدثين يشكون في صحة هذه الأرقام. التقى الجيشان وكان علي بن عيسى محتـقرًا طاهرًا وجيشه، معتزًا بعدد أفراد جيشه. وقع القتال وانتهى الأمر بمقتل علي بن عيسى، لكن جيش الأمـين لم يكن يحارب عن قناعة مع علي بن عيسى، بل قاتل قتالا رخوًا، الأمر الذي مكن جيش طاهر من التغلب عليه[1].

بدأ طاهر بمظاهرة سياسية بأن حمل صاحب شرطته بيعة المأمون وعلقها على رمح ودعـا علي بن عيـسى إلى تقوى الله في البـيعة التي أخـذها، ولما خرج أحد أصـحاب ابن ماهان عليه بالسـيف أظهر شجاعة فـائقة، إذ حمل عليه وأخذ منه السيف بيديه وصرعـه، ولهذا سمي طاهر «ذو اليمينين». وفي هذه الأثناء حدثت مفاجأة سيئة بالنسبة لطاهر، وذلك أن أهل «الري» أغلقوا باب المدينة دون عسكره، ولكـن يظهر أنه كان يتوقـع مثل هذا منهم، ولذلك فضل الخـروج والقتال بعيـدًا عن المدينة، فأمر أصحـابه لاشتغال بمن أمـامهم فقط. وبدأ القتال في صالح علي بن عيسى فهزمت ميمنته ميسرة طاهر هزيمة منكرة، وعرجت ميسـرته على ميمنة طاهر فزحزحتها عن مـواضعها. ولكن طاهرا أظهر كـفاءة عسكرية عظيمـة فلم يفت سوء الموقف في عضـده، فأمر أصحابه بالقيـام بهجوم خاطف (حملة خارجية) على قلب علي بن عيسى. وبفضل ذلك الهجـوم القوي تحول الموقف لصالح طاهر فـانسحب جناحا ابن ماهان، وكثر القتل في أصحابه وسـقط هو قتيلا بضربة سهم في الميدان. ولم ينقذ المنهزمين إلا حلول الليل بعد أن التجـأ كثيرون منهم إلى معسكر طاهر، بعد أن أمنهم[2].

---

1 ـ د. يوسف العشي ـ المرجع السابق ص88.

2 ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص115.

الزحف على بغداد:

بعد أن ظفر المأمـون وجيشه بجيش الأمين، جـمع جيشًا كبيـرًا ووجهه إلى بغداد لضرب الأمين والقبض عـليه، ولم يكن يدرى الأمين أن ما حدث خطيـر للغايـة. بل اضطرب أمره، واقـتـصر على توزيع المـال الكثيـر على الجيش، لكن الجيش لم يكن مخلصًا له، حتى أن الحسين بن على بن ماهان، وثب على الأمـين وألقى القبض عليه ووضعـه فى الـسجن، وكاد ينتهى أمره، لولا أن أنصارًا له أنقذوه، وألقوا القبض على الحـسين. عاد الأمر للأمين مرة أخرى لكنه كـان فاقد الإرادة، مـضطربًا، لا حول له ولاقوة. . وطبـيعى فى هذه الحال أن يـستطيع جيش المأمون، وعلى رأسه هرثمـة بن اعين وطاهر بن الحسين، دخول بغداد[1].

كانت هذه الوقعة فاتحـة سلسلة من الانتصارات قادت طاهر من «الرى» إلى بغداد، تعيد إلى الذهن الحملة المظفـرة التى قام بها قحطبة بن صالح من خراسـان إلى العـراق. وتمكن طاهر بعد ذلك من هزيمـة قائد الأمـين عبد الرحمن بن جبلة الذى ولى «همذان»، والذى كـان يأمل أن يلى كل ما يفتحه من أرض خراسان. هزمه طاهر مرتين، وحاصـر مدينة «همذان» حتى ضجر أهل المدينة، فطلب عبد الرحمن الأمـان وخرج عن المدينة، ولكنه كان يضمر الغدر بطاهر إذ شن عليه هجـومًا شديدًا يائسًا انتهى بقتله وهـزيمة أصحابه. كان هذا الرجل متعـصبًا للأمين ضد المأمون فى أول الأمر فـقال لا يرى أمير المؤمـنين وجهه أبدًا وبعد الاستيـلاء على همذان عمل طاهر على تأمين ظهيرة قواته عن طريق احـتلال «قـزوين»، ولم ينتظر قائد الأمـين وجيشـه الكثيف وصول طاهر إذ أنه وبذلك خلت البلاد لطاهر فتقدم يحتل الكور والمدن حتى وصل إلى قـرب «حلوان»، حيث عـسكر هناك. وكـان للانتصـارين اللذين

---

1 ـ د. يوسف العشى ـ المرجع الـسابق ص98.

أحرزهما طاهر أثرهمـا الكبير في إضعاف الروح المعنوية لدى قـواد وجيوش الامين. فبعد أن بحث الفضل بن الربيع عن قائد عربي متعصب للعرب، هو أسد بن يزيد بن مـزيد، وبعد أن حرضه من أجل المحافظة عـلى قوة الشعب العربي. فشل في تسيره إذ كان للقائد العـربي مطالب مالية لم يقابلها الأمين بالرفض فقط بل أمر بحبسه كذلك. وأخـيرا نجح في تسيير أسد، وهو أحمد بن مزيد حرب طاهر، وسيـر معه عبدالله بن حميد بن قـحطبة، ولكنهما لم يتقدما إلى أبعد من «خانـقين». واكتفى طاهر بأن ظل في مكانه ودس عليهم الجواسيس والعيـون ولم يزل يحتال حتى وقع الاختلاف في مـعسكر أعدائه، وقاتل بعضـهم بعضا حتى اضطر قائد بغداد إلى الرجـوع عن «خانقين» دون ملاقـاة طاهر الذي تقدم وتزل حلوان نفـسها. وفي هذه الأثناء وقـعت بغداد (فريسة للفوضى)، وبلغ من حرج مـركز الأمين أنه لم ينتقم من الرجل الذي خلعه بل عفا عـنه، وأكثر مـن هذا أنه لم يجد قـائدًا غيـره للقيـام بحرب المأمون، فوجـهه لذلك. ولكن الحسين كـان قد فقد الثقـة في موقف الأمين فحـاول الهرب إلا أنه أخـذ وقتل. وظهـر الفشل فـي حرب بغداد بـهروب الفضل بن الربيع، وكان القوة المحركة لهذا الحرب واختفائه بعد قتل الحسين.

ظهر بجـلاء إذن أن موقف بغداد مـيئوس منه، وكـان من الطبيعي أن تتـقدم جيوش خراسان بسهولة وألا يصادف طاهر بن الحسين عقبات خطيرة، فتمكن من الاستيـلاء على «الأهواز»، بعد أن حاول واليها الدفع عنها فلقـى حتفه، كما أن طاهرًا أصيب في هذه المعركة بجراح بـليغة (فقطعت يده). وباستيلائه على «الأهواز» تمكن من السيطرة على «اليـمامة» و«البحـرين» و«عمان» على الخليج العربي من شبه جزيرة العرب وأرسل إليـها عمالا يتولونها من طرفه. واستـمر تقـدم طاهر المظفـر دون مقـاومة حـتى أتى واسطا التي استـسلمت للخراسانية دون مقاومـة هذه المرة. ومنها أرسل أحد قواده إلى الكوفة وكانت

قد خلعت الأمين واعترفت بخلافة المأمون (كان عليها العباس بن موسى صنيعة ابن سهل)، ولم تفلح محاولات بغداد لاستردادها[1].

وبذلك تم لطاهر الاستيلاء على كل الأراضي الواقعة بين واسط والكوفة كما أعلن والي البصرة خضوعه له، وأعقبه والي الموصل. وبهذا أصبحت بغداد شبه محاصرة وانقطعت عن كل الولايات الشرقية والجنوبية، وتم خروج كل بلاد العرب جميعًا من سلطان الأمين، بدخول مكة والمدينة في طاعة المأمون ورغم أن موقف الأمين كان لا يبشر بأي أمل إلا أنه ظل جامدًا في تصرفاته لايريد سوى التشبث بعاصمة الخلافة التي أصبحت محاصرة (لم يصبح لها اتصال إلا ببلاد الشام المضطربة). فهو لا يريد الخروج منها ـ كما نصحه بعض الناس ـ ومحاولة تنظيم قواته من جديد بالشام، ولا هو يحاول المرونة واستعمال السياسة ومفاوضة أعدائه في سبيل إنقاذ ما يمكن إنقاذه ـ إذا كان هناك ما يمكن إنقاذه. في هذه الظروف تقدمت جيوش المأمون، وصارت تقترب من بغداد شيئًا فشيئًا، وكانت كلما قربت اضطرب أمر الجيوش البغدادية واتجهت أفرادها. هذا ما حدث بالمدائن (على بعد: 4 كم في بغداد) حيث نزل طاهر (بصرصر) وما حدث بالنهروان حيث نزل هرثمة بن أعين. كل هذا والأمين لا يفقد الأمل، بل وربما اعتقد في مقدرة بغداد وحدها على استعادة دولتها المفقودة: ففي محاولة أخيرة عمل على استمالة جيوش طاهر ببذل الأموال والتلويح ببرق الذهب، ودس بينهم الجواسيس. ونجحت التجربة جزئيًا إذ شغب بعض الجند على طاهر وانضم فريق منهم إلى جانب الأمين (حوالي 5 آلاف)، ولكن النجاح لم يذهب إلى أبعد من ذلك، إذ تمكن طاهر بسرعته من السيطرة على رجاله، وهزم جيش بغداد الذي اقترب من مواقعه فلجأ إلى داخل المدينة التي أصبحت مطوقة تمامًا

1 ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص118.

من جميع الجهات. وفلت زمام القواد - الذين كانوا يطلبون المال بجشع وإلحاح - من يدى الأمين، وعمت العاصمة الفوضى. فنقبت السجون وخرج أهلها وثار العامة والغوغاء وساد النهب والسلب والاضطراب.

رغم حالة الفوضى التى عمت بغداد لم يكن من السهل أخذ المدينة التى بناها المنصور لتكون أولا وقبل كل شيء معسكرًا لجنوده وملجأ يستقر فيه فى أمان من مفاجأة الأعداء. فالمدينة سوراها الضخمان. والخندق الممتد بينهما، ثم هى مقسمة بعد ذلك إلى أحياء (أرباع) شبه منفصلة تتوسطها المدينة الملكية، ويمكن لكل منها أن ينظم دفاعه الخاص. بعد ذلك هناك الأحياء والأسواق خارج الأسوار وهى مكتظة بالمباني والسكان ويمكن الاعتصام بها. عرف طاهر ذلك وعمل على ضرب حصار محكم حول المعسكر الضخم. فقسم دائرة الحصار إلى أربع مناطق، وعهد بكل منطقة إلى قائد: ونزل هرثمة بالمنطقة الشرقية (وراء دجلة) بينما نزل طاهر بالمنطقة الغربية من ناحية باب الأنبار (باب الكوفة). وصمم الأمين من جهة على المقاومة المستمية دون نظر إلى العواقب مضحيًا بمدينة الخلفاء العالمية. فلما أحوجه المال ضرب آنية الذهب والفضة وفرقها فى أصحابه، ولما خرجت عليه بعض أحياء المدينة أمر بإحراقها رميا بالنفط والنيران وبالمجانيق. ولم يتورع طاهر عن فعل مثل هذا أيضًا بالنسبة للأحياء التى ظلت تقاومه وسماها دار النكث (أهل الأرباض ومدينة المنصور وأسواق الكرخ والخلد، لامتلائها بالعامة (والغوغاء). كما أنه لجأ إلى إرهاب الأعيان الذين لم يخرجوا إليه من الهاشميين وكبار القواد فى أموالهم وأملاكهم فصادر مزارعهم الموجودة خارج المدينة. ولم يمض وقت طويل حتى انتهت المقاومة النظامية وانهارت معنويات الجنود وضعفوا عن القتال، كما استاء من كثير من وجوه المدينة ومن القواد وظل الغوغاء وأهل السوق وباعة الطريق، فى أعداء النظام والأمن ويسلبون ويقاومون جنود

طاهر. ورغم أنهم لم يكونوا مسلحين أو كانوا يحملون أسلحة بدائية مثل المخالي فيها الصخر والحجارة، ومعها المقاليع فإنهم أمكنهم شل حركة جيوش طاهر النظامية لمدة ما، بل وأكثر من هذا تمكنوا أثناء قتال الشوارع والبيوت، من أن يلحقوا بهم في بعض الأحيان خسائر فادحة وأن يحرزوا بعض الانتصارات أيضا. واتخذ طاهر إزاء هذه المقاومة إجراءات شديدة فأمر بهدم كثير من الدور والأحياء (ما بين دجلة ودار الرقيق وباب الشام وباب الكوفة إلى الصراة وربض حميد ونهر كرخايا). حتى عم الخراب واضطر كثير من أهل المدينة إلى الجلاء عنها. وبعد ذلك عمد إلى منع الأقوات عن المدينة (صرف السفن التي تحمل فيها القوت إلى الفرات) فغلا السعر وأصبح أناس في ضيق شديد[1].

سقوط بغداد ونهاية الأمين:

وأخيراً تقدم طاهر من جهة الكرخ وتمكن من دخول المدينة عنوة واحتل أسواق الكرخ ثم عمل على حصار مدينة المنصور ـ المدينة الملكية وسط بغداد ـ حيث كان الأمين قد التجأ هو وأمه وأهله بعد أن فارقه كثير من جنده وجواريه، وأحاط قصورها (قصر زبيدة وقصر الخلد) وبالمجانيق. ورغم هذا الضيق الشديد الذي وقع فيه الأمين فإنه لم يتخل عن عاداته من الانصراف إلى الغناء والاستمتاع بالشراب والموسيقى ـ وربما وجد في ذلك بعض التخفيف من محنته، وكان هذا إيذانا بالنهاية وإذ لم يعد أمامه سوى الاختيار بين إحدى شيئين: إما القيام بمحاولة بائسة لاختراق صفوف المحاصرين بما تبقى لديه من الخيل، وإما الاستسلام وطلب الأمان. ولما لم يكن الأمين من هؤلاء الرجال يزدادوا عزما كلما ازدادت الصعاب شدة فإنه يكن إلى طلب الأمان. وكل ما فعله أنه لم يرض أن يكون استسلامه لطاهر بل فضل عليه

1 ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص120.

هرثمة بن أعـين. وكان من الطبيعي أن يثير ذلك طاهرا صاحب الحصار. وتمكن الطرفان من إيجاد حل ذلك، إذ اتفق على أن يدفع الأمين شعار الخلافة - الخاتم والقضيب والبردة - إلى طاهر. وأتي هرثمة بحراقة في دجلة ونقل الأمين إليها (وحده) ولكن طاهرا لم يكن ليرضى أن يفوقه شرف استلام الخليفة فدبر إغراق الحراقة بأيدى أصحابه تدبيرا سافراً. وتنتهى قصة الأمين نهاية مأساة روائية (تراجيدية) بأن يؤسر وهو شبه عريان، ويحبس فى إحدى الدور وفى ظلام منتصف الليل الذى تبدده بعض المشاعل يدخل عليه بعض الرجال من العجم ويذبحونه ذبح الشاة من قفاه، فى يوم الأحد 23 المحرم عام 198هـ) ويسيروا برأسه إلى طاهر الذى يرسلها بدوره إلى المأمون صاحب العرش دون منافس[1].

استسلمت بغداد إذن، وفى يوم الجمعة التالى (28 من المحرم) دخل طاهر بغداد وصلى الجمعة ودعا للمأمون. وكان المتوقع أن تهدأ الأحوال ويستتب الأمن وتستقر الأمور بعد موت الأمين وخلاصة الأمر للمأمون، هذا ما لم يحدث، فالمسألة كانت أكثر من ذلك تعقيداً. إذ معنى انتصار صاحب الولايات الشرقية هو أن مركز الخلافة والحكم كان يتزحزح نحو المشرق. وفعلا لن يدخل المأمون بغداد إلا بعد ست (6) سنوات قضاها فى عاصمة ولايته الشرقية «مرو». وخلال هذه السنوات الست ستعرف بغداد كما ستعرف الولايات الغربية ألوانا من الاضطراب وصفوفا من الفتن والثورات. وذلك حتى يعود الخليفة من جديد إلى عاصمة الدولة إلى بغداد. فبعد دخول طاهر بغداد لم تلبث الثورة أن شبت بالمدينة واشترك فيها الجند الذين طالبوا بأرزاقهم ونادوا بموسى ابن الأمين. وظن طاهر أن فى الأمر مؤامرة فخرج عن المدينة وعزم على التنكيل بأهل الأرباض لولا تدخل الأعيان واعتذارهم

---

1 - د. سعد زغلول - نفس المرجع ص121.

إليه. وعندئذ حمل طاهر ولدى الأمين وهما موسى وعبـدالله وأمر بتسييرهما إلى المأمون بخراسان. وحسب السيـاسة التقليدية للخلفـاء العباسيـين عمل الخليفة الجديد على التخلص ممن يستشعر خطره من كبار الرجال الذين مهدوا له الطريق إلى الملك فكـان نصيب الفـاتح الكبيـر طاهر بن الحسين أن أمـر بالتخلى عن كل فتوحاته، من: كور الجبال والعراق وفارس والاهواز والحجاز واليمن للحسن بن سهل أخى الوزير الخطير الفـضل، الذى استعمله المأمون ـ بإيحاء الوزير من غير شك ولم يفعل طاهر سوى مدافعته بتسليم الخراج حتى وفى الجند أرزاقهم. وبعـد ذلك كان على طاهر أن يسير حسـب أوامر الحسن ابن سهل إلى «الرقة» على رأس قـوات غير كافية لحـرب أحد ثوار الشام من رجال الأمين، وهو ابن شبث (نصـر بن سيار) الذى غلب على نواحى حلب وما جـاورها من الجهات، وعـبر الفرات إلى الجـانب الشرقى يبـغى التغلب عليـه. وفى نفس الوقت ولى طاهر الـولايات المضطربة، والتى لم تكن قـد دخلت فى الطاعـة بعد، وهى: الموصل والجـزيرة والشام والمغـرب. أما عن هرثمة بن أعين فـيكون مصيره الموت بعد قليل[1].

وقد دامت خلافة «الأمين» أربع سنوات وثمانية أشهر وخمسة أيام.

الخليفة السابع: عبدالله المأمون 198 ـ 218هـ = 813 ـ 833م

هو «عـبدالله بـن هارون الرشيـد»، ولد فى منتـصف ربيع الأول عـام (170هـ الموافق أغسطس 876م) وأمه «أم ولد» مـن المشرق الإسلامى تـسمى «مراجل»، وكان يكنى «أبا العباس»، ويلقب بالمأمون.

واختلف المأمون عن أخيه الأمين فى أنه لم يستسلم لملذاته وشهواته، بل انصرف إلـى العلم والأدب والفلسفـة، وشغف بالجـدل فى المسائل الفـقهـية والدينيـة. قال عنه ابن طـباطبـا: «أنه كان من عظـماء الخلفـاء ومن عقـلاء

1 ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص122.

الرجال، وله اختراعات كثيرة في مملكته، ومنها أنه كان أول من فحص منهم علوم الحكمة، وحصل كتبها، وأمر بنقلها إلى العربية وشهرها، وحل إقليدس، ونظر في علوم الأوائل، وتكلم في الطب، وقرب أهل الحكمة..» ولكن هذا لم يمنع المأمون عن شرب النبيذ والاستماع إلى الغناء والطرب وبخاصة غناء إسحاق بن إبراهيم الموصلي الذي قربه إليه، فأدى ذلك إلى انتشار جو من اللهو والاستمتاع بالغناء والشراب والملذات سيطر على أهل بغداد في عهد خلافة المأمون.

ونشأ «المأمون» نشأة إسلامية، وتلقى العلوم العربية، وتدرب على فنون القتال والنزال وقيادة الجند، كما أسند والده «الرشيد» إلى وزيره «جعفر البرمكي» مهمة الإشراف على تنشئته، وقد أظهر المأمون نبوغًا خلال دراسته. ولما تولى «المأمون الخلافة» عزم أن يقدم القدوة الصالحة والسيرة الحسنة في الناس حتى يقتدي به رجال دولته، وكان يقول: «أول العدل أن يعدل الملك في بطانته، ثم الذين يلونهم، حتى يبلغ إلى الطبقة السفلى». وقد ظل بخراسان ولم يأت بغداد إلا عام 204هـ الموافق 819م. كما اتصف «المأمون» بالعفو والحلم حتى اشتهر بذلك وهو القائل: «لو عرف الناس حبي للعفو لتقربوا إلي بالجرائم، وأخاف ألا أؤجر عليه». يعني لكونه طبعًا له يستلذ به.

الاضطرابات في بغداد:

أما عن بغداد فكان من الصعب عليها أن تعيش مطمئنة بدون خليفة وألقيت تبعة عدم مجيء الخليفة إلى العاصمة على ابن سهل، وانتهز الجند تأخر أرزاقهم بعض الوقت فثاروا ضد الحسن بن سهل، وتمكنوا من طرده هو وعماله (ونادوا بإسحاق بن موسى الهادي نائبا للمأمون ببغداد). وحاول الحسن إرضاءهم بالمال بعد أن استعمل معهم العنف، ولكن وصول خبر مقتل هرثمة وهروب بعض العلويين من سجن البصرة زاد من هياج الفتنة. وخرج

قائد الحسن بن سهل عن بغداد، وسار الحسن نفسه من المدائن إلى واسط في أوائل عام 201هـ. وفكر الهاشميون وأهل بغداد من الغاضبين على الحسين بن سهل في مبايعة منصور بن المهدي، وعرضوا عليه الخلافة ولكنه كان مخلصًا للمأمون فأبى. وأخيرا رضي أن يضبط الأمور باسم المأمون اى أن يكون نائبًا له ببغداد والعراق (كانوا يقولون لا نرضى بالمجوس بن المجوسى).

إزاء اضطراب بغداد هذا، وقيام الفتن بين الناس وانتشار السلب والنهب والمفاسد، من قطع الطريق إلى أخذ النساء أو الصبيان علانية وقصور السلطات عن ضبط الأمور، قامت حركة شعبية تهدف إلى نشر الامن والطمأنينة وحسن المعاملة بين الناس. واتخذ القائمون بهذه الحركة المبدأ الإسلامى الشهير، وهو الامر بالمعروف والنهى عن المنكر شعارًا لهم. معنى ذلك أن الحركة كانت فى أول أمرها عبارة عن دعوة إلى التقوى ولزوم أوامر الدين، هذه الدعوة ستعطى أعمال الجماعة عندما تضرب على أيدى الفساد صفة شرعية، إذ أن هذا العمل من اختصاصات صاحب الأمر الشرعي وأول من فكر في تنظيم هذه الحركة رجل اسمه خالد الدريوش. دعا هذا الرجل جيران وأهل محلته إلى معاونته على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، أو بوجه أصح على تحقيق النصف الثانى من هذا المبدأ النهى عن المنكر. وفعلا قاتل الفساق وتمكن من هزيمتهم. كل هذا فى حدود الاعتراف بسلطان ولى الأمر. وقام بعد ذلك رجل آخر اسمه سهل بن سلامة وعلق مصحفًا فى عنقه ودعا الناس لمناصرته في دعوته. ولكن لما كان كثير من أصحاب هذين الداعيين من عامة الناس وغوغائهم فإن منصور بن المهدي الذي دخل بغداد قاومها وهزم أصحابها. وفى هذا الوقت كانت هناك مفاوضات بين الحسن بن سهل وأهل بغداد، من أجل تأمينهم على أن يعطى لهم وللجند من الثوار الأرزاق. وفعلا تم الاتفاق على ذلك وعاد الحسن بن سهل إلى بغداد 13 من

شوال عام 201هـ، إلا أن سهل بن سلامة ظل على ما كان عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

انتهج «المأمون» سياسة واعية تقوم على أسس واضحة منها:

1 ـ تأليف القلوب بالعفو والعطاء، وقد عد «اليعقوبي» سبع عشرة حادثة يستحق صاحب كل واحدة منها القتل عند أمثال «المنصور»، لكنها قوبلت عند «المأمون» بالعفو.

2 ـ العناية بالعلم والعلماء كان للمأمون وله بالأمور العلمية والفلسفية، فكان يعقد مجالس المناظرة ويبعث في طلب العلماء والأعلام من «بيزنطة» لحضورها، وكان يتصيد الكتب النادرة ويدفع فيها المبالغ الطائلة، ويجعل حصوله عليها شرطًا من شروط الهدنة ووقف القتال مع الروم، كما أقام «بيت الحكمة» وجعل فيها مكتبة ضخمة، وجهازًا كبيرًا للترجمة من مختلف اللغات إلى اللغة العربية، حشد له نحو سبعين مترجمًا. ظل «المأمون» خليفة للمسلمين عشرين سنة وخمسة أشهر وعشرين يومًا، وقد توفي في 18 من رجب عام 218هـ الموافق 833م.

الخليفة الثامن: المعتصم بالله (218 ـ 227هـ الموافق 833 ـ 842م):

هو «محمد بن هارون الرشيد»، ولد في شعبان عام 180هـ الموافق أكتوبر 796م)، وأمه جارية تركية اسمها «مارده»، وقد تولى الخلافة عقب وفاة أخيه «المأمون».

وتولى أبو إسحاق محمد المعتصم بالله مصر والشام في عهد أخيه المأمون. فأظهر من ضروب الشجاعة وقوة الشكيمة ما جعله موضع ثقة أخيه فولاه عهده رفض غالبية الجند في بداءة الأمر مبايعة المعتصم بالله بالخلافة، وأرادوا تولية العباس بن المأمون، لكن العباس أسرع إلى مبايعة عمه بالخلافة

احترامًا لوصية أبيه[1]، فحذا الجيش حذوه. وبذلك بعد وفاة المأمون لم يعتل العرش ابنه العباس بل اعتلاه أخوه أبو إسحاق محمد المعتصم بن الرشيد، الذي كان يلي مصر حتى ذلك الوقت والذي أوصى له المأمون بالخلافة من بعده. وعهد المأمون هذا بالخلافة لأخيه بدلا من ابنه يدل على أنه لم يكن مهما كثيرا بأن تكون الخلافة في عقبة ـ كما كان الحال بالنسبة لأسلافه ـ وأنه كان زاهدا فعلا في السلطان أيام ولي عهده الطالبي وأنه كان يفكر في ذلك الوقت في حل المشكلة العلوية العباسية. ولعصر المعتصم أهمية كبيرة في تاريخ الأسرة العباسية بصفة خاصة وفي تاريخ الإسلام بصفة عامة. ففي أيامه بدأ الترك من حرس الخليفة يظهرون في مركز الإمبراطورية ويستولون شيئًا فشيئًا على الوظائف الكبرى في الجيش، ويقضون على نفوذ الخراسانيين في عاصمة الخلافة، ويمهدون للفترة التالية التي يمكن تحديدها ببناء سامرا ثم بظهور وظيفة أمير الأمراء على عهد المقتدر 295 ـ 320هـ الموافق 908 ـ 932م وغلبه المملوك (كبير قواد الحرس التركي) على السيد (الخليفة) والتي يمكن أن نسميها دولة الترك. وطبيعي ألا يتم هذا التطور فجأة في خلافة المعتصم التي تعتبر استمرارا لعهد المأمون. فالمأمون هو الذي بدأ استعمال الحرس التركي، وكبار قواد المعتصم من الترك هم أنفسهم قواد المأمون، كما أن العاصمة التركية الجديدة ـ سامرا ـ ابتدأ في إنشائها على عهده كذلك (بل على عهد الرشيد من قبل).

واعتلى المعتصم حكم بغداد عقب وفاة المأمون دون نزاع، إذ أن الجيش الذي كان قد بايع ابن المأمون وهو العباس، ترك المناداة به خليفة عندما وصل المعتصم واعترف العباس به. ولكن الاضطراب الذي عاناه العراق كان يظهر

---

1 ـ د. إبراهيم أيوب ـ المرجع السابق ص91.

إلى حد كبير كيف تدهورت الأسرة العباسية وكيف انحطت هيبتها، كما لم يحدث من قبل[1].

تميز «المعتصم» بقوته الجسمية وشدته في الحرب، حتى قيل عنه أنه كان يصارع الأسود ويحمل ألف رطل يمشي بها خطوات ويشد على الدينار بإصبعيه السبابة والوسطى فيمحو كتابته، وقال عنه المؤرخون: إنه لم يكن في «بني العباس» قبله أشجع منه ولا أتم تيقظًا ولا أشد قوة.

ومع ذلك فقد كان «المعتصم» على خلاف أخويه «الأمين» و«المأمون» في العلوم والآداب، فقد كان قليل البضاعة منهما، حتى ذكر بعض المؤرخين أنه نشأ أميا لا يكتب، أو أنه كان ضعيف الكتابة على حد قول «ابن خلكان» و«ابن كثير». اختلفت الأوضاع السياسية في عهد «المعتصم» عن عهد من سبقه، بسبب ظهور عوامل جديدة على مسرح الأحداث، كان في مقدمتها ظهور العنصر التركي قوة مؤثرة في حركة الأحداث؛ فتمتع الأتراك بصفات عسكرية كالشدة والقوة والتحمل جعل «المعتصم» يستكثر منهم، يضاف إلى ذلك أن أمه تركية. إلا أن كثرة الأتراك سببت أضرارًا كبيرة لسكان «بغداد»، مما دفع «المعتصم» إلى البحث عن مكان جديد يكون عاصمة له فوقع الاختيار على المكان الذي بنيت عليه مدينة «سر من رأى» (سامراء حاليا) التي بدأ البناء فيها عام 221هـ الموافق 836م، ويتميز موقعها بميزات سياسية واقتصادية وعسكرية، فمن الناحية السياسية فإنها في موقع متوسط يسهل الاتصال بأنحاء الدولة، ومن الناحية الاقتصادية فإن موقعها يسهل عمليات التبادل التجاري بين النواحي الشمالية والجنوبية، وعسكريًا فإن إحاطة المياه بها يجعلها في مأمن من أي عدوان خارجي. ومن الأعمال العظيمة التي تنسب إلى «المعتصم بالله» نجاحه في القضاء على ثورة «بابك الخرمي»، فحينما تولى

1 ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص138.

أمر البلاد جهز جيشًا بقيادة «الأفشين» وزوده بكل أدوات القتال وبالمال اللازم؛ حيث دارت عدة معارك، انتهت بالقبض على «بابك الخرمى» وإعدامه.

لم تظهر فى عهد «المعتصم» حركات علوية مؤثرة كالحركات التى حدثت في عهد الخلفاء السابقين، وإنما حدثت بعض الحركات الضعيفة، ومنها: حركة «محمد بن القاسم» المعروف بالصوفي، عام 219هـ الموافق 834م، والذى تحرك فى عدة أماكن كالحجار و«الكوفة» ثم استقر فى «خراسان» وشكلت حركته خطرًا على «الدولة العباسية»، فكلف «المعتصم» واليه على «خراسان» «عبد الله بن طاهر» بالتصدى لهذه الحركة؛ حيث نجح فى القضاء عليها. توفى «المعتصم بالله» فى شهر ربيع الأول عام 227هـ الموافق ديسمبر 841م، وقد أطلق عليه بعض المؤرخين «المثمن»، لأن خلافته دامت ثمانى سنين وثمانية أشهر ويومين، ومولده فى الشهر الثامن من العام الهجرى، ومات عن ثمانية بنين وثمانى بنات.

الخليفة التاسع: الواثق بالله: (227 ـ 232هـ الموافق 841 ـ 847م)

هو «هارون بن المعتصم بالله»، يكنى «أبا جعفر» وأمه أم ولد رومية تسمى «قراطيس»، وكان فطنًا لبيبًا فصيحًا ينظم الشعر ويحب الموسيقى. وقد تولى «الواثق بالله» الحكم يوم وفاة والده «المعتصم».

سار الواثق على خطة أبيه وعمه المأمون، فحالف الأتراك وكان الواثق يشبه المأمون بمعرفته العلمية، حتى كان يسمى المأمون الأصغر، لكنه لم يكن بدهاء المأمون، ولم يكن فى ميدان السياسة بمعرفته، فألقى بمقاليد أموره لوزرائه ولقواده الأتراك، فترك لأشناس «إدارة غربى الدولة» ولأيتاخ «إدارة شرقيها»، فقسمت المملكة بين الاثنين، وأصبحا سيدى الأمر فيهما. وغلط

الواثق غلطة أخرى، وهى أنه لم يعهد بولاية العهد من بعده لإنسان، بل توفي، ولم يكن للدولة ولى للعهد، فضرب بذلك التقليد الذى سار عليه الخلفاء منذ عصر معاوية، وترك الأمور تضطرب بين أيدى الأتراك وبين أيدى وزرائه، ومد الأتراك يدهم، فبحثوا مع الوزراء فيمن يولونه الخلافة، فوجدوا ابنا للواثق، ألبسوه ثوب الخلافة، فوجدوه كبيرًا عليه، فخلعوه عنه، والتجأوا إلى المتوكل أخى الواثق، فجعلوه خليفة، وهكذا أصبح الأتراك هم الذين يولون الخليفة. توالت الأغلاط السياسية من الخلفاء العباسيين، ففتحت للأتراك أبواب استجلاب أبناء جلدتهم مما وراء النهر، على مقياس واسع، الأمر الذى جعلهم أصحاب عاصمة الخلافة، وأسياد البلاد، يولون الخليفة نفسه، أليس كل هذا بكاف ليشتطوا، فيظنوا أن الأمر وصل إلى أيديهم ولن يخرج منها[1]. وتظهر ملامح تلك السياسة فيما يلى:

أولا: تمسكه بمذهب المعتزلة، حتى جعله المذهب الرسمى للدولة، مما أثار أهل السنة ضده، إلا أنه تصدى لهم وقبض على زعمائهم.

ثانيا: تقريبه للأتراك جريًا على سياسة والده «المعتصم»، حتى إنه قسم البلاد بين رجلين من الأتراك، الأول «أشناس» وأعطاه الشطر الغربى من الدولة إلى آخر «بلاد المغرب»، والثانى قائده «إيتاخ» وأعطاه الشطر الشرقى «دجلة» و«فارس» و«السند»، وكان كل منهما يعين الولاة الذين يريدهم، هذا بالإضافة إلى عدد من القادة الأتراك الذين شغلوا مناصب خطيرة، مثل: «وصيف التركى» الذى أوكل إليه «الواثق» القضاء على ثورة المتمردين الأكراد، و«بغا الكبير» الذى أخمد ثورة الأعراب بنواحى «المدينة». وكان الواثق يغدق عليهم الأموال والهدايا.

---

1 ـ د. يوسف العشى ـ المرجع السابق ص104.

ثالثًا: مصادرة أموال كبار الموظفين، مثل «أحمد بن إسرائيل»، الذى أخذ منه ثمانين ألف دينار، و«سليمان بنوهب» كاتب «إيتاخ»، الذى أخذ منه أربعمائة ألف دينار، وغيرهما، مما ترك آثارًا سيئة فى الجهاز الإدارى والاستقرار المالى للدولة، وأصابهما بالفساد والخلل.

رابعًا: إحسانه إلى بعض طوائف الأمة، وفى مقدمتهم العلويون حيث أغدق عليهم الأموال. استمر «الواثق» فى مقعد الخلافة خمس سنين وتسعة أشهر، ثم أصيب بمرض الاستسقاء، ومات فى ذى الحجة عام 232هـ الموافق يوليو 847م، وعمره اثنان وثلاثون عامًا، وقيل: ستة وثلاثون(1).

تمكن الخلفاء العباسيون الأوائل - وبخاصة السفاح والمنصور - من تذليل جميع المصاعب التى واجهت الدولة العباسية فى بداءة نشأتها، وذلك لما أظهروا من صبر وجلد، وتحلوا بالبساطة والتقشف، دون أن يغتروا بما حققوه من مكاسب، ويقنطوا أمام ما واجههم من تحديدات ومصاعب، حتى نجحوا فى إرساء قواعد بنيان ضخم، فسيح الارجاء، ثابت العمد والأوتاد. ولكن حياة البساطة التى نشأ عليها الخلفاء الأوائل لم تستمر مع الخلفاء الذين خلفوهم، لأنهم ولدوا فى القصور، وشبوا وسط مظاهر التبجيل، واعتادوا منذ نعومة أظافرهم على حياة الترف والسعة. وهكذا انصرف بعض خلفاء العصر العباسى الأول - المتأخرين منهم - إلى إقامة مجالس اللهو والشراب والغناء، وانشغلوا بها عن النظر بأنفسهم فى أمور الدولة، تاركين هذه الشؤون إلى بعض أعوانهم من كبار الموظفين: وزراء كانوا أو قادة. وبدأ الانحلال يدب فى الدولة العباسية. فظهرت عوارضه فى أطرافها نتيجة للخلل الذى اعترى قلبها. وبالرغم من ذلك فقد استمرت الدولة تعيش مدة من الزمان محتفظة بهيبتها بفضل القوة التى منحها إياها المؤسسون، واستمرت

---

1 - د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف - نفس المرجع ص22.

الدولة منطلقة بفضلها حتى ضعفت هذه القوة. فاهتزت صورتها، ودخلت مرحلة جديدة من تاريخها، أعنى بها مرحلة العصر العباسي الثانى الذى اتصف بميزات أهمها[1]:

سيطرة الأتراك:

اشتدت سيطرة الأتراك على الخلافة العباسية فى العصر العباسى الثانى، بعدما ازداد نفوذهم منذ عهد المعتصم. ولم يقتصر هذا النفوذ على عاصمة الخلافة فحسب، بل تعداها إلى الأطراف حينما بدأ الخلفاء العباسيون يمنحون قادتهم الأتراك أقطاع الولايات مقابل مبالغ معينة يدفعونها للخلافة. وقد رأينا كيف أن المعتصم ابتعد بهم عن بغداد، والإقامة معهم فى سامراء ليسلم أهالى بغداد من شرهم، إضافة إلى أن ازدياد نفوذ الأتراك فى الدولة العباسية، وسيطرتهم على الخلافة، أثار موجة من الاستياء لدى العصبيات الأخرى التى كان لها، فى يوم من الأيام، كلمة مسموعة فى تسيير دفة الحكم. فكان استياء العرب، واستياء المشارقة، واستياء الخراسانيين. وعبروا عن استيائهم بالثورات التى اندلعت ضد الخلافة العباسية، والتى استمر بعضها خلف قناع التشيع للعلويين علمًا أن نفوذ الخراسانيين فى العصر العباسى الأول كان قويًا، ومع قوته لم تصل سيطرتهم مطلقًا إلى حد التلاعب بالخلفاء أو عزلهم أو قتلهم، مثلما حدث للخلفاء العباسيين على أيدى الأتراك فى العصر العباسى الثانى، بل على العكس. كان الخلفاء العباسيون فى العصر السابق على درجة كبيرة من القوة والنفذ ونفاذ الكلمة جعلتهم يتخلصون من أى رجل من رجالاتهم يشتمون منه خطرًا على كيانهم ونفوذهم وخير دليل على ما قلناه، ما لاقاه أبو مسلم الخراسانى على يد الخليفة المنصور. وغيره كالبرامكة، والقائد هرثمة بن أعين، والوزير الفضل بن سهل.. إلخ. وشعر

---

1 ـ د. إبراهيم أيوب ـ المرجع السابق ص103 وانظر الطبرى 390/9.

المعتصم فى أواخر أيامه بخطر الأتراك عليه وعلى دولته. فندم - حيث لاينفع الندم - على سياسته الخاصة بتشجيعهم. لأنهم كانوا قد أحكموا سيطرتهم على الخلافة، وتغلغلوا فى كل مرفق من مرافقها. ودليلنا إلى ما ذهبنا إليه من حكم على تسلط الأتراك، أن قائدًا منهم يقال له «أيتاخ» الذى كان فى عهد الخليفة المتوكل مسؤولا عن الجيش واليمنيين والأتراك والموالى والبريد والحجابة ودار الخلافة فأى شىء من مرافق الدولة وأجهزتها الحساسة بقى ولم يكن له ظل عليه وأخيرًا لا آخرًا فقد كان الخليفة المعتز لا يغمض له جفن ولا يخلع سلاحه فى الليل أو فى النهار خوفًا من الأتراك إلى حد اصطناعه المغاربة للتخلص من الأتراك. ولما شعر القواد الأتراك بانتقاص لنفوذهم وأن الخليفة قد يتخلى عنهم، واجهوا الخليفة بإعلان ثورتهم وقبضوا عليه، ثم قتلوه بعد أن مثلوا به.

انعدام هيبة الخلافة:

لم تستطع الخلافة العباسية الاحتفاظ بهيبتها فى الوقت الذى أضحى فيه الخلفاء العوبة بيد قادتهم الأتراك وشبه محجوز عليهم. فكثير من الخلفاء فى العصر العباسى الثانى انتهى أمرهم، إما بالقتل أو بالخلع. وهكذا لم يعد للخلفاء العباسيين فى ذلك العصر من الخلافة إلا الاسم والمظهر. فى حين كان المتسلطون على الخلافة يجمعون فى أيديهم الأمر والنهى. وكان من الطبيعى ألا يحظى الخليفة العباسى بقدر كاف من الاحترام فى سائر أطراف دولته، وغدا رمزًا دينيًا لا أكثر.

تفكك وحدة الدولة وتمرد الأطراف:

أدى ضعف الدولة العباسية فى العصر الثانى إلى عدم احتفاظها بوحدتها وتماسكها، وبالتالى تفككها. إذ استهان الولاة فى الأقاليم بالسلطة

المركزية فى العاصــمة، واستقلت بعض الولايات، وقـامت فيها أسر حـاكمة يتولى أفرادها الحكم عن طريق الوراثة. وإن دانت هذه الدول المستـقلة بالتبعية للخلافة العبـاسية. وإنما كانت تبعيـة اسمية فى معظم الحالات، فـقد تتعدى ذكر اسـم الخليفة في الخطبة، أو إرسـال بعض الأموال إليه. أما ما عدا ذلك، كان حاكمًـا كل دولة يتصرف كما لو كان مـستقلا تمامًا في سيـاسته الداخلية والخارجـية. وبلـغ الأمر عند بعض الحكام أنهم اصطدمـوا حربـيًا بجـيوش الخلافة. وحققوا انتصارات عليها[1] مما ثبت مكانتهم ودعم استقلالهم. وهذا ما يجـعلنا ننظر إلى الدولة العبـاسية لـنجدها مفككة الأوصـال ليس للسلطة المركزية أى سلطات على الولايات والأطراف.

---

1 ـ د. إبراهيم أيوب ـ نفس المرجع ص104.

العصر العباسي الثاني (232 - 656هـ الموافق 847 - 1258م)

امتد العصر العباسي الثاني أكثر من أربعة قرون وقد قسم المؤرخون هذه الفترة إلى أربعة عصور رئيسية هي:

1 - عصر نفوذ الأتراك.

2 - عصر البويهيين.

3 - عصر السلاجقة.

4 - عصر ما بعد السلاجقة

أولا: عصر نفوذ الأتراك (232 - 334هـ الموافق 847 - 945م)

كان المأمون أول من استخدم الأتراك وقربهم، ولكنهم كانوا محدودي العدد والنفوذ في عهده، فلما تولى الخليفة «المعتصم» الحكم جعلهم عنصراً أساسيًا في جيشه، وبلغ عددهم بضعة عشر ألفًا، وكانوا تحت سيطرة الخليفة. وبدأ نفوذ الأتراك يتزايد في عهد «الواثق»، ثم ازداد حدة واتساعًا في عهد الخليفة «المتوكل». ويمتد عصر نفوذ الأتراك إلى ما يزيد قليلا عن قرن من الزمان، تعاقب خلاله على كرسي الخلافة ثلاثة عشر خليفة هم:

1 - المتوكل على الله «جعفر بن المعتصم»

232 - 247 هـ الموافق 847 - 861 م.

2 - المنتصر بالله «محمد بن المتوكل»

247 - 248 هـ الموافق 861 - 862 م.

3 - المستعين بالله «أحمد بن المعتصم»

248 - 252 هـ الموافق 862 - 866 م.

4 - المعتز بالله «محمد أبو عبدالله بن المتوكل»

252 - 255 هـ الموافق 866 - 868 م.

5 - المهتدى بالله «محمد بن الواثق بن المعتصم»

255 - 256 هـ الموافق 868 - 869 م.

6 - المعتمد على الله «أحمد بن المتوكل بن المعتصم»

256 - 279 هـ الموافق 869 - 892 م.

7 - المعتضد بالله «أحمد بن الموفق طلحة بن المتوكل»

279 - 289 هـ الموافق 892 - 901 م.

8 - المكتفى بالله «أبو محمد على بن المعتضد»

289 - 295 هـ الموافق 901 - 907 م.

9 - المقتدر بالله (أبو الفضل جعفر بن محمد»

295 - 320 هـ الموافق 907 - 932 م.

10 - القاهر بالله «أبو منصور محمد بن المعتضد»

320 - 322 هـ الموافق 932 - 934 م.

11 - الراضى بالله «أبو العباس محمد بن المقتدر بن المعتضد»

322 - 329 هـ الموافق 934 - 942 م.

12 - المتقى بالله إبراهيم بن المقتدر بن المعتضد

329 - 333 هـ الموافق 941 - 945 م.

13 - المستكفى بالله «أبو للقاسم عبد الله بن المكتفى»

333 - 334 هـ الموافق 945 - 946 م.

(10) المتوكل على الله: 232 - 846/247 - 861

بدأ العصر العباسي الثاني أو عصر نفوذ الأتراك من عام 232هـ الموافق 846م وفيه ظهر ضعف الخلافة العباسية بوضوح، وأخذت مكانتها تضمحل في نظر الدول المعاصرة مجاورة كانت أو غير مجاورة، إسلامية كانت أو غير إسلامية. ولم يبق في قبض الخلفاء العباسيين سوى العراق وفارس والأهواز وحتى هذه النواحي طفحت بالإضطرابات والفتن. وآل الأمر إلى أن قبض على زمام الأمور في العاصمة أمير تركي أو ديلمي أطلق عليه اسم أمير الأمراء، أصبح هو الحاكم الفعلي للدولة وبيده الأمر والنهي. تولى الخلافة في هذا العصر إثنا عشر خليفة هم: المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر والقاهر والمتقي والمستكفي حكموا جميعًا مائة سنة وستين. ومن هؤلاء الخلفاء انتهى أربعة خلفاء نهاية حادثة طبيعية، في حين انتهى أمر الثمانية الباقين إما بالقتل أو بالخلع.

وقد تولى الخلافة في ذي الحجة عام 232هـ الموافق 847م، وكان عهده بداية حقبة الضعف والتدهور، وتفكك بنيان الخلافة العباسية. واستمر حكم جعفر المتوكل على الله نحو خمسة عشر عامًا. ورغم أن «المتوكل» كان قويًا الشخصية، وافر الهيبة فإنه لم يستطع أن يضع حدا لاستفحال النفوذ التركي في عهده، الذي كان له دور في توليته الخلافة بعد أن كادت البيعة تتم لمحمد بن الواثق، وكان غلامًا. وقد نجح «المتوكل» في البداية في التخلص من أخطر العناصر التركية في عهده، وهو «إيتاخ» الذي استفحل خطره حتى إنه هم يومًا بقتل الخليفة «المتوكل» حين تبسط معه في المزاح، لكن الخليفة نجح في التخلص منه عام 235هـ الموافق 849م، كما عزم على التخلص من قادة الأتراك ووجوههم، مثل «وصيف» و«بغاء» إلا أنهم استغلوا ما بينه وبين ابنه وولي عهده «محمد المنتصر» من خلاف وجفوة ودبروا مؤامرة انتهت بقتل

«المتوكل» ووزيره «الفتح بن خاقان» فى الخامس من شوال عام 247 هـ الموافق 861م، وبايعوا ابنه «المنتصر» خليفة. وقد استطاع «المتوكل» فى عهده أن يظفر بمكانة عظيمة فى قلوب جماهير المسلمين، حين منع النقاش فى القضايا الجدلية التى آثارها المعتزلة، مثل قضية خلق القرآن، كما رد للإمام «أحمد بن حنبل» اعتباره وجعله من المقربين إليه، بعد أن اضطهد فى عهد «المأمون» و«المعتصم» و«الواثق»؛ لعدم إقراره القول بخلق القرآن، كما أمر «المتوكل» الفقهاء والمحدثين أن يجلسوا للناس ويحدثوهم بالأحاديث التى فيها رد على المعتزلة فأثنى الناس عليه، الخلفاء ثلاثة: «أبو بكر الصديق» قاتل أهل الردة حتى استجابوا له، و«عمر بن عبدالعزيز» رد مظالم «بنى أمية»، و«المتوكل» محا البدع وأظهر السنة. وأكثر فى مجالسه من المضاحك والمهازل والمغانى.

عمل المتوكل على إضعاف القواد الترك بعدما لمس ازدياد نفوذهم واستبدادهم بالأمور واستئثارهم بالأموال. وبدأ بالقائد «إيتاخ» الذى جمع فى قبضته أكثر مناصب الدول الكبرى، فقبض عليه وسجنه إلى أن مات فى سجنه، وفكر فى التخلص من نفوذ الأتراك بنقل عاصمته من سامراء ـ التى أنشئت لتكون مقرًا لغلمان الأتراك وأجنادهم ـ إلى دمشق، وفعلا انتقل إليها ومعه الدواوين. لكن غلمان الأتراك وأجنادهم أثاروا الشغب ضد عمل المتوكل هذا واتهموه بالتخلص منه والاستعانة بالعرب عليهم. وما زالوا به حتى أرغموه على العودة إلى سامراء متحججًا بحجة واهية، وهى أن هواء دمشق لم يعجبه. شهد عهد المتوكل عدة اضطرابات فى جميع أنحاء الدولة كما أسلفنا، إلا أن أقواها كان فى أرمينيا وأذربيجان. كما قامت فى صنعاء باليمن حركة انفصالية استطاعت أن تستقل بنجد باليمن عام 247هـ الموافق 861م، وأسست دولة عرفت بالدولة اليعفرية نسبة إلى مؤسسها «يعفر بن عبدالرحيم» واستمرت هذه الدولة قائمة حتى عام 387هـ الموافق 997م تشبه المتوكل بجده هارون الرشيد فى ولايته، إذ جعلها لأولاده الثلاثة:

المنتصر والمعتز والمؤيد، وذلك عام 235هـ الموافق 849م، كما قسم البلاد بينهم. «وعقد لكل واحد لواءين: أحدهما أسود وهو لواء العهد، والآخر أبيض وهو لواء العمل». وبسبب محبته لزوجته قبيحة رأى أن يقدم ابنه ـ المعتز ـ منها على أخويه المؤيد والمنتصر. فلم يرض بذلك المنتصر، ودبر مؤامرة مع الأتراك لإغتيال أبيه. ونجحت المؤامرة لأن الأتراك أوجسوا خيفة من نوايا المتوكل تجاههم، والتفوا حول «بغا الصغير» و«باغر التركى»، ونفذوا جميعًا ما اتفقوا عليه مع المنتصر فقتلوا المتوكل فى أوائل شوال عام 246هـ الموافق 861م.

(11) المنتصر بالله: 247 ـ 248 /861 ـ 862م.

تولى الخلافة فى اليوم الذى قتل فيه أبوه، وذلك فى شوال سنة 247هـ الموافق ديسمبر 861م، وعمره ستة وعشرون عامًا. وحاول التصدى للنفوذ التركى بكل حزم، وصار يسب الأتراك ويقول: هؤلاء قتلة الخلفاء! ورغم أن «المنتصر بالله» كان وافر العقل قوى الشخصية فإن الأتراك احتالوا على قتله، فأعطوا طبيبه «ابن طيفور» ثلاثين ألف دينار، ففصده بمبضع مسموم فمات، فى ربيع الآخر عام 248هـ الموافق يونيو 862م، بعد حكم دام ستة أشهر فقط، ويروى أنه حينما احتضر، قال لأمه: «يا أماه! ذهبت منى الدنيا والآخرة، عاجلت أبى فعوجلت». ومن مآثر «المنتصر بالله» خلال فترة حكمه القصيرة، إحسانه إلى العلويين، وإزالته عنهم ما كانوا فيه من خوف وضيق فى عهد أبيه «المتوكل».

(12) المستعين بالله: 248 ـ 252 /862 ـ 866م.

هو «أحمد بن المعتصم»، تولى الخلافة فى السادس من ربيع الآخر عام 248هـ الموافق يونيو 862م، وعمره ثمان وعشرون سنة، فعقب وفاة «المنتصر»

اجتمع الأتراك بزعامة «بغا الصغير» و«بغا الكبير»، وقرروا عدم تولية أحد من أولاد «المتوكل» الخلافة، خوفًا من انتقامه منهم، وبايعوا «أحمد بن المعتصم»، الملقب بالمستعين بالله. وكان من الطبيعي ألا يكون للمستعين بالله مع الأتراك أمر ولا نهى، ولم يمض وقت طويل حتى غضب عليه الأتراك وقرروا خلعه ومبايعة «المعتز بالله محمد بن المتوكل»، فاشتعلت الحرب بين أنصار «المستعين» وأنصار «المعتز»، وانتهت بالقبض على «المستعين» وقتله في سجنه في شوال عام 252هـ الموافق ديسمبر 866م.

لم يمض وقت طويل حتى دب الخلاف بين زعماء الأتراك على النفوذ. فلم يرض «وصيف» و«بغا» عن استئثار «أتامش» بالسلطة والنفوذ، فدبرا له مؤامرة ونجحا في قتله عام 249هـ الموافق 863م. وحتى ينفردان بالسلطة من دون بقية الزعماء الأتراك اتفقا على قتل «باغر» في الوقت الذى كان هو الآخر يدبر لقتل «بغا» و«وصيف» والخليفة المستعين بالله. وحالفهما الحظ ونجحا أيضًا في قتل «باغر»، فهاج أصحابه هياجًا شديدًا وهددوا بالانتقام من قتله. فلم يكن من مجال أمام «بغا» و«وصيف» إلا أن صحبا المستعين بالله، وفروا إلى بغداد عام 251هـ الموافق 865م، وأنزلا الخليفة بدار محمد بن عبد الله بن طاهر، ثم لحق بالخليفة فريق من الأتراك أصحاب «باغر» إلى بغداد واعتذروا له عما بدر منهم، وطلبوا منه العودة إلى سامراء، فامتنع عن تلبية رغبتهم عندها انصرفوا غاضبين، وأجمعوا على مبايعة ابن عمه المعتز بن المتوكل. وكان الأخير وأخوه المؤيد في الحبس، وأخرجوهما وبايعوا المعتز بالخلافة، وجعلوا لأخيه ولاية العهد. وبانقسام زعماء الأتراك، انقسمت الدولة العباسية بين: سامراء وبها المعتز الذى ولاه الأتراك أصحاب «باغر» بدلا من المستعين بالله، وبغداد وفيها المستعين يشد أزر «بغا» و«وصيف» ومن معهما. وهكذا عمل محمد بن عبدالله بن طاهر على تحصين بغداد ومنع

«المبرة» من سامراء. ثم كانت الحرب بين الطرفين عام 251هـ الموافق 865م. التي استمرت عدة أشهر تضايق بسببها أهل بغداد. ولما طلب المستعين بالله مساعدة محمد بن عبد الله بن طاهر خذله ومال إلى المعتز، فحلت الهزيمة به وأبعد إلى واسط حيث اختير أحمد بن طولون ليصحبه ويرعى شئونه. لكن جماعة القائد «باغر» لم يطمئنوا إلى بقاء المستعين بالله على قيد الحياة، فدبروا له مكيدة انتهت بمقتله عام 252هـ الموافق 866م[1].

وشهدت خلافة «المستعين بالله» قيام «الدولة العلوية» بطبرستان عام 250هـ الموافق 864م، على يد «الحسن بن زيد العلوي» الملقب بالداعي الكبير، واستمرت هذه الدولة حتى عام 316هـ الموافق 928م[2].

(13) المعتز بالله محمد بن المتوكل 252 - 255هـ الموافق 866 - 868م:

بويع له بالخلافة في شوال عام 252هـ الموافق ديسمبر 866م، وعمره تسعة عشر عامًا، وقد استضعفه الأتراك وطلبوا منه مالا فاعتذر لهم بفراغ بيت المال، فثاروا عليه.

وقال ابن طباطبا: بويع بالخلافة عقب خلع المستعين. ولم يكن بسيرته ورأيه وعقله بأس، إلا أن الأتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملكة واستضعفوا الخلفاء. كان الخليفة في يدهم كالأسير إن شاؤوا أبقوه، وإن شاؤوا خلعوه، وإن شاؤوا قتلوه». فقد قضى المعتز قرابة الثلاث سنوات ونصف السنة في الخلافة 252 ـ 255هـ الموافق 866 ـ 889م. ولم يكن له فيها أي أمر، لأن الأتراك كانوا أصحاب النفوذ والسلطان، ولا حيلة معهم إلا مراعاة جانبهم حينًا ومحاولة الدس لبعض من يخشى بأسه منهم أحيانًا. ولما

---

1 ـ د. إبراهيم أيوب ـ المرجع السابق ص109 وانظر ـ الطبري 354/9.

2 ـ د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف ـ المرجع السابق ص39.

كان المغاربة الذين اصطنعهم المعتصم مثلما اصطنع الأتراك يشكلون فريقًا مهمًا يحقد على الأتراك لتسلطهم وعلو كلمتهم، فقد تصدى المغاربة للأتراك، وقالوا لهم: «كل يوم تقتلون خليفة وتخلعون آخر وتقتلون وزيرًا». فاشتدت الفتنة بين طوائف الجند والخليفة عاجز عن أن يفعل شيئًا في الوقت نفسه الذي احتدمت المنافسات بين زعماء الأتراك أنفسهم. ولم يسلم المعتز نفسه من طوائف الجند، إذ تآمر عليه جميع الطوائف وذهب الجنود إليه، وقالوا: «أعطنا أرزاقنا». وبما أن بيت المال كان خاليًا، أرسل الخليفة المعتز إلى أمه قبيحة - كانت ذات ثروة طائلة - يسألها أن تعطيه مالا يستعين به على مطالب الجند. فأنكرت أن يكون عندها شيء من المال. عندها اتفق الجند من أتراك ومغاربة على خلع المعتز. وفي ذلك يقول ابن الأثير «فدخل إليه جماعة منهم، فجروه برجله إلى باب الحجرة، وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه وأقاموه في الشمس من الدار، فكان يرفع رجلا ويضع أخرى لشدة الحر، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده. وسلموا المعتز إلى من يعذبه، فمنعه الطعام والشراب ثلاثة أيام، فطلب جرعة من ماء البئر فمنعوه، ثم أدخلوه سردابًا وحصصوا عليه، أي جعلوه في بيت وسدوا بابه، فمات».

وكان من أهم الأحداث التي شهدتها خلافة «المعتز» قيام «الدولة الصفارية» في «فارس» بزعامة «يعقوب بن طولون» إلى «مصر» عام 254هـ الموافق 868م نائبًا عن واليها، لكنه استطاع في فترة لاحقة أن يستقل بها عن العباسيين، وأن يضم إليها «الشام» مكونًا بذلك «الدولة الطولونية» في «مصر» و«الشام».

وقد كان من أهم الأحداث التي شهدها عصر «المعتز بالله»:

ثورة الزنج:

وسميت بذلك لأن أعدادًا كبيرة من الذين شاركوا فيها كانوا عبيدًا سودًا، واندلعت هذه الثورة في «البصرة» بزعامة «علي بن محمد»، الذي قيل إنه ينتسب إلى آل البيت، وحققت مكاسب سياسية ومادية؛ فاستولت في مدة قصيرة على بعض المدن المهمة في «العراق»، مثل «البصرة» و«واسط» و«الأهواز»، ووصلت إلى «البحرين» و «هجر»، وارتكبت مذابح بشعة ضد السكان الآمنين، وقد استطاع القائد العباسي «الموفق طلحة بن المتوكل» القضاء على هذه الثورة - فيما بعد - عام 270هـ الموافق 883م، في خلافة أخيه «المعتمد على الله».

(14) المهتدي بالله محمد بن الواثق، 255 - 256 الموافق 868 - 869م

بايع الأتراك «المهتدي بالله» خليفة للمسلمين في رجب عام 255هـ الموافق يونيو 869م، عقب الإطاحة بالمعتز. وقد كان «المهتدي» تقيًا شجاعًا حازمًا، وكان يتخذ «عمر بن عبدالعزيز» مثله الأعلى، ويقول: إني أستحيي أن يكون في «بني أمية» مثله، ولا يكون مثله في «بني العباس»، ولذلك نبذ الملاهي وحرم الغناء والخمور وحارب الظلم.

واجهت المهتدي مشاكل كثيرة بالرغم من قصر مدة خلافته. ذلك أن الجند ثاروا عليه بسبب استيلاء أمير بغداد على رواتبهم. كما ثار عليه العلويون في طول البلاد الإسلامية وعرضها. ومنهم الحسن بن زيد العلوي الذي ثار بطبرستان وفي أيامه، ثار صاحب الزنج فهدد الدولة العباسية زهاء أربعة عشر عام 255 - 270هـ الموافق 866 - 880م وقد كان الزنج يكسحون السباخ فنجحوا بقيادة علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد علي بن أبي

طالب عليهم السلام في اجتياح أراض واسعة ونهب الأهواز، والبصرة وواسط قبل أن يقضي عليهم الموفق (طلحة) شقيق الخليفة المعتمد على الله 256 ـ 279هـ الموافق 869 – 892م. واتخذت ثورة أحمد بن عيسى بن الشيخ الذي كان أبوه واليًا على فلسطين والأردن شكل الحركة الانفصالية عن الخلافة العباسية. إذ لما مات والده تغلب على دمشق وامتنع عن حمل المال إلى بيت المال العباسي، وأخذ يطمع في الاستيلاء على بقية بلاد الشام بل ومصر أيضًا. ولم يستطع الخليفة المهتدى إخضاعه إلا بعد جهد وعن طريق استخدام المكايد. وبلغت الدولة العباسية، في أيام المهتدى درجة أصبح من الصعب إصلاح أمورها بسيرته الحسنة وأخلاقه الطيبة. الأمر الذى أصبح مع المهتدى العوبة في أيدى الأتراك. وصور الطبرى ضعف الخلافة العباسية آنذاك بقوله: «رفع المهتدى يديه إلى السماء، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه «اللهم إني أبرأ إليك من فعل موسى بن بغا» واخلاله بالثغر وإباحته العدو. فإني قد أعذرت فيما بيني وبينه. اللهم تولى كيد من كايد المسلمين. اللهم إني شاخص بنيتي واختيارى إلى حيث نكب المسلمون فيه، ناصرًا لهم ودافعًا عنهم. اللهم فآجرني بنيتي إذ عدمت صالح الأعوان. ثم انحدرت دموعه وبكى..» ولما اشتد الضيق بالخليفة من استبداد موسى بن بغا الذى التف حوله الجند حاول أن يتخلص منه بالحيلة عن طريق استمالته أحد قواد الجيش المدعو «بكباك» لكن بكباك هذا لم يثق بالمهتدى، واتفق مع موسى بن بغا على عزله وقتله. وفعلا خلعوه واستمروا يعذبونه حتى مات في عام 256هـ الموافق 870م[1].

1 ـ د. إبراهيم أيوب ـ المرجع السابق ص112.

(15) المعتمد على الله، وصحوة الخلافة: 256 ـ 279 الموافق 869 ـ 892

تولى «المعتمد على الله أحمد بن المتوكل» الخلافة بعد خلع «المهتدى» عام 256هـ الموافق 870م)، وقد أتاحت الظروف التي تولى فيها «المعتمد» مقاليد الحكم ظهور ما عرف باسم «صحوة الخلافة» في «العصر العباسي الثاني». فقد تصاعد النزاع الداخلى بين القادة الأتراك، وساءت معاملتهم لجنودهم، كما ازدادت شكوى الجمهور من مضايقاتهم، مما أدى إلى ظهور اتجاه داخل الجيش بحتمية جعل القيادة العسكرية العليا في يد أحد أمراء البيت العباسي؛ يقوم الخليفة باختياره، ويدين له الجميع بالطاعة، وقد اختار «المعتمد» أخاه «الموفق» قائدًا للجيش، فكانت «صحوة الخلافة»؛ حيث استردت قوتها وهيبتها واستطاع «الموفق» بحكمته وحزمه وصلابة إرادته أن يكبح جماح الأتراك، وأن يعيد تنظيم الجيش، ويقر الأمن والنظام. ورغم أن «المعتمد بالله» كان الخليفة الرسمي فإن أخاه «الموفق» كان صاحب السلطة الفعلية، فكان له الأمر والنهي، وقيادة الجيش ومحاربة الأعداء، ومرابطة الثغور، وتعيين الوزراء والأمراء، وكان قضاء «الموفق» على «ثورة الزنج» عام 270هـ الموافق 883م أعظم إنجاز له[1].

وقد توفي «الموفق» في صفر عام 278هـ الموافق مايو 891م، وفي العام التالي توفي الخليفة «المعتمد» في رجب عام 289هـ الموافق سبتمبر 892م، بعد أن حكم البلاد ثلاثة وعشرين عامًا. وقد حفل عهده بالعلماء الأعلام في مجالات المعرفة المختلفة.

---

1 ـ د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف ـ المرجع السابق ص39.

(16) المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق: 279-289 الموافق: 982-901

تسلم أبو العباس أحمد بن الموفق الخلافة بعد وفاة المعتمد على الله. وقد وصفه ابن الأثير بأنه كان «شهمًا شجاعًا مقدامًا، وكان ذا عزم وفيه شح». لذلك كان شديد الوطأة، قليل الرحمة، حتى إذا غضب على قائد من قواده أمر بإلقائه في حفرة وردم عليه. عرفت الأوضاع الداخلية للدولة العباسية في عهده بعض الإضطراب بسبب قلق العرب من سيطرة الأتراك. فكان أن عاث بنو شيبان في الجزيرة فسادًا، الأمر الذى جعل الخليفة المعتضد يتولى بنفسه حملة لتأديبهم، فنهب أموالهم وقتل منهم عددًا كبيرًا. وما أن انتهى من القضاء على بني شيبان في الجزيرة حتى خرج عام 281هـ الموافق 894م للاستيلاء على قلعة ماردين التي أخذها عنوة حمدان بن حمدون ـ جد الأسرة الحمدانية ـ فكان له ما أراد وهدم القلعة المذكورة بعد أن قبض على حمدان. في الوقت نفسه استفحل أمر خارجي هو هارون الشارى بأرض الجزيرة وتغلب على جيوش الخليفة التي أرسلت لحربه، عندها اختار الخليفة للقضاء عليه حسين بن حمدان ـ مغتصب قلعة ماردين ـ فقال له حسين: «إن جئت به فى ثلاث حاجات عند أمير المؤمنين، إحداهما: إطلاق سراح أبى، وحاجتان أذكرهما بعد مجيئي. فوافق المعتضد على ذلك. وذهب حسين بن حمدان إلى الجزيرة وبدأ مطاردة الخارجي هارون الشارى إلى أن تمكن منه. عندئذ خلع عليه المعتضد بالله بعض الهدايا، وأمر بإطلاق سراح أبيه. فكان ذلك بداءة ظهور الأسرة الحمدانية. كذلك قام المعتضد برد غارات القرامطة الذين أغاروا من البحرين وسواحل أهواز بزعامة أبي سعيد الحسن الجنانى على إقليم البصرة عام 387هـ الموافق 900م بعدما حلت بالمنطقة خسائر جسيمة لم تمنع الأحداث المعتضد بالله من التفكير بإصلاح الإدارة ولا سيما نظام الجباية، فهو من أجل ذلك يعمل على تغيير التقويم المتبع للتوفيق بين التقويم

الهلالي والتقويم الشمسي. فمن المعروف أن المسلمين كانوا يستعملون السنة الهلالية لأن عباداتهم - ومنها الحج والصوم - تسير وفقها. وبما أن جباية الخراج تكون عند نضوج الغلات والثمار، التي لايتغير وقتها ويتحد بالسنة الشمسية. لذلك كان لابد من التوفيق بين السنة الخراجية والسنة الهلالية. وهذا التوفيق حصل بعدما رأى المسلمون أن كل 22 سنة شمسية تساوي تقريبًا 33 سنة هلالية. فعملوا كلما مرت 32 سنة هلالية على إضافة سنة على السنة الخراجية. ففي عام 241هـ الخراجية مثلا، نسب الخراج إلى عام 242 الهلالية وأسقطت عام 241هـ لأن الغلة إنما حان أوانها عام 242هـ. وقد كتب المعتضد إلى عماله في العراق والمشرق يطلب إليهم تطبيق هذه الطريقة علمًا أن جباية الخراج في مصر كانت تتم وفق الشهور القبطية، وفي الشام وفق الشهور الرومية، وكلاهما ثابت لا يتغير لأنهما يعتمدان نظام السنة الشمسية.

ولما كان عيد النورز من الأعياد التي اهتم العباسيون بالاحتفال بها مع الفرس، فقد أمر المعتضد أن يكون النوروز على حساب شهور الروم حتى لا يتقدم موعده ولا يتأخر. إشارة أخيرة لا بد لنا من ذكرها، وهي أن المعتضد بالله انتقل من مركز خلافته في سامراء إلى بغداد، فكان ذلك بداءة عهد أفول نجمها وخرابها بعدما بلغت درجة من الحسن والجمال نافست بها بغداد. وتوفي المعتضد بالله في ربيع الآخر عام 289هـ الموافق 902م بعد أن ولي الخلافة بعده ابنه أبو محمد الملقب بالمكتفي بالله[1].

تولى الخلافة بعد وفاة عمه «المعتمد»، وكان قوي الشخصية، فحفظ هيبة الخلافة، كما كانت في عهد أبيه «الموفق» وعمه «المعتمد»، يقول «السيوطي»: كان «المعتضد» شهمًا جلدًا، موصوفًا بالرجلة (أي الشجاعة)، وقد خاض الحروب وعرف فضله، فقام بالأمر أحسن قيام، وهابه الناس

1 ـ د. إبراهيم أيوب ـ المرجع السابق ص120.

ورهبوه أحسن رهبة، وسكنت الفتن في أيامه لفرط هيبته، وكانت أيامه طيبة كثيرة الأمن والرخاء. وقد تمكن «المعتضد» خلال حكمه الذي دام عشر سنوات من تهيئة المزيد من القوة والاستقرار للدولة العباسية، فقضى على مصادر الفتن والثورات، وأخمد ثورة «بني شيبان» بأرض الجزيرة عام 280هـ الموافق 893م، وثورة «حمدان بن حمدون» ـ رأس الأسرة الحمدانية ـ بالموصل، واستولى على قلعة «ماردين» التي كان يتحصن بها عام 281هـ الموافق 894م، كما قضى على ثورة الخوارج في «الموصل» بزعامة «هارون بن عبدالله الشاري» الذي وقع في الأسر، وأمر «المعتضد» بضرب عنقه عام 283هـ الموافق 896م، ومن أخطر الحركات التي شهدها عصر «المعتضد»:

حركة القرامطة:

وترجع بداية هذه الحركة إلى عام 278هـ الموافق 891م، قبل تولي «المعتضد» الخلافة بعام، حين قدم إلى «الكوفة» رجل اسمه «حمدان» ولقبه «قرمط»، تظاهر بالعبادة والتقشف والدعوة إلى إمام من آل البيت، فلقيت دعوته صدى كبيراً عند أنصار آل البيت. وقد اشتد خطر هذه الحركة بعد ظهور زعيمها «أبي سعيد الجنابي» في «البحرين» عام 286هـ الموافق 899م؛ حيث استطاع بسط سلطانه على «البحرين» و«هجر» وكسب أنصار كثيرين له في المناطق التي ينتشر فيها التشيع[1]. وقد تحولت «البحرين» إلى مركز رئيسي للقرامطة، خرجت منه حملاتهم الحربية في اتجاه «العراق» و«الحجاز» و«الشام»؛ لنشر أفكارهم التي تهدف إلى بسط نفوذهم بواسطة العامة بمبادئ وشعارات، كالعدالة والمساواة والبساطة، ومساعدة الآخرين، ولم تدرك الخلافة العباسية مدى الخطورة التي تنطوي عليها هذه الحركة، ووجهت جهودها الحربية إلى حركات أخرى تبدو أكثر منها خطورة، مثل الحركة

---

1 ـ د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف ـ نفس المرجع ص42.

الصفارية والطولونية وغيرهما، ومن هنا لم تظفر هذه الحركة من الخليفة «المعتضد» ـ الذى عاصر بدايتها الأولى ـ بما تستحقه من اهتمام.

انتقال عاصمة الخلافة إلى بغداد:

ظلت مدينة «سامراء» أو «سر من رأى» عاصمة الخلافة العباسية منذ حوالى عام 221هـ الموافق 836م ـ في خلافة «المعتصم بالله» ـ إلى أوائل خلافة «المعتضد» الذى بنى «القصر الحسنى» ببغداد، وقرر انتقال عاصمة الخلافة إليها عام 280 هـ الموافق 893م.

توفى «المعتضد» في ربيع الآخر عام 289هـ الموافق 902م، وكان عصره يموج بالحركة العلمية والدينية والأدبية، فقد عاش فى عصره عدد من العلماء والأدباء البارزين.

(17) المكتفي بالله علي بن المعتضد: 289 ـ 295 /902 ـ 908:

تولى الخلافة في ربيع الآخر عام 289هـ الموافق مارس 902م عقب وفاة أبيه، وعمره خمس وعشرون سنة، ورغم أنه كان حسن السيرة محبوبًا لدى الرعية فإنه لم يكن يتمتع بما كان يتمتع به أبوه «المعتضد»، من قوة الشخصية والحزم، فكانت خلافته تمهيدًا لعودة الأمور إلى أوضاعها السابقة، وفترة انتقالية بين «صحوة الخلافة» وانتكاستها. وقد شهد عهد «المكتفى» أحداثًا كثيرة، منها: ازدياد خطر القرامطة وتهديدهم للشام و«الحجاز» و«اليمن». ومما شهده عصر «المكتفى» أيضًا من أحداث: تولية «المكتفى» «أبي الهيجاء عبدالله ابن حمدان التغلبى» ولاية «الموصل» والبلاد التابعة لها عام 293هـ الموافق 906م، وكان ذلك مقدمة لاستقلال الحمدانيين بالموصل ـ فيما بعد ـ وضمهم «حلب» إليها، ونشأة «الأسرة الحمدانية».

لم تكد تنتعش الدولة العباسية في عهد المعتضد بالله وأخيه طلحة الناصر - الموفق - الذى استبد بشئون الحكم بين 256 - 279هـ الموافق 870 - 892م، وابنه المعتضد بالله، حتى بدأت ظواهر الضعف تظهر بظهور المنافسات بين ذوى التفوذ فيها أمثال وزيرة القاسم بن وهب وبن بدر - قائد جيش المعتضد بالله المستولى على أمره، المطاع فى خدمه وغلمانه - فتركت أثرًا سيئًا فى أحوال الخلافة شجعت أوضاع الخلافة القرامطة على الفساد، فعاثوا تخريبًا فى الشام والبحرين والعراق وطريق مكة. وقد انتشروا بزعامة بن زكرويه الملقب بـ «الشيخ» حول بغداد والبصرة، واشتد خطرهم، وكثر فسادهم، حتى أنهم أحرقوا مسجد الرصافة. كما اشتد خطر القرامطة فى الشام بعد ما أنزلوا الهزيمة بقوات الطولونيين. وتزعم القرامطة بالشام الحسين بن زكرويه - أخو يحيى -، فأظهر شامة فى وجهه، وزعم أنها آية له، فلقب بـ «ذى الشامة» وسمى بـ «أمير المؤمنين» بين عامى 289 - 290هـ الموافق 902 - 903م. ولم يسلم من يده صبيان المكاتب لكثرة ما ارتكب من أعمال قتل. فما كان من أهل الشام إلا أن رفعوا شكواهم ضدة إلى الخليفة المكتفى بالله الذى عاجل بالتوجه إلى الشام عن طريق الموصل على رأس قوة من رجاله الأشداء الذين طاردوا أبا شامة حتى قبضوا عليه عام 290هـ الموافق 903م مع عدد كبير من رجاله. عندها هب والد يحيى ذى الشامة - وهو زكرويه - لإخلاء ابنه وفك أسره. فجمع زكرويه - رأس الفتنة - طوائف من أعراب البادية، وأغار بهم على «بصرى» و«أذرعات» بالشام، فارتكب كثيرًا من أعمال العنف. وفى يوم عيد النحر - الأضحى - من عام 293هـ الموافق 906م، أغار زكرويه ورجاله على الكوفة، عند انصراف الناس من صلاة العيد، فنهبوا وقتلوا كثيرًا. وأغار القرامطة أيضًا عام 294هـ الموافق 907م على قوافل الحجاج الخراسانيين والعراقيين العائدين من مكة، فنهبوا أموالهم

وأقواتهم وثيابهم. أبدى أهل بغداد استياءهم من هذه الأعمال، فأرسلت الجيوش العباسية لمحاربة القرامطة، فتمكنت، بعد قتال طويل، من قتل زعيمهم زكرويه عام 294هـ الموافق 907م وفر رجال في أكثر من اتجاه. أخذت العلاقات العباسية ـ البيزنطية بين الدولتين طابع المسالمة حينًا والعداء أحيانًا فى عهد المكتفى بالله. ففى سنة 290هـ الموافق 903م وصلت رسل إمبراطور بيزنطية يسألون الخليفة العباسى المفاداة بمن فى أيدى المسلمين من الأسرى ومعهم هدايا. فتم الفداء عام 293هـ الموافق 906م. وكانت جملة من فودى المسلمين نحو 1200 أسير. . وكما ذكرنا أعلاه، لم تدم هذه العلاقات الطيبة بين الدولتين إذ توجه جيش إسلامى عام 291هـ الموافق 904م من طرسوس لمهاجمة أنطاكية التى كانت تعد من أهم الثغور البيزنطية البحرية. فتمكن المسلمون من فتحها وقتل وأسر عدد كبير من أهلها كما استولوا على ستين مركبًا للبيزنطيين. وتمت مفاداة ثانية فى عهد المكتفى بالله عام 295هـ الموافق 908م، فبلغ عدد من فودى به من المسلمين ثلاثة آلاف نفس من الرجال والنساء. وتوفى المكتفى بالله في ذى الحجة عام 295هـ الموافق 908م، فخلفه أخوه المقتدر بالله[1].

توفى «المكتفى» وفاة طبيعية فى ذى القعدة عام 295هـ الموافق أغسطس 908م، وترك خزانة الدولة ممتلئة بالأموال، وقد أرجع المؤرخون ذلك إلى الجهد الذى بذله أبوه «المعتضد» فى جلب أسباب الاستقرار الاقتصادى إلى الدولة، وحسن سيرة «المكتفى بالله».

1 ـ د. إبراهيم أيوب ـ المرجع السابق ص122.

(18) المقتدر بالله جعفر بن المعتضد: 295 ـ 320 الموافق: 907 ـ 932

تولى الخلافة بعد أخيه «المكتفى» بعهد منه فى ذى القعدة عام 295هـ الموافق أغسطس 908م، وكان صبيًا فى الثالثة عشرة من عمره، ولم يل الخلافة قبله أصغر منه. أثار تولى «المقتدر» الخلافة اعتراض كثير من رجال الدولة بسبب صغر سنه، وعدم قدرته على الاضطلاع بشئون الخلافة مع وجود الأقدر منه على تحمل المسئولية، خاصة «عبد الله بن المعتز» الشاعر المعروف بتمام العقل وجودة الرأى، فاتفق رأى عدد منهم على خلع «المقتدر» وتوليه «عبد الله بن المعتز»، وكان عمره نحو تسعة وأربعين عامًا، وعندما عرضوا الأمر على «ابن المعتز» وافق بشرط ألا يسفك دم أو تنشب حرب، فأخبروه أن الأمر يسلم إليه عفوًا، وأن جميع من وراءهم من الجند والقواد والكُتَّاب قد رضوا به فبايعهم على ذلك، وتمت البيعة لابن المعتز فى (19 من ربيع الأول عام 296هـ الموافق نوفمبر 908م)، ولقب بالراضى بالله، ولكن أنصار «المقتدر» ـ وعلى رأسهم «مؤنس الخادم» ـ لم يرضوا بهذه البيعة، وتوجهوا نحو «ابن المعتز» وأنصاره وقبضوا عليهم وفتكوا بهم وأعادوا تنصيب «المقتدر» فى اليوم التالى لبيعة «ابن المعتز» الذى لم يمكث فى الخلافة إلا يومًا أو بعض يوم، ولهذا يتجاهله المؤرخون عند ذكرهم قائمة خلفاء «بنى العباس».

وبالرغم مما وصفه به ابن طباطبا من أنه كان «سمحًا كريمًا كثير الإنفاق»، فإنه بقى مغلوبًا على أمره طوال مدة خلافته، وحتى أنه خلع مرتين. وفى ذلك يقول ابن طباطبا أيضا «واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخليط كثير لصغر سنه ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه. فكانت دولته تدور أمورها على تدبير النساء والخدم، وهو مشغول بلذاته، فخربت الدنيا فى أيامه وخلت بيوت الأموال واختلفت الكلم فخلع ثم أعيد ثم قتل».

ويبدو أن مقاليد الأمور كانت بيد أمه صاحبة النفوذ القوى، التى كانت تسمى «السيدة». والتى كانت إذا غضبت من أحد الوزراء فإن مصيره كان العزل. وبلغ بها الاستهتار أن عينت قهرمانتها «تومال» على رأس ديوان المظالم. الأمر الذى أدى إلى استخفاف العامة بالدولة. وتفشت الرشوة فى عهد المقتدر، حتى صارت الوزارة تؤخذ بالرشوة، بعدما تدخل، فى أمر تعيين الوزراء، الخدم والحاشية والنساء، فتقلدها بعضهم مرتين وثلاثًا. ولم يكن الصالح من الوزراء يبقى مدة طويلة فى الوزارة لأن بقاءه لايتوقف على صلاحيته للعمل بقدر ما يتوقف على رضاء أم الخليفة وقهرماناتها وخدم الدار الذين لا هم لهم سوى الحصول على المال بالطرق المشروعة وغير المشروعة وكان من الطبيعى أن يشتد خطر البيزنطيين على الدولة العباسية، فأغاروا عام 303هـ الموافق 915م على ثغور المسلمين فى الجزيرة. ودخلوا إلى حصن منصور وسبوا من فيه دون أن يجدوا من يصدهم. وفى عام 305هـ الموافق 917م وصل رسولان من بيزنطية إلى بغداد يسألان المقتدر بالله طلب المهادنة والفداء، فأجابهم الخليفة إلى طلبهم ولكن تلك الهدنة لم تدم طويلا لأن البيزنطيين كتبوا عام 313هـ الموافق 925م إلى أهل الثغور الإسلامية يأمرونهم بحمل الخراج إليهم، وإلا تعرضوا لهجوم البيزنطيين. وفعلا، نفذوا تهديدهم بغزو «ملطية» عام 314هـ الموافق 926م تخريبها دون أن يهب أحد لنجدة أهلها. وهاجم البيزنطيين فى عام 314هـ الموافق 926م مدينة «دبيل» فى أرمينيا واقتحموها بعد قتال بسيط مع حاميتها. وفى عام 315هـ الموافق 927م ظفر البيزنطيون بسرية من المسلمين خرجت من «طرسوس» إلى بلادهم فأبادوها عن بكرة أبيها. ثم خرج مؤنس الخادم أمير الجيوش على الخليفة عام 317هـ الموافق 929م، وفى عام 320هـ الموافق 932م كذلك. وقد انتهى النفور بينهما أخيرًا إلى قتال ذهب ضحيته المقتدر بالله وقطع رأسه وحمله إلى مؤنس المظفر فى الوقت الذى تركت فيه

جثـة الخليفة مرمية عـلى قارعة الطريق، ثم بويع بالخلافة بعـده أخوه القاهر بالله[1].

تدهورت الأوضـاع في عـهـد «المقتـدر»،وانتـشـرت الفتن وازداد تمزق الدولة، وأصبـحت الخلافـة نهبًا للطامـعين بسـبب صغر سـنه، وأفلت زمام الأمور من يده، وتحكم النسـاء والخدم فى شئون البلاد، فكـانت «أم المقتدر» وتسمى «شـغب» تولى من تشاء وتعزل من تشـاء، كما كان «مـؤنس الخادم» صاحب مكانة متميزة وخطيرة فى عهد «المقتدر».

وقد ازداد خطر القرامطة اتساعًا وعنفًـا فى عهد «المقتدر»، ووصل مداه عام 317هـ = 929م، حينما دخلوا «مكة» بقيـادة «أبى طاهر القرمطى» وقتلوا الحجاج فى المسجد الحرام، واستولوا على الحجر الأسود وأخذوه إلى مركزهم الرئيـسى (هجـر) حتى تم رده إلى مكانه فى عهـد «المطيع» عام 339هـ الموافق 950م[2]

• بداية ظهور الفاطميين:

ومن أهم الأحداث فى عهد «المقتدر» بداية ظهور العبيدين أو الفاطميين فى «شمـال إفريقـيا». ويرجع الفـضل فى قيـام «الدولة الفاطمـية» إلى «أبى عـبدالله الحـسين بن أحـمـد»، المعروف بأبى عـبـدالله الشيـعى، أحد دعـاة الفاطميين البارزين فى المغرب وكـان يعرف أحيانًا باسم «المحتسب»؛ لأنه كان مراقبًـا لأسواق «البصرة» بالعـراق قبل انتقاله إلى «المغـرب». وقد تمكن «أبو عبدالله الشيعى» من القضاء على «دولة الأغالبة» فى المغرب، والاستيلاء على عاصمتـهم «رقادة» عام 296هـ الموافق 909م، وتم تنصيب أول إمام من أئمة

---

1 ـ د. إبراهيم أيوب ـ نفس المرجع ص124.

2 ـ د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف ـ نفس المرجع ص44.

الفاطميين وهو «عبيدالله المهدي» ـ وكنيته «أبو محمد» ـ وإنه من سلالة الإمام «الحسين بن على بن أبى طالب عليهم السلام». وقد تلقب «عبيد الله المهدى» بأمير المؤمنين، وبنى مدينة «المهدية» عاصمة له، وانتقل إليها من «رقادة» عام 308هـ الموافق 920م، وقد نجح الفاطميون في الاستيلاء على «مصر» عام 358هـ الموافق 969م، فى عهد الخليفة الفاطمى «المعز لدين الله».

● قيام دولة بني حمدان:

ومن الأحداث المهمة التى شهدها عهد «المقتدر» ـ أيضًا ـ قيام دولة «بنى حمدان» فى «الموصل»، فقد استمر «أبو الهيجاء عبدالله بن حمدان» يحكم «الموصل» والبلاد التابعة لها من قبل الخليفة «المكتفى» حتى وفاته عام 317هـ الموافق 929م، فورثه ابنه «حسن» الملقب «ناصر الدولة» على ولاية «الموصل»، واستطاع أن يمد سلطانه إلى «ديار ربيعة» و«مضر» بأرض الجزيرة، وقد اتسع نفوذ الحمدانيين وملكهم بعد وفاة الخليفة «المقتدر» ونجحوا فى بسط سلطانهم على «حلب» و«شمال الشام» عام 323هـ الموافق 945م، بقيادة زعيمهم المعروف «سيف الدولة الحمدانى»، الذى قال فيه «المتنبى» أروع قصائد المديح. وقد أسهم أمراء «بنى حمدان» وفى مقدمتهم «سيف الدولة الحمدانى» فى صد غارات الروم «البيزنطيين» عن مناطق الثغور الإسلامية، وفى رعاية الحركة العلمية والأدبية التى بلغت فى عهدهم مركزًا مرموقًا. ساءت العلاقة بين «المقتدر بالله» وخادمه «مؤنس الخادم»؛ مما أدى إلى مقتله على يد أنصار «مؤنس» فى أواخر شوال عام 320هـ الموافق 932م، بعد أن ظل فى الحكم خمسًا وعشرين سنة، وهى أطول مدة يقضيها خليفة عباسى فى الحكم حتى عصره. ورغم تدهور أحوال البلاد السياسية فى عهد «المقتدر» فإن الحياة العلمية قد شهدت ازدهارًا ملحوظًا فى هذا العصر. وبمقتل «المقتدر» دخل عصر نفوذ الأتراك مراحله الأخيرة.

(19) القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد: 320-322 الموافق 932-934

تولى الخلافة في شوال عام 320هـ الموافق 932م، عقب مقتل «المقتدر»، و عمره ثلاث وثلاثون سنة. وقد اتصف «القاهر» بالغلظة وقلة التدين، ورغم أنه نجح في التخلص من «مؤنس الخادم»، صاحب النفوذ الأكبر في عهد «المقتدر»، ومن غيره من أعيان الدولة إلا أن سوء سياسته كان سببًا في تدبير الانقلاب عليه والإطاحة به. ولقب القاهر بالله. وصفه المؤرخون بأنه كان مهيبًا مقدمًا على سفك الدماء، أهوج محبًا الأموال، رديء السياسة صادر جماعة من أمهات أولاد المقتدر، كما صادر أم المقتدر، وعلقها برجل واحدة منكسة الرأس، وعذبها بمختلف أنواع العذاب من ضرب وإهانة، حتى ماتت بعد أيام قليلة حزنًا على ولدها المقتدر بالله وما لحقها من عذاب. تآمرت جماعة «الساجية»، وجماعة «الحجرية» واخذتا تدبران لإطاحة القاهر بالله بعد أن علمتا أنه أخذ يقيم المطامير للفتك بزعمائهم. لكن القاهر بالله أحس بما أضمر له الساجية والحجرية، فألقى القبض على زعمائهم وقتلهم جميعًا. أثار هذا الأسلوب القاسي قادة الجند، فاتفقوا على خلعه، وزحفوا إلى داره وهاجموها، وهو بداخلها مخمور، فلم يستطع الهرب. فقبضوا عليه وسلموه حتى سالت عيناه على خديه، وبذلك انتهت مدة الخلافته، وظل محبوسًا إلى أن مات عام 339هـ الموافق 950م في عهد الخليفة الطائع لله 334 ـ 364هـ الموافق 945 ـ 974م.

وقد لعب الوزير المشهور «أبو علي بن مقلة» الدور الأساسي في خلع «القهر» والتنكيل به، لخوفه منه واعتقاده أنه كان يدبر للقضاء عليه فهاجم أعوانه الخليفة «القاهر» في دار الخلافة.

ولعل من أبرز التطورات السياسية التي شهدها عهد «القهر» ـ رغم قصره ـ ظهور النفوذ البويهي في بلاد فارس عام 321هـ الموافق 933م، وكان

ذلك مقدمة لامتداد نفوذهم على مقاليد الأمور هناك في عام 334هـ الموافق 945م، لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الخلافة العباسية في عصرها الثاني، كما سنبين بعد قليل.

(20) الراضي بالله أبو العباس محمد بن المقتدر 322-329 الموافق 934-941

بايع الجند «الراضي بالله» في السادس من جمادى الأولى عام 322هـ وعمره خمسة وعشرون عامًا، وقد كان من خيار الخلفاء، فاضلا سمحًا جوادًا، شاعرًا محبًا للعلماء. ورغم ما كان يتحلى به «الراضي» من صفات حميدة فإن أمر الخلافة قد اختل في عهده اختلالا خطيرًا، وازداد تمزق الدولة واستفحل نفوذ المتطلعين للسيطرة على زمام الأمور، فقد ازداد نفوذ البويهيين في فارس وتطلعوا للاستيلاء على «العراق»، وتمتع «بنو حمدان» بنفوذ مطلق في «الموصل» و«ديار بكر» و«ربيعة» و«مضر» واستقلت «الدولة الإخشيدية» في «مصر و«الشام» عن الخلافة العباسية، وكذلك الدولة السامانية في «خراسان» و«ما وراء النهر» بزعامة «نصر بن أحمد الساماني»، وأصبح للأمويين خلافة مستقلة في «الأندلس» تحت حكم «عبد الرحمن الثالث» الأموي الملقب بالناصر (300 - 350هـ الموافق 913 - 961م)، وسيطر القرامطة بزعامة «أبي طاهر القرمطي» على «البحرين» و«اليمامة».

تفشى الفساد في الدولة العباسية، وكثرت الرشاوى للحصول على المناصب بعد تحكم الجند والنساء في تدبير أمور الدولة. ومع هذا كان الراضي بالله كما وصفه ابن طباطبا: «شاعر فصيحًا ترك مآثرًا للخلفاء العباسيين منها أنه: آخر خليفة دون له شعرًا، وآخر خليفة انفرد بتدبير الملك، وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة، وآخر خليفة جالس الندماء ووصل إليه العلماء وآخر خليفة كانت مرتبه وجوائزه وخدمه وحجابه تجرى على قواعد الخلفاء المتقدمين. وخير دليل على ما وصلت إليه الدولة العباسية في أيام الراضي

بالله استوزاره ابن مقلة لقاء مبلغ خمسمائة ألف دينار ـ للمرة الثالثة ـ ولكنه لم يبق في الوزارة طويلا، إذ ثار عليه الجند، فانتهبت فتشتهم بعزله. ثم استوزر الراضي بالله عبدالرحمن بن داود بن الجراح الذى سرعان ما ظهر عجزه هو الآخر عن تصريف شؤون البلاد. واتخذ الراضي بالله تدبيراً حسنًا باستدعائه عام 314هـ الموافق 936م ابن رائق ـ الذى كان واليًا على واسط والبصرة ـ وسلمه مقاليد الأمور، وكلفه تدبير أعمال الخراج والضياع وأعمال المعادن في جميع النواحي. ثم لقبه «أمير الأمراء»، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر في الدولة العباسية. هذه الصلاحيات الواسعة، حدت إلى حد بعيد من نفوذ الوزير، فلم يعد الأخير ينظر في شيء من أمر النواحي ولا الدواوين. ولم يبق له من الوزارة إلا اسمها. حتى أنه حرم من الحضور إلى دار الخلافة إلا في أيام الموكب، وعندئذ يحضر ليقف ساكتًا. إذن دخلت الدولة العباسية في عهد الراضي بالله مرحلة جديدة أطلق عليها «عصر إمرة الأمراء» إذ أن صاحب هذا المنصب ـ أمير الأمراء ـ صار المتصرف في أمور الدولة وأموالها، وهو الذى يخصص للخليفة ما يكفيه من النفقات، فبطلت بيوت الأموال، واستقل العمال في الأطراف، وخلعوا الطاعة للخليفة الذى لم يبق له غير بغداد وأعمالها علمًا أن الحكم فيها لأمير الأمراء وليس للخليفة. نتيجة لهذه السياسة ظهرت منافسة قوية لابن رائق من قبل الأمراء، فزال نفوذه عام 326هـ الموافق 938م بعدما حاربه أبو عبد الله البريدى ـ صاحب الأهواز ـ كما خرج عليه أحد قواده واسمه «بجكم». ولم يلبث أن دخل هذا الأخير بغداد عام 327هـ الموافق 939م. وآلت إليه «إمرة الأمراء» زهاء عامين: 327 ـ 329هـ الموافق 938م ـ 940م في الوقت الذى ساءت أحوال بغداد، حتى أن العامة عاثوا في الأرض فسادًا، وانقضوا على الحمامات العامة، وأخذوا ثياب من فيها. وكثرت المصادرات، وتفاقم خطر

اللصوص الذين تسلحوا لكبس الدور ليلا. نبلغ من سوء الأحوال أن الراضي بالله عجز عن دفع أرزاق الجند. واستمرت هذه الحالة إلى أن توفي عام 329هـ الموافق 940م. رافق حالة الفوضى والذعر الذي أصاب الناس من شر اللصوص أن اشتدت المنازعات الدينية ببغداد عاصمة الخلافة العباسية، إذ قويت شوكة الحنابلة، وصاروا يكبسون دور القواد والعامة. فإن وجدوا نبيذًا أراقوه. وإن صادفوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء، ولم يكتف الحنابلة بهذا المقدار، بل استعانوا بالعميان الذين يأوون إلى المساجد. فكان إذا مر بهم شافعي أغروا به العميان فيضربونه بعصيهم حتى يكاد يموت. كذلك لم يركن القرامطة إلى الهدوء وسط الفوضى تلك، فاعترضوا سبيل الحجاج عام 332هـ الموافق 935م[1].

ظهور منصب أمير الأمراء:

وتدهورت الأوضاع في أوائل عهد الراضي تدهورًا كبيرًا، بسبب عجز الوزراء وازدياد نفوذ كبار القواد وتدخلهم في شئون الدولة، وكان «محمد بن رائق» والي «واسط» و «البصرة» واحدًا من أبرز هؤلاء القواد وأكثرهم نفوذًا وتأثيرًا، فاختاره الخليفة «الراضي» ليقوم الإداري الحاد الذي تعاني منه، وأسند إليه منصب «أمير الأمراء في عام 324هـ الموافق 936م. وقد أصبح «محمد بن رائق» بمقتضى هذا المنصب الخطير الذي لم يظهر قبل ذلك على مسرح الأحداث السياسية في الدولة الإسلامية القائد الأعلى للجيش، والمسئول عن إدارة شئون الدولة والخراج، وأصدر الخليفة «الراضي» أمرًا بأن يخطب لابن رائق على جميع المنابر في جميع النواحي الخاضعة للخلافة، وبذلك تحولت الخلافة إلى منصب شرفي، وأصبح شاغلاً لمنصب «أمير الأمراء» هو الحاكم الفعلي للبلاد، مما جعل كبار رجال الدولة أمثال «أبي

1 ـ د. إبراهيم أيوب ـ المرجع السابق ص127.

عبدالله البريدي» صاحب «الأهواز»، و«بجكم التركي»، و«ناصر الدولة بن حمدان» صاحب «الموصل»، و«توزون التركي» رئيس الشرطة وغيرهم يتصارعون للوصول إليه، حتى جاء البويهيون فسيطروا على زمام الأمور ووضعوا حدًا لهذا الصراع. وقد توفي الخليفة «الراضي بالله» وفاة طبيعية في منتصف ربيع الأول عام 239هـ الموافق ديسمبر 940م، بعد أن كان قد فقد السيطرة على مقاليد الأمور بصورة تكاد تكون كاملة.

(2) المتقي لله أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر: 329 - 333 الموافق: 941 - 945:

بويع إبراهيم بن المعتضد - المتقي لله - بالخلافة «وبجكم» القائد قابضًا بيديه زمام الأمور في الدولة العباسية. فلم يكن للمستقي من النفوذ إلا اسم الخلافة، ولكن التنافس بين الأمراء أضعف أمير الأمراء «بجكم» بالرغم من انتصاره على البريديين عند واسط بالعراق. ثم تتابعت عليه المصائب حتى انتهى الأمر بقتله على أيدي بعض الأكراد. وعلى أثر موت «بجكم» دخل أبو الحسن البريدي بغداد في جيش كبير من الأتراك والديلم، واستولى على دارالخلافة بعد أن هرب الخليفة المتقي لله وابنه ومحمد بن رائق إلى الموصل. وقتل البريديون في بغداد من وجدوه في دار الخلافة ثم عمدوا إلى النهب والأذى حتى استاء منهم معظم الناس الذين نادوا إلى طردهم من بغداد وواسط. وبعد غيبة ثلاثة أشهر وعشرين يومًا عاد الخليفة إلى بغداد عام 330هـ الموافق 941م. بدأ ظهور الأسرة الحمدانية في أيام خلافة المعتضد بالله العباسي 279 - 289هـ الموافق 892 - 902م، عندما كلف الخليفة المعتضد بالله الحسين بن حمدان محاربة الخارجي هارون الشاري بالجزيرة وانتصر عليه ابن حمدان. وفي أيام خلافة المتقي لله لمع نجم بني حمدان في أفق الدولة العباسية عندما خلع الخليفة على حسن بن عبدالله بن حمدان ولقبه «ناصر الدولة»، كما خلع على أخيه أبي الحسن الحمداني أيضًا ولقبه «سيف الدولة». وقد

اتخذ ناصر الدولة ابن حمدان سلسلة إجراءات لإصلاح الأحوال في بغداد. لكن هذه الإجراءات لم تعط النتيجة المتوخاة. بل أن تيار الفساد ازداد وكثرت أعمال اللصوص بالسطو على دور الأغنياء، وارتفعت الأسعار حتى ضاق الناس، ومات العديد منهم جوعًا وانتشرت الأوبئة بعدما تركت الجثث عدة أيام بعد الوفاة على الطرقات. على أن نجم الحمدانيين لم يبق على تلألئة في فضاء الدولة العباسية بفضل حسد الحاسدين من جانب بقية الأمراء. وقد تمثل هذا الحسد أو العداء على ثلاثة جبهات:

1 ـ خلاف سيف الدولة الحمداني وتوزون.

2 ـ استعداد البريديين لمعاودة الهجوم على بغداد مرة ثانية، ووقع الحرب بينهم وبين أحمد بن بويه على مسافة قريبة من البصرة.

3 ـ سوء التفاهم بين الخليفة المتقي لله والحمدانيين.

وتفاقم سوء التفاهم هذا حينما أقدم ناصر الدولة بن حمدان على مضايقة الخليفة وأهله بمصادرة ضياعه وضياع والدته. فبعد أقل من سنة اضطر الحمدانيون إلى العودة إلى الموصل بعد دخول القائد التركي توزون بغداد عام 331هـ الموافق 942م ليتولى إمرة الأمراء. ثم قام توزون بطرد البريديين من واسط بعدما استولوا عليها مجددًا لكنه اضطر إلى مصالحتهم والتفرغ لمحاربة الحمدانيين الذين لجأوا للخليفة المتقي لله إلى طلب مساعدتهم بعدما ضيق عليه الخناق توزون فهرب إلى تكريت. وفيها انتصر توزون على الخليفة والحمدانيين. وتابع فلولهم حتى الموصل. فاضطروا إلى مغادرتها، وصولا إلى نصيبين ثم الرقة. والتقى الخليفة في الرقة محمد بن طغج الإخشيد ـ صاحب الدولة الإخشيدية في مصر ـ وقد أتى ليعرض مساعدته على الخليفة. لكن الخليفة اغتر بوعود توزون بحمايته وفضل العودة من الرقة إلى بغداد على الذهاب إلى مصر. لكن وعود توزون بحماية الخليفة وحلفه الأيمان

الخليفة بذلك ما كانت إلا كلامًا معسولا ووعودًا كاذبة، لأنه أراد الاستئثار بكامل السلطة وحرمان الخليفة من كل نفوذ. وتحقيقًا لمآربه هـمل على مصالحه البريديين، ثم عقد صلحًا مع ناصر الدولة ابن حمدان ليتفرغ لأمر الخليفة المتقي لله. ولما أحس الخليفة بما يدبره توزون اتصل سرًا ببني بويه الذين وصلوا إلى واسط، ودعاهم للقدوم إلى بغداد، مما أغضب القائد التركي توزون فقبض على الخليفة عام 333هـ الموافق 944م، وخلعه من الخلافة وأقام عبدالله بن المكتفي بالله (289 ـ 295هـ الموافق 902 ـ 907م) خليفة مكانه ولقبه المستكفي بالله. أما المتقي لله فقد سمل عينيه ووضعه في السجن إلى أن مات(1).

تولى الخلافة فى ربيع الأول عام 329هـ الموافق ديسمبر 940م، بتدبير أمير الأمراء «بجكم التركي» وكاتبه «أبي عبد الله الكوفي»، وكان عمره حينئذ أربعًا وثلاثين سنة. وقد كانت خلافة «المتقي» القصيرة 329 ـ 333هـ الموافق 940 ـ 944م، سلسلة من الصراع بين كبار رجال الدولة على منصب أمير الأمراء، مما أضاف مزيدًا من الإضطراب والفوضى إلى الأوضاع الداخلية.

(22) المستكفي بالله وانتهاء عصر نفوذ الأتراك: 333 ـ 334 الموافق 944 ـ 946

تمت بيعته بالخلافة فى صفر عام 333هـ الموافق سبتمبر 944 بحضور أمير الأمراء «توزون التركي» وإشرافه، وعمره واحد وأربعون عامًا ولم يكن له أدنى سلطة فى إدارة شئون البلاد، بل استمر زمام الأمور فى يد أمير الأمراء «أبي الوفاء توزون التركي»، وكاتبه «أبي جعفر بن شيرزاد» وكان من أبرز الأحداث التي شهدتها خلافة «المستكفي بالله» امتداد سلطان الحمدانيين بقيادة «سيف الدولة الحمداني» على «حلب» و«حمص» اللتين كانتا تحت سيطرة الإخشيديين. وتدهورت الأحوال الداخلية فى عهد «المستكفي» بشكل غير

---

1 ـ د. إبراهيم أيوب ـ نفس المرجع ص29.

مسبوق، مما أدى إلى تطلع البويهيين ـ أصحاب النفوذ في بلاد فارس ـ منذ عام 321هـ الموافق 933م إلى بسط سلطانهم على «العراق» وقد نجحوا في ذلك عام 334هـ الموافق 945م، لتبدأ العصر الثاني للخلافة العباسية، عرفت فيما بعد باسم «عصر نفوذ البويهيين»[1].

ثانيا: عصر نفوذ البويهيين الديلميين من أذربيجان 334 ـ 447هـ الموافق 945 ـ 1055م:

عندما دخل «أحمد بن بويه» «بغداد» في جمادى الأولى عام 334هـ الموافق ديسمبر 945م، كان «المستكفي بالله» هو الخليفة العباسي، ولم يكن أمامه إلا أن يظهر الترحيب به، بل إنه زاد على ذلك فخلع عليه الخلع ولقبه «معز الدولة»، كما لقب أخاه «عليا» «عماد الدولة»، وأخاه «الحسن» «ركن الدولة»، و أمر بأن تضرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم، وكان «على ابن بويه» حاكمًا لإقليم «فارس»، و«الحسن ابن بوية» حاكمًا لعدة أقاليم أهمها «الري»، و«الجبل»، و«أصفهان»، في حين دخل أخوهم الأصغر «أحمد» «بغداد». وقد تدهورت أحوال «الخلافة العباسية»، واندثرت معالمها من الناحية الواقعية حينما سيطر البويهيون على «بغداد»، فقد جردوا الخليفة من كل سلطاته، وعدوه مجرد موظف مهمته إضفاء صفة الشرعية على سلطانهم لدى جماهير المسلمين، فحددوا له راتبه، وسلبوه حقه في تعيين الوزراء، وسمحوا له بأن يتخذ كاتبًا (سكرتيرًا) فقط يشرف على أمواله.

ورغم أن البويهيين كانوا شيعة، فإنهم لم يسقطوا الخلافة العباسية السنية في «بغداد»، ليحلوا محلها خلافة علوية شيعية تتفق مع مذهبهم، وسبب ذلك علمهم أن وجود خليفة من العلويين يهدد ملكهم وسلطانهم، وليس الأمر كذلك في الخليفة السني الذي يستطيعون هم أن يفعلوا به ما يشاءون.

---

1 ـ د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف ـ نفس المرجع ص47.

يرجع نسب البويهيين إلى زعيم آزارى اسمه بويه. عاش فى إقليم الديلم إلى الجنوب الغربى من بحر قزوين. وقد بدأ ظهورهم على مسرح الأحداث، عندما دخل على بن بويه وأخواه الحسن وأحمد فى خدمة الأمير مرداويج بن زيار صاحب بلاد جرجان وطبرستان وقزوين أذربيجان والكرج. ولي مرداوج على بن بويه بلاد الكرج، ثم ما لبث ابن بويه أن ضم إليه «همذان» و«أصفهان» وغيرهما من الأقاليم فى بلاد فارس الأمر الذى جعل الأمير مرداويج يخافه. فقرر طرده من بلاد الكرج، وأرسل جيشًا كبيرًا لطرده منها. فتنقل على بن بويه حوالى عام 322هـ الموافق 934م بين أصبهان واصطخر وشيراز. وأخيرًا رأى ابن بويه أن من مصلحته أن يسترضى الأمير مرداويج بإقامة الخطبة له، وتقديم الهدايا الثمينة، كما أرسل أخاه الحسن ليكون رهينة عند مرداويج. فلاقى هذا الأسلوب استحسانًا لدى الأخير فأضاف إليه أرجان بعد أن ثبته على بلاد الكرج. وسارت الرياح وفق ما يشتهى على بن بويه، فكانت أن قتل مرداويج عام 323هـ الموافق 935م بيد جنوده الأتراك الذين تمردوا عليه بزعامة «بجكم» و«توزون». وبعد مقتل مرداويج فر الحسن بن بويه الذى كان رهينة عنده، وسار إلى أخيه على بن بويه بفارس، عندئذ استقوى على بن بويه بأخويه، فأرسل أخاه الحسن - الأوسط - إلى بلاد الجبل، فاستولى عليها. كما بعث أخاه أحمد - الأصغر - إلى أهواز والعراق للاستيلاء عليهما. مستغلا ضعف الخليفة العباسى، وقد اضطربت أمور خلافته بسبب اشتداد التنافس بين الأمراء حول منصب «أمرة الأمراء» فما كان من قواد بغداد إلا أن بعثوا إلى أحمد بن بويه - وهو عند واسط بالعراق - يطلبون إليه المجىء إليهم. فجاء بغداد تلبية لطلبهم فى جمادى الأولى عام 334هـ الموافق 945م. فاستقبله الخليفة العباسى - المستكفى بالله - واحتفى به، وأعطاه «إمارة الأمراء»، وعقد له لواء، ولقبه «معز

الدولة»، ولقب أخاه الأوسط «ركن الدولة» وأخاه الأكبر «عماد الدولة». وأمر أن تضرب ألقابهم على الدينار والدرهم. يعد هذا التاريخ بداءة مرحلة جديدة في تاريخ الدولة العباسية، أصبح فيها الخليفة مجرد زعيم ديني لا أمر له ولا نهي ولا وزير، إنما له كاتب يدير إقطاعاته لا أكثر. في حين غدا ابن بويه سلطة مطلقة التصرف في العراق، والخلفاء تحت سيطرتهم ووصايتهم. ولم يقف بنو بويه عند هذا الحد من النفوذ والتسلط، بل تعدوا على أشخاص الخلفاء انتقصوا من حقوقهم. كل ذلك لأن بني بويه كانوا شيعة زيدية من بلاد الديلم وأذربيجان، وأن باعتقادهم لاحق لبني العباس في الخلافة، وأنهم اغتصبوها من أصحابها الحقيقيين من أبناء البيت العلوي. فمن هنا راجت الفكرة التي تقول: بأن معز الدولة ـ أحمد ـ فكر في أن يزيل الخلافة من بني العباس ويوليها علويًا لو لم ينهه أحد أصحابه عن ذلك بقوله: «إنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوا». وعندئذ أعرض معز الدولة ـ أحمد ـ عن عزل المستكفي، وأبقى اسم الخلافة لبني العباس، وانفرد هو بالسلطان الفعلي في الدولة(1).

برهن سلوك البويهيين مع الخليفة «المستكفي» على صدق ذلك، فقبل مرور شهر على دخولهم «بغداد» دخل «معز الدولة أحمد بن بويه» على الخليفة «المستكفي»، فوقف الناس حسب مراتبهم، فتقدم اثنان من الديلم ـ وهم قوم «معز الدولة» ـ فمد الخليفة يده إليهما ظنًا منه أنهما يريدان تقبيلها، فجذباه وطرحاه أرضًا، وجراه بعمامته، ثم هجم «الديلم» على دار الخلافة ونهبوها، وسار «معز الدولة» إلى منزله، وساقوا الخليفة «المستكفي» ماشيًا

---

(1) د. إبراهيم أيوب ـ المرجع السابق ص133.

إليه، ثم انتهت هذه المأساة بخلع «المستكفي» وسمل عينيه. وإذا استبعدنا خلافة «المستكفي»، فإننا نجد أن الخلفاء الذين شهدوا عصر نفوذ البويهيين كانوا أربعة هم:

1 - المطيع لله «أبو القاسم الفضل بن المقتدر بن المعتضد» 334 - 363هـ الموافق 945 - 974م.

2 - الطائع لله «أبو بكر عبدالكريم بن المطيع» 363 - 381هـ الموافق 974 - 991م.

3 - القادر بالله «أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر» 381 - 422هـ الموافق 991 - 1031م.

4 - القائم بأمر الله «أبو جعفر عبدالله بن القادر» 422 - 467هـ الموافق 1031 - 1075م.

(23) خلافة المطيع لله: 334 - 363 الموافق 945 - 973:

بعد أن أمر «معز الدولة أحمد بن بويه» بخلع «المستكفي» في جمادى الآخرة عام 334هـ الموافق 945م، أحضر «أبا القاسم الفضل بن المقتدر» وبايعه بالخلافة، ولقبه بالمطيع لله، وعمره - حينئذ - أربع وثلاثون سنة، وحدد له «معز الدولة» راتبًا مائة دينار في اليوم. وقد شهدت خلافة «المطيع» أحداثًا كثيرة، أولها: نشوب الصراع بين البويهيين في «بغداد» بزعامة «معز الدولة» (أحمد بن بويه)، وبين الحمدانيين في «الموصل» بزعامة «ناصر الدولة» (الحسين بن عبد الله)، وقد استمر هذا الصراع طويلا في محاولة كل منهما الإطاحة بالآخر، وفي المحرم عام 335هـ الموافق أغسطس 946م، تم الصلح بين «معز الدولة البويهي» وبين «ناصر الدولة الحمداني» على أن يدفع «ناصر الدولة» الخراج للبويهيين في «بغداد» كل عام.

وبويع المطيع لله أبوالقاسم الفضل بن المقتدر بن المعتضد - ابن عم المستكفي - بالخلافة، وطالت خلافته حتى بلغت أكثر من ٢٩سنة وبالرغم من طول مدة خلافته، لم يكن له نفوذ فيها. وإنما كانت الكلمة الأولى والأخيرة في الدولة العباسية للسلاطين من آل بويه وهم:

- معز الدولة: 334 - 356هـ الموافق 946 - 967م. عز الدولة بختيار: 356 - 367هـ الموافق 967 - 977م منها 7 سنوات في خلافة المطيع والباقي في خلافة الطائع لله 363 - 381هـ الموافق 974 - 991م. ومن أهم الأحداث التي واجهت المطيع لله:

الحرب بين الحمدانيين والبويهيين: تنازع كل من ناصر الدولة بن حمدان ومعز الدولة بن بويه السلطان في خلافة المطيع لله، إذ كان كل طرف منهما يريد الإغارة على ما بيد الآخر. ففي السنة الأولى من استلام معز الدولة بن بويه - أحمد - السلطة في بغداد هاجمها ناصر الدولة الحمداني واستولى على الجانب الشرقي منها، لكن معز الدولة تمكن من إنزال الهزيمة بخصمه وألحاق الأذى بالناس من جراء النهب والقتل الذي مارسه جيش الديلم. وسار معز الدولة عام 337هـ الموافق 949م إلى الموصل للاستيلاء عليها ردًا على مهاجمة ناصر الدولة لبغداد، فتركها ابن حمدان إلى نصيبين. عندئذ دخل ابن بويه الموصل، وأسرف في ظلم أهلها. لكنه صالح ناصر الدولة بن حمدان مضطرًا بعدما أعلمه أخوه ركن الدولة - حسن بن بويه - أن الجيوش السامانية هاجمت «جرجان» و«الري» بقصد الاستيلاء عليهما حتى يتفرغ لمساعدة أخيه في رد هجمات السامانيين عن مملكته. إلا أن ناصر الدولة بن حمدان استغل فرصة انشغال معز الدولة في مساعدة أخيه، وسير أحد أولاده على رأس قوة من مقاتليه للاستيلاء على بغداد لكنه مني بالفشل. فصمم معز الدولة على رد غدر ناصر الدولة والانتقام بالهجوم على الموصل عام 347هـ الموافق 958م

والاستيلاء عليها. ولولا مساعدة أخيه سيف الدولة بن حمدان ـ صاحب حلب ـ مقابل ألفى ألف درهم (مليونى درهم) لم يتمكن ناصر الدولة من استعادة الموصل من البويهيين.

محاولة العمال والقرامطة الاستقلال بمقاطعاتهم:

كان ضعف الخلفاء العباسيين عاملا مشجعًا للعمال على الاستقلال بمقاطعاتهم فى العصر العباسى الثالث، إذ أراد أبو القاسم البريدى الاستقلال بالبصرة وقطع خراجها عن العاصمة بغداد. فما كان من معز الدولة إلا أن سار إليه عام 336هـ/ 948م واستولى على البصرة. فهرب البريدى إلى هجر ـ البحرين ـ مركز تجمع القرامطة، وبدأ يحرض القرامطة لاسترداد البصرة الذين وافقوا على طلبه أخيرًا وأتوا عام 341هـ الموافق 953م ومعهم أمير عمان من البحر. لكن مقاومة أهل البصرة أفشلت خطة البريدى ومن معه من القرامطة وأبعدتهم عنها.

عمران بن شاهين يؤسس له دولة مستقلة فوق أرض «البطيحة»:

قام أحد الجباة، وهو عمران بن شاهين بجباية الأموال والهرب بها إلى «البطيحة»، فرارًا من معز الدولة البويهى، وتحصن عمران هناك. فقويت سلطته بعد أن التف حوله جماعة من الصيادين واللصوص، وأقام فوق أرض البطيحة دولة داخل الدولة العباسية استمرت أربعين سنة: 329 ـ 369هـ الموافق 940 ـ 979م، لم يستطع البويهيون إخضاعها إذ أن الهزيمة كانت تحل بجنودهم فى كل مرة يهاجمون بها البطائح.

أزمة الغلاء وتفشى الوباء:

فى غمرة الحروب المتواصلة التى اضطر معز الدولة بن بويه أن يخوضها للحفاظ على سلطانه فى الدولة العباسية، لجأ إلى زيادة جباية الأموال من

الناس للوفاء بأرزاق جنوده. كما أغرى كبار قواده وأصحابه بمنحهم إقطاع القرى ليحصلوا على دخلها. كما أن محاباة معز الدولة لجنوده من الأتراك والتوسع في منحهم الإقطاعات أثارت حقد الديلم والأذربيجانيين وحسدهم مما أدى إلى منافرة بين الطرفين. كل هذه الأعمال، وتلك الفتن كانت السبب الرئيسي في اشتداد أزمة الغلاء وتفشي الوباء وكثرة الوفيات في بغداد، حتى هجرها كثير من أهلها وبيعت الدور والعقارات بالخبز كما أن الصراعات بين الأتراك والديلم والأذربيجانيين أخافت التجار على أموالهم وأنفسهم، فانعدم النشاط التجاري، واضطربت الحياة الاقتصادية في بغداد في خلافة المطيع لله وقت اشتداد الخلاف المذهبي بين الشيعة والسنة. وإزاء تلك الحالة نصح مقدم الأتراك حاجب معز الدولة ـ سبكتكين ـ الخليفة العباسي المطيع لله أن يعتزل، ويبايع ولده الطائع. فعمل بالنصيحة، و خلع نفسه من الخلافة في ذي القعدة عام 363هـ الموافق 974م[1].

وجدير بالذكر أن «معز الدولة» كان نائبًا في «بغداد» عن أخيه الأكبر «عماد الدولة» (علي بن بويه) في «فارس»، ثم عن أخيه الأوسط «ركن الدولة» (الحسن بن بويه)، عقب وفاة «عماد الدولة». ورغم أن الخليفة العباسي كان تحت سيطرة البويهيين فإنهم كانوا يخضعون له من الناحية الشكلية فقط. وقد حاول البويهيون صبغ «العراق» بمذهبهم الشيعي، واتخذ «معز الدولة» في سبيل ذلك خطوات بالغة الخطورة أسهمت في إثارة عوامل الفتنة والاضطراب داخل مجتمع «العراق»؛ ففي ربيع الآخر عام 351هـ الموافق 962م أصدر «معز الدولة» أمرًا بأن يكتب على المساجد لعن «معاوية بن أبي سفيان» وغيره من الصحابة كأبي بكر و«عمر»؛ حيث يتهمهم الشيعة بإساءة معاملتهم وغصبهم حقوقهم، ولم يستطع الخليفة العباسي منه ذلك،

1 ـ د. إبراهيم أيوب ـ نفس المرجع ص136.

وفى العاشر من المحرم عام 352هـ الموافق يناير 963م أصدر «معز الدولة» أمرًا بتوقف الناس عن البيع والشراء فى ذلك اليوم، وإظهار البكاء والعويل، وأمر النساء أن يخرجن حاسرات الرؤوس قد شققن ثيابهن وهن يلطمن الوجوه على «الإمام الحسين بن على بن أبى طالب عليهما السلام» فى ذكرى استشهاده بكربلاء، وكان هذا أول يوم حدث فيه ذلك ببغداد، ولم يستطع الخليفة وأهل السنة أن يمنعوا ذلك لكثرة الشيعة ومناصرة السلطان «معز الدولة» لهم. ومن أهم ما سجله «معز الدولة» من انتصارات: تلخيص «عمان» فى ذى الحجة عام 335هـ الموافق نوفمبر 966م، من يد القرامطة الذين كانوا قد استولوا عليها وعاثوا بها فسادًا، فأصبحت بذلك ضمن مملكة البويهيين. ظل «معز الدولة» اثنين وعشرين عامًا يدير الأمور فى «بغداد»، حتى توفى فى الثالث عشر من ربيع الآخر عام 356هـ الموافق مارس 967م، فتولى ابنه «بختيار» إمارة «العراق» بعهد منه، ولقب «عز الدولة». وقد قدم «عز الدولة» صورة صارخة لانصرافه عن المهام الكبرى واهتمامه بملذاته الشخصية، فقد أنفق وقته فى اللهو والتسلية وعشرة النساء والاستماع إلى الغناء، واستولى على أموال كبار رجال الدولة وعلى رأسهم الخليفة فى سبيل ذلك. ولعل من أخطر الأحداث التى شهدتها خلافة «المطيع لله» سيطرة الفاطميين على «مصر» عام 358هـ الموافق 969م، وكانت «مصر» حينئذ تحت حكم الإخشيديين الذين كانوا يخضعون للخليفة العباسى من الناحية الشكلية، فلما دخلها القائد الفاطمى «جوهر الصقلى» فى شعبان عام 358هـ الموافق يونيو 696م، شرع فى بناء مدينة «القاهرة»؛ لتصبح عاصمة للفاطميين، كما بنى الجامع الأزهر عام 361هـ الموافق 972م، وظل حاكمًا لمصر نيابة عن مولاه «المعز لدين الله» حتى عام 362هـ الموافق 973م، حين قدم «المعز» إلى «مصر» فى رمضان فى هذه السنة، فقام بالأمر وأصبحت «مصر» منذ ذلك الوقت

مقرًا للخلافة الفاطمية الشيعية حتى عام 567هـ الموافق 1172م. ظل «المطيع لله» في الخلافة ما يقرب من «ثلاثين عامًا»، حتى أصيب بالفالج - وهو الشلل النصفي - في أواخر حياته فتعذرت حركته وثقل لسانه، مما دعا «سبكتكين»، حاجب «عز الدولة بختيار» إلى أن يطلب منه خلع نفسه وتسليم الخلافة إلى ابنه «عبدالكريم»، فتم ذلك في 13 من ذي القعدة عام 363هـ الموافق يوليو 974م، ولقب «عبدالكريم» بالطائع لله[1].

(24) الطائع لله عبد الكريم بن المطيع بن المقتدر 363 - 381هـ الموافق 973 - 991م:

بويع الطائع لله عبدالكريم أبو بكر بالخلافة بعد اعتزال والده المطيع لله. فاستمرت خلافته مدة 17 سنة وثمانية أشهر، تعاقب فيها على النفوذ خمسة من سلاطين بني بويه وهم: عز الدولة بختيار بن معز الدولة الذي امتد عهده حتى عام 367هـ الموافق 978م. عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة حسن بن بويه 367 - 372هـ الموافق 978 - 982م. صمصام الدولة أبو كاليجار المرزبان بن عضد الدولة 372 - 376هـ الموافق 982 - 986م. شرف الدولة أبو الفوارس شيرزيل بن عضد الدولة 376 - 379هـ الموافق 986 - 989م. بهاء الدولة أبو نصر فيروزين بن عضد الدولة الذي امتد سلطانه إلى أيام القادر بالله من: 379 - 403هـ الموافق 989 - 1012م منها في عهد الطائع لله: 379 - 381هـ الموافق 989 - 991م ازدادت حالة البلاد سوءًا في أيام خلافة الطائع لله. واشتد تيار الفتنة بين السنة والشيعة، فسفكت دماء كثيرة، وأحرقت «الكرخ»، وتعطلت أحوال الناس، وفي الوقت نفسه أيدت السنة من العامة سبكتكين لكراهيتهم لبني بويه، وما كانوا عليه من تشيع متطرف. في وسط هذه الأزمة كتب بختيار إلى عمه ركن الدولة بأصبهان، وإلى ابن عمه عضد الدولة طالبًا مساعدتهما ضد الأتراك. فجهز إليه ركن الدولة جيشًا، في حين

1 - د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف - المرجع السابق ص64.

طمع عضد الدولة فى حكم العراق، فخرج لذلك بنفسه قاصداً بغداد، وتمكن من التغلب على الأتراك عام 364هـ الموافق 974م، ثم أخذ يعد العدة ليحل محل بختيار. وأخيراً كان له ما أراد عندما ظهر عجز بختيار عن دفع أموال الجند الثائرين عليه والمطالبين بالأموال. فأسرع عضد الدولة إلى عزله وحل محله ابن عمه في بغداد عام 367هـ الموافق 977م. لكن العلاقة بين الخليفة الطائع لله وعضد الدولة، لم تلبث أن ساءت، لأن الأخير حذف اسم الخليفة من الخطبة، وأمر بأن يخطب له على منابر بغداد، إضافة إلى ضرب الطبول على باب ثلاث نوبات (نوب مفردها نوبة). حاول بهاء الدولة أن تستميل إليه قلوب الجند عن طريق منحهم الأموال، فلما قلت عنده الأموال، أطمعه البعض فى أموال الخليفة الطائع لله، وحسن له القبض عليه. فقبض على الخليفة وهو يصيح ويستغيث فلا يلتفت إليه أحد، وكان ذلك عام 381هـ الموافق 991م[1].

تولى «الطائع لله» الخلافة فى ذى القعدة عام 363هـ الموافق يوليو 974م وعمره ثلاث وأربعون سنة، وقد توفى والده «المطيع لله» بعد ذلك بفترة قصيرة، فى المحرم عام 364هـ الموافق سبتمبر 974م. فى بداية خلافة «الطائع لله» حدثت الفتنة بين «عضد الدولة بن ركن الدولة»، وابن عمه «بختيار بن معز الدولة»، فقد شجع «عضد الدولة» جند «بختيار» على الثورة عليه ووعدهم بالإحسان إليهم والنظر فى أمورهم فثار عليه الجند وتم القبض على «بختيار» وحبسه فى جمادى الآخرة عام 364هـ الموافق فبراير 975م، وأصبحت «بغداد» و«العراق» تحت سلطان «عضد الدولة». وقد عز على «ركن الدولة» أمير أمراء البيت البويهى والد «عضد الدولة» أن يتصرف ابنه «عضد الدولة» مع ابن أخيه «بختيار» بهذه الصورة، فكتب إلى أنصار

---

1 - د. إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص137.

«بختيار» يساندهم ويأمرهم بالثبات والصبر ويعرفهم أنه عازم على المسير إلى «العراق» لإخراج «عضد الدولة» وإعادة «بختيار»، فانصرف أنصار «عضد الدولة» عنه واضطر إلى الإذعان لإرادة أبيه، فأخرج «بختيار» من سجنه ورد إليه ما سلبه من سلطانه، وعاد إلى «فارس» في شوال عام 364هـ الموافق يونيو 975م، وكان الخليفة «الطائع لله» مسلوب الإرادة خلال هذه الفتنة، لا حول له ولا قوة. وقد قسم «ركن الدولة» ملكه بين أولاده في جمادى الأولى عام 365هـ الموافق يناير 976م، فجعل لابنه «عضد الدولة» ملك البلاد من بعده، ولولده «فخر الدولة» (أبي الحسن علي» «همدان» وأعمال «الجبل»، ولولده «مؤيد الدولة (أبي منصور بويه» «أصبهان» وأعمالها، وجعلها تحت رئاسة أخيهما «عضد الدولة»، وأوصاهم بالاتفاق وترك التنازع. وخلف «شرف الدولة» أخوه «أبو نصر فيروز»، الذي لقبه الخليفة «بهاء الدولة وضياء الملة»، ولكن العلاقة بين «بهاء الدولة أبي نصر فيروز» وبين الخليفة «الطائع» وصلت بعد قليل إلى الحد الذي جعل «بهاء الدولة» يقوم بعزل الخليفة؛ فقد قلت الأموال عند «بهاء الدولة»، وثار جنده عليه، فاقترح عليه أحد خواصه وهو «أبو الحسن بن المعلم»، أن يقبض على الخليفة «الطائع» ويستولي على أمواله، فدخل «بهاء الدولة» على الخليفة ومعه جمع كثير، وتقدم أحد رجاله كأنه يريد أن يقبل يد الخليفة، فجذبه فأنزله عن سريره والخليفة يقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، ويستغيث دون أن يلتفت إليه أحد، وتم الاستيلاء على أمواله، وحمل الخليفة إلى دار «بهاء الدولة»، حيث أرغم على خلع نفسه في التاسع عشر من شعبان عام 381هـ الموافق أكتوبر 991م، بعد أن استمر في الخلافة ما يقرب من ثمانية عشر عامًا، كان خلالها مسلوب الإرادة[1].

---

1 ـ د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف ـ نفس المرجع ص65.

(25) خلافة القادر بالله 381 - 422هـ الموافق 991 - 1030م:

هو «أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر»، اختاره «بهاء الدولة» بعد خلع «الطائع لله» لتولي الخلافة، وكان غائبًا عن «بغداد»، فلما وصله الخبر حضر إليها وبايعه «بهاء الدولة» والناس في رمضان عام 381هـ الموافق نوفمبر 991م، وعمره خمسة وأربعون عامًا.

وقد دامت خلافة «القادر بالله» إحدى وأربعين سنة وحفلت بالكثير من الأحداث والتطورات.

بويع القادر بالله أبو العباس أحمد بن إسحق بن المقتدر بن المعتضد بالله بالخلافة ومكث فيها مدة طويلة - 41 سنة - إلى أن توفى عام 422هـ الموافق 1031م. وفي عهده ولي السلطنة بالعراق أربعة سلاطين من آل بويه هم: بهاء الدولة أبو نصر بن عضد الدولة: 379 - 403هـ الموافق 989 - 2012م. سلطان الدولة أبو شجاع بن بهاء الدولة: 403 - 411 هـ الموافق 1012 - 1020م. شرف الدولة أبو علي بن بهاء الدولة: 411 - 416هـ الموافق 1020 - 1025م. جلال الدولة أبو طاهر بن بهاء الدولة: 416 - 435هـ الموافق 1025 - 1043م. وقد كانت العلاقة طيبة بين بهاء الدولة والخليفة العباسي القادر بالله إذ تزوج الخليفة من سكينة ابنة بهاء الدولة بن عضد الدولة عام 383هـ الموافق 993م على صداق بلغ مائة دينار. وشعرت الخلافة العباسية بالخطر في عهد القادر بالله، عندما أقام قرواش بن المقلد - أمير بني عقيل وصاحب السيادة في الموصل والأنبار والمدائن والكوفة - الخطبة للخليفة الفاطمي في مصر الحاكم بأمر الله 386 - 411هـ الموافق 996 - 1020م، فشكا أبو جعفر عبدالله - القائم بأمر الله فيما بعد - ابن الخليفة القادر بالله لبهاء الدولة الأمر، طالبًا إليه اعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه. فأرسل الأخير جيشًا اضطر قرواش إلى إعادة

الخطبة للخليفة العباسي بالرغم من أن البويهيين كانوا متمسكين بالمذهب الشيعي، ويتطلعون من وقت إلى آخر إلى الخليفة الفاطمي[1].

توفي «القادر بالله» في شهر ذي الحجة عام 422هـ الموافق نوفمبر 1031م وعمره سبع وثمانون سنة، ودامت خلافته واحدًا وأربعين عامًا، فكانت أطول مدة يقضيها خليفة عباسي في هذا المنصب حتى عصره. كان الخليفة «القادر بالله» يتحلى بصفات جعلته إحدى الشخصيات المتميزة في تاريخ الخلافة العباسية، فقد كان راجح العقل وافر الحلم، مؤثرًا للخير، ظاهر الكرم، جميل الأخلاق، آمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر، كما كان شغوفًا بالعلم محبًا لأهله، مستقيم الطريقة في الدين بعيدًا عن البدعة، متواضعًا، عزوفًا عن مظاهر الأبهة والتكليف، فكان يخرج من داره في زي العامة، ويزور قبور الصالحين، وكان عادلا وصولا ظاهر البر باليتامى والمساكين، قوي الشخصية، يحظى بالاحترام والتبجيل؛ فلم يتعرض لما تعرض له غيره من السابقين له من مهانة خلال فترة اضمحلال الخلافة، ورغم ما تعرضت له الخلافة من ظروف وأحداث وتغلغل نفوذ الترك والديلم والأذربيجان فإن «القادر بالله» استغل كل ما أتيح له من إمكانات، وقدم أفضل نموذج يمكن أن نتوقعه لخليفة عباسي في ضوء تلك الظروف. شهد القرنان الرابع، والخامس الهجريان قمة النشاط والازدهار الحضاري بمظاهره المختلفة في أرجاء العالم الإسلامي بصفة عامة وفي «دولة الخلافة العباسية بصفة خاصة؛ ويمثل عصر «القادر بالله» زبدة الحضارة الإسلامية في هذين القرنين، وهكذا كانت الأوضاع الحضارية أحسن حالا من الأوضاع السياسية خلال تلك الفترة[2].

---

1 ـ د. إبراهيم أيوب ـ المرجع السابق ص138.

2 ـ د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف ـ نفس المرجع ص66 ـ 67.

(26) خلافة القائم بأمر الله ونهاية عصر النفوذ البويهي الديلمي الأذربيجاني (422 ـ 447هـ الموافق 1031 ـ 1055م):

تولى «القائم بأمر الله» أبو جعفر عبدالله بن القادر الخلافة في اليوم الذي توفي فيه أبيه القادر بالله» في ذي الحجة عام 422هـ الموافق 1031م، وعمره ثلاثون عامًا، ولقد لقبه أبوه ـ قبل وفاته ـ بالقائم بأمر الله.

فوصلت الدولة العباسية في عهده إلى أقصى درجات الانحلال والتدهور. فغدت بغداد العاصمة مسرحًا للشغب والمنازعات المذهبية والعنصرية بين مختلف عناصر الجند من عرب وديلم وأذربيجان وترك. إضافة إلى المنازعات والحروب بين البويهيين أنفسهم. وتعاقب على السلطة البويهية في بغداد ثلاثة سلاطين هم: جلال الدولة أبو طاهر بن بهاء الدولة الذي امتد سلطانه من خلافة القادر إلى خلافة القائم: في عهد القادر: 416 ـ 422هـ الموافق 1025 ـ 1031م. وفي عهد القائم: 422 ـ 435هـ الموافق 1031 ـ 1043م. ومحيي الدين أبو بكر كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة: 435 ـ 440هـ 1043 ـ 1048م. والملك الرحيم أبو نصر خسرو فيروز بن محيي الدين المرزبان: 440 ـ 477هـ الموافق 1043 ـ 1048م. في عهد القائم بأمر الله، أخذ البويهيون يتقربون من الفاطميين الشيعة للضغط على العباسيين، حتى لا يرتمي الخلفاء العباسيون في أحضان السلاجقة الأتراك السنيين. ومما لا شك فيه أن الحروب الكثيرة التي قامت بين البويهيين أدت إلى ضعفهم، وبالتالي مهدت الطريق أمام سيطرة السلاجقة على بغداد. وفي هذا الوقت قام أبو الحارث المعروف بالبساسيري ـ غلام تركي ـ بثورة ضد الخلافة العباسية. وكاتب الخليفة الفاطمي المستنصر بالله 427 ـ 487هـ الموافق 1035 ـ 1094م بمصر ليدخل في طاعته ويخطب باسمه على منابر بغداد. تجاه ذلك رأى الخليفة العباسي القائم بأمر الله أن عليه الالتجاء إلى السلاجقة السنيين للقضاء

على البساسيرى والبويهيين. فكتب إلى السلطان طغرلبك طالبًا نجدته، فكانت هذه هي الفرصة التي انتظرها طغرلبك بفارغ الصبر، وأسرع في السير إلى بغداد متظاهرًا أنه يريد الحج ومن ثم التوجه إلى الشام ومصر لإزالة الخليفة المستنصر بالله. ومن جهته الخليفة القائم بأمر الله أمر بالخطبة لطغرلبك في جوامع بغداد مفصحًا عن نواياه. وهكذا تمت الخطبة للسلجوقي طغرلبك في يوم الجمعة 22 من محرم عام 447هـ الموافق 1055م، ثم دخلها بعد ثلاثة أيام ليقبض على الملك الرحيم آخر سلاطين بني بويه، ويضع الخلافة العباسية تحت سيطرة جديدة، هي سيطرة السلاجقة السنيين[1].

زادت الأوضاع الداخلية في «دولة البويهيين» في عهده تدهورًا وانحطاطًا، وأصبحت الدولة جسمًا بلا روح، فقد استمرت أمور «العراق» في فوضى واضطراب؛ بسبب الصراع بين «جلال الدولة» و «أبي كاليجار» على السيطرة عليه، وضعفت مكانة «جلال الدولة»، ورغم الصلح الذي تم بين «جلال الدولة» و«أبي كاليجار» عام 428هـ الموافق 1037م، وتأكيده بزواج «أبي منصور بن أبي كاليجار» من ابنه «جلال الدولة» فإن «أبا كاليجار» انتهز فرصة وفاة «جلال الدولة» عام 435هـ الموافق 1044م، واستولى على زمام السلطة في «العراق» في صفر عام 436هـ الموافق أغسطس 1044م، بعد إحباطه محاولة الابن الأكبر لجلال الدولة للاستيلاء على الحكم في «بغداد». وأثناء إمارة «أبي كاليجار» في «بغداد» استطاع الأتراك السلاجقة أن يسيطروا على أجزاء كبيرة من البلاد الخاضعة للبويهيين، واضطر «أبو كاليجار» إلى طلب الصلح مع السلطان السلجوقي «طغرل بك» وزوجه ابنته، كما تزوج «أبو منصور بن أبي كاليجار» من ابنة الملك «داود» أخي «طغرل بك»، وأصبحت «الدولة البويهية» معرضة للسقوط في أية لحظة.

---

1 ـ د. إبراهيم أيوب ـ المرجع السابق ص140.

وعقب وفاة «أبي كاليجار» في جمادى الأولى عام 440هـ الموافق أكتوبر 1048م خلفه على إمارة «العراق» ابنه «أبو نصر خسرو فيروز» الملقب بالملك الرحيم، وكانت فترة إمارته تمثل قمة التردي في أوضاع «الدولة البويهية»؛ حيث دخل في صراع مع إخوته حل السلطة، واستعان بعضهم بالسلاجقة ضد أخيهم «الملك الرحيم»، وأصبح البويهيون تحت سيطرة السلاجقة، وتحدد مصير دولتهم على أيدي هذه القوة الناشئة.

- دخول طغرل بك بغداد عام 447هـ الموافق 1055م، وسقوط دولة البويهيين:

كان القائد التركي المشهور «أبو الحارث أرسلان المظفر بن عبدالله المعروف بالبساسيري، من أكابر العسكريين الأتراك، وكان يقوم بدور الحاكم العسكري لمدينة «بغداد»، ويعد صاحب النفوذ الأكبر في دار الخلافة، وقد كانت هناك خصومة شديدة بينه وبين «أبي القاسم بن المسلمة» (على بن الحسن بن أحمد) وزير الخليفة «القائم بأمر الله»، فاتهمه الوزير بالخيانة، واتصاله بالفاطميين في «مصر» لميوله الشيعية، ولما تبين ذلك للخليفة «القائم بأمر الله» خشي أثر موقف «البساسيري» على مستقبل «الخلافة العباسية»، فاتصل بالسلطان السلجوقي «طغرل بك»، وطلب منه القدوم إلى «بغداد» للاستيلاء على السلطة فيها ووضع حد لمحاولات «البساسيري» الخطيرة ولعجز البويهيين عن إدارة شئون الدولة فاستجاب السلطان السلجوقي وتقدم بجنوده نحو «بغداد»، وأمر الخليفة بأن يخطب له على منابرها، قبل دخولها في 25 من رمضان سنة 447هـ الموافق نوفمبر 1055م بثلاثة أيام، وتم القبض على «الملك الرحيم» آخر ملوك البويهيين[1].

1 ـ د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف ـ المرجع السابق ص68.

ثالثا: عصر نفوذ السلاجقة 447 - 590هـ الموافق 1055 - 1194م:

أصبح «طغرل بك» ركن الدين أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق أول سلاطين «السلاجقة» في «بغداد»، ابتداء من رمضان 447هـ الموافق نوفمبر 1055م، وقد استقبله الخليفة «القائم بأمر الله» بكل مظاهر الحفاوة والترحاب، ولقبه «ملك المشرق والمغرب».

الخلافة في ظل السلاجقة

رأى «السلاجقة» في الخلافة السُّنية رمزًا دينيا يعبر عن وحدة الأمة الإسلامية وعزتها، ونظروا إلى الخليفة على أنه تجسيد حي لهذا الرمز، فأحاطوه بهالة من التقدير والإكبار، ونعمت «الخلافة العباسية» في ظل نفوذ «السلاجقة» بأمرين:

الأول: سيادة المذهب السني في أرض الخلافة.

والآخر: إحاطة الخلافة بما هي أهل له من إكرام وإجلال؛ فأصبح من حق الخليفة اتخاذ وزيرًا له، ورغم أن وزير السلطان السلجوقي كان بصفة عامة أوسع نفوذًا وأقوى تأثيرًا من وزير الخليفة، فإن ذلك لايقلل من حقيقة التكريم الذي أسبغه «السلاجقة» على منصب الخلافة، حيث كانت السلطة الفعلية في يد «السلاجقة»، و كانت سلطة الخليفة روحية أكثر منها سياسية.

- **فتنة البساسيري ومحاولة إخضاع العراق للنفوذ الفاطمي:**

عندما دخل «طغرل بك» «بغداد» اضطر «البساسيري» إلى تركها، وبدأ يجمع حوله عددًا من الأنصار الساخطين على الأوضاع في دار الخلافة، واستطاع الاستيلاء على «الموصل» عام 448هـ الموافق 1056م، وخطب فيها للخليفة «المستنصر الفاطمي»، ثم مد نفوذه إلى «الكوفة» و «واسط»، وأغرى «إبراهيم ينال» - وهو أخو «طغرل» لأمه - بالانشقاق على أخيه ليضمن

انشغاله عنه بفتنة أخيه. وقد أمد «المستنصر الفاطمي» «البساسيري» بما يدعم موقفه ويمكنه من مد نفوذه، فاستطاع في الثامن من ذي القعدة عام 450هـ الموافق السابع والعشرين من ديسمبر 1068م أن يدخل «بغداد» بجيوشه، ويخطب فيها للخليفة الفاطمي، وخضعت «بغداد» للخلافة الفاطمية بمصر، واضطر الخليفة العباسي «القائم بأمر الله» ووزيره «ابن المسلمة» أن يضعا نفسيهما تحت حماية أحد أعوان «البساسيري»، واسمه «قريش بن بدران»، فطلب «البساسيري» من «قريش» تسليمه «ابن المسلمة»، فقتله شر قتلة في أواخر ذي الحجة عام 450هـ الموافق يناير 1059م)، وقام «قريش» بتسليم الخليفة العباسي إلى ابن عم له بنواحي «الأنبار»، فآواه وقام بجميع ما يحتاج إليه مدة سنة كاملة. وحاول «البساسيري» مد سلطانه على مدن «العراق» ما أمكنه ذلك، فاستولى على «البصرة»، وأوشك الأمر أن يستتب للفاطميين بالعراق لولا أن «المستنصر» شك في نيات «البساسيري» وحقيقة مخططاته، فمنع عنه عونه وتأييده؛ مما كان له أثره السيء على موقفه في مواجهة «طغرل بك»، الذي نجح في القضاء على ثورة أخيه «إبراهيم ينال»، وقبض عليه وقتله في التاسع من جمادى الآخرة عام 451هـ الموافق يوليو 1059م)[1].

وعندما اقتربت جيوش السلطان السلجوقي «طغرل بك» من «بغداد» هرب «البساسيري» في اتجاه «الكوفة» في السادس من ذي القعدة عام 451هـ الموافق 14 من ديسمبر 1059م، وسيطر «طغرل بك» على «بغداد» بسهولة، بعد عام كامل من سيطرة «البساسيري» عليها، وأعاد الخليفة «القائم بأمر الله» مكرمًا إلى دار الخلافة في الخامس والعشرين من ذي القعدة عام 451هـ الموافق ديسمبر 1059م. ونجح فرسان «طغرل بك» في قتل «البساسيري» في 8 من

1 ـ د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف ـ نفس المرجع ص71.

ذي الحجة عام 451هـ الموافق 15 من يناير 1060م، وبذلك بدأ السلطان السلجوقي «طغرل بك» يعمل على توطيد ملك «السلاجقة» بالعراق.

• بين طغرل بك والخليفة القائم بأمر الله

كان «طغرل بك» حريصا على إبداء كل مظاهر الإجلال والتوقير للخليفة، وقد اقتدى به خلفاؤه؛ فعاملوا الخلفاء العباسيين بكل ما يليق بمكانتهم من احترام وتعظيم. يروي المؤرخون أن «طغرل بك» كان غائبا عن «بغداد»، فلما عاد إليها عام 449هـ الموافق 1057م توجه إلى دار الخلافة، فلما دخل على الخليفة قبل الأرض وجلس على سرير دون سرير الخليفة، فأمره الخليفة أن يتقي الله فيما ولاه وأن يجتهد في عمارة البلاد وإصلاح العباد ونشر العدل ومنع الظلم، فقام «طغرل بك» وقبل الأرض وقال: « أنا خادم أمير المؤمنين ومتصرف على أمره ونهيه، ومتشرف بما أهلني له واستخدمني فيه، ومن الله أستمد المعونة والتوفيق».

وعندما توجه «طغرل بك» لاستخلاص «العراق»من «البساسيري» كان شديد الحرص على سلامة الخليفة. وقد أراد «طغرل بك» أن يمنح نفسه وأسرته شرفا فريدا متميزا، وأن يضفي على سلطانه السياسي صبغة روحية فخطب ابنة الخليفة «القائم بأمر الله» عام 453هـ الموافق 1061م، فانزعج الخليفة لذلك رغم زواجه من «أرسلان خاتون» (واسمها خديجة) ابنة الأمير «داود» أخي السلطان «طغرل بك» عام 448هـ الموافق 1056م، فلم يحدث أن تزوج أحدٌ من خارج البيت العباسي منه، وحاول الخليفة «القائم» رفض هذا الزواج، ودافع بكل ما يمكنه في سبيل ذلك، ولكنه اضطر إلى الخضوع لضغوط وزير «طغرل بك» «عميد الملك الكندري»؛ فتم العقد لطغرل على ابنة الخليفة عام 454هـ الموافق 1062م ودخل بها عام 455هـ الموافق 1063م.

المقتدي بأمر الله:

توفي الخليفة «القائم بأمر الله» في الثالث عشر من شعبان عام 467هـ الموافق 3 من رمضان 1075 في أوائل سلطنة «ملكشاه»، وعمره يزيد على ستة وسبعين عاما، وقد استمر في الخلافة نحو خمس وأربعين سنة. وقد شهدت خلافة «القائم بأمر الله» تدهور «دولة البويهيين» واندثارها، وقيام «دولة السلاجقة» ثم ازدهارها. وقد أجمع المؤرخون على أن «القائم بأمر الله» كان يتحلى بالأخلاق الحميدة، فقد كان ورعا متدينا زاهدا عالما، قوي اليقين بالله تعالى، كثير الصبر، مؤثرا للعدل والإنصاف، قاضيا لحوائج الناس. وقد كان للقائم بأمر الله ابنًا وحيدًا، توفي في حياته، هو «أبو العباس محمد» الملقب بالذخيرة وقد ولد للذخيرة بعد وفاته بستة أشهر غلام، اشتد به فرح جده «القائم» وسماه «عبد الله». وعندما توفي «القائم» كان «عبد الله» هذا في العشرين من عمره فتولى الخلافة بعد جده في الثالث من شعبان عام 467هـ الموافق 3 من رمضان 1075م، ولقب بالمقتدي بأمر الله.

الخلفاء العباسيون في العهد السلجوقي:

كان «المقتدي بأمر الله»، أول خليفة يتقلد منصبه في ظل «دولة السلاجقة»، وبذلك يكون الخلفاء الذين تولوا الخلافة في العهد السلجوقي – بعد «القائم بأمر الله» – ثمانية هم:

27 – المقتدي بأمر الله (عبد الله بن محمد بن القائم بأمر الله)

467 – 487 هـ الموافق 1075 – 1094 م.

28 – المستظهر بالله (أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله)

487 – 552 هـ الموافق 1094 – 1118 م.

29 – المسترشد بالله (أبو منصور الفضل بن المستظهر)

512 – 529 هـ الموافق 1118 – 1135 م.

30 – الراشد بالله (أبو جعفر المنصور بن المسترشد)

529 – 530 هـ الموافق 1135 – 1136 م.

31 – المقتفى لامر الله (أبو عبد الله بن محمد بن المستظهر بالله)

532 – 555 هـ الموافق 1138 – 1160 م.

32 – المستنجد بالله (أبو المظفر يوسف بن المقتفى)

555 – 566 هـ الموافق 1160 – 1170 م.

33 – المستضئ بأمر الله (أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله)

566 – 575 هـ الموافق 1170 – 1179 م.

34 – الناصر لدين الله (أبو العباس أحمد بن المستضئ بأمر الله)

575 – 622 هـ الموافق 1179 – 1225 م.

وقد شهدت خلافة «الناصر لدين الله» زوال ملك «السلاجقة فى عام 590هـ الموافق 1194م وبداية استقلال الخلفاء العباسيين بالسلطة فى «بغداد» وما يحيط بها.

رابعا: عصر ما بعد السلاجقة 590 - 656هـ الموافق 1194 - 1258م:

تعاقب على منصب الخلافة فى هذا العصر ثلاثة خلفاء هم:

35 – الظاهر بأمر الله (أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله)

622 – 623 هـ الموافق 1225 – 1226 م.

36 - المستنصر بالله (أبو جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله)

623 - 640 هـ الموافق 1226 - 1242 م.

37 - المستعصم بالله (أبو أحمد عبدالله بن المستنصر بالله)

640 - 656 هـ الموافق 1242 - 1258 م.

أما أول هؤلاء الخلفاء ـ وهو «الناصر لدين الله» ـ فقد حاول أن يضع حدا لطموح «علاء الدين تكش»، الذي أراد أن يتنازل له الخليفة عن السلطة المدنية في «بغداد»، وأن يكتفي بالسلطة الاسمية على العالم الإسلامي، فأشعل الخليفة فتيل الصراع بينه وبين سلطان الغور «غياث الدين محمد بن بهاء الدين»، ونشبت بينهما الحرب عام 594هـ الموافق 1198م وانتهت بهزيمة «تكش» ولم يكتف الخليفة «الناصر» بالاستعانة بالغوريين لإضعاف نفوذ الخوارزميين، بل إنه استعان بالإسماعيلية الباطنية، وطلب منه التتار (المغول) مساعدته في القضاء على نفوذ أمراء «خوارزم»، فكان «الناصر» كالمستجير من الرمضاء بالنار؛ حيث قضى التتار على «الدولة الخوارزمية»، وقضوا على «الخلافة العباسية» أيضًا. وقد توفي الخليفة «الناصر» في أواخر رمضان عام 622هـ الموافق سبتمبر 1225م وعمره نحو سبعين عامًا، بعد أن استمر في الحكم سبعة وأربعين عامًا، وقد شهدت خلافته سقوط «دولة السلاجقة»، وظهور قوة المغول، وإسقاطهم «الدولة الخوارزمية»، وتهديدهم للعالم الإسلامي كله، وكانت الخلافة العباسية قد فقدت معظم أراضيها ولم تعد كلمة الخليفة مسموعة إلا في بعض «العراق»؛ فأصبحت الخلافة شكلا بلا مضمون ووقفت عاجزة أمام هذه الأحداث التي زلزلت كيان الأمة الإسلامية كلها. وقد تولى الخلافة بعد «الناصر» ابنه «أبو نصر محمد» الملقب بالظاهر بأمر الله، وكان حسن السيرة، عادلا، لكن خلافته لم تطل، فقد توفي في 14 من رجب عام 623هـ الموافق 11 من يوليو 1226م، فلم يدم في الخلافة عامًا.

وتولى الخلافة بعد الظاهر بأمر الله ابنه «أبو جعفر المنصور» الملقب بالمستنصر بالله، فسار على طريقة أبيه في العدل والإحسان وتقريب أهل العلم والدين، وقمع المتمردين، ولكن الظروف القاسية التي أحاطت بالخلافة في ذلك الوقت قيدت الخلفاء وشلت قدرتهم على العطاء، فقد تصاعد خطر المغول في خلافة «المستنصر بالله» 623 ـ 640هـ الموافق 1226 ـ 1242م، وأصبح على أبواب «العراق»، حيث تعرضت «الجزيرة» في شمال «العراق» لهجمات المغول المدمرة[1].

اجتمع على المسلمين في هذه الفترة الخطر المغولي القادم من الشرق، والخطر الصليبي القادم من الشمال، وانشقاق البيت الأيوبي على نفسه عقب وفاة «صلاح الدين الأيوبي»، ولم يستطع الخليفة «المستنصر» أن يفعل شيئًا لعدم قدرته على ذلك. وبعد وفاة الخليفة «المستنصر» في جمادى الآخرة عام 640هـ الموافق نوفمبر 1242م تمت البيعة لابنه «أبي أحمد عبدالله» الملقب بالمستعصم بالله، وهو آخر الخلفاء العباسيين في «العراق»، وكان عمره حينئذ ثلاثين عامًا. ورغم أن «المستعصم بالله» كان موصوفًا بالصلاح والتمسك بالسنة فإنه لم يكن كأبيه «المستنصر» أو جده «الناصر» في التيقظ والحزم وعلو الهمة.

ومما زاد الموقف سوءًا استعانته منذ عام 642هـ الموافق 1244م بوزير غير ثقة هو مؤيد الدين «أبو طالب محمد بن أحمد العلقمي»، الذي وصفه المؤرخون بأنه كان حريصًا على زوال «الدولة العباسية»، ونقل الخلافة إلى العلويين، ويقال إنه راسل المغول وأطمعهم في القدوم إلى «بغداد»، حتى ينجو من القتل عندما يدخلونها. وقد شهدت خلافة «المستعصم» حدثًا خطيرًا كانت له آثاره البعيدة في التاريخ الإسلامي هو انتهاء حكم «الأسرة الأيوبية»

---

1 ـ د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف ـ نفس المرجع ص88.

فى «مصر» وبداية حكم المماليك، عام 648هـ الموافق 1250م، وكان الملك المعظم «توران شاه» آخر حكام الأيوبيين فى «مصر»، ولم يستمر حكمه شهرًا، فقد تولي الحكم فى أول شهر المحرم عام 648هـ الموافق منتصف أبريل 1250م، وقتل فى السابع والعشرين من الشهر نفسه بتدبير زوجة أبيه «الملك الصالح» المعروفة باسم «شجر الدر» التى تولت الحكم بعده وتزوجت «المعز أيبك التركمانى»، أحد مماليك زوجها الراحل «نجم الدين أيوب»، ثم خلعت نفسها من الحكم بعد ثلاثة أشهر هى صفر وربيع الأول وربيع الثانى من عام 648هـ الموافق 1250م، وتولى زوجها «المعز أيبك» حكم «مصر»، وكان ذلك بداية العصر المملوكى فى «مصر». وقد استمر الملك «المعز أيبك» فى حكم «مصر» سبع سنوات، ثم قتل فى الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول عام 655هـ الموافق 10 من أبريل 1257م بتدبير زوجته «شجر الدر»، حين أراد الزواج عليها، فتولى الحكم بعده ابنه «الملك المنصور نور الدين على ابن أيبك»، وكان صبيا فى الخامسة عشرة من عمره، لا يحسن تدبير الأمور، فتم خلعه بعد ولايته بنحو سنتين وثمانية أشهر فى 17 من ذى القعدة سنة 657هـ الموافق 5 من نوفمبر 1259م، وتولى زمام السلطة بعده «الملك المظفر سيف الدين قطز»، الذى كان له شأنًا كبيرًا فى الجهاد الإسلامى ضد المغول[1].

• سقوط بغداد فى يد المغول وانهيار الخلافة العباسية فى العراق 656هـ - 1258م:

تصاعد خطر المغول فى خلافة «المستعصم بالله»، وخرج قائدهم «هولاكو» ـ حفيد «جنكيزخان» ـ على رأس جيش يبلغ تعداده مائتى ألف قاصدًا «العراق»، وأرسل إلى الخليفة «المستعصم» يطالبه بالاستسلام والدخول فى طاعته، لكن الخليفة أرسل بعض الهدايا إلى «هولاكو»!! وقد وصل جيش «هولاكو» إلى «بغداد» فى شهر المحرم عام 656هـ الموافق 1258م وأحاط

1 ـ د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف ـ نفس المرجع ص91.

بعاصمة الخلافة، وكان جيش «بغداد» قليل العدد لا يبلغ عشرة آلاف فارس، بعد أن كان مائة ألف في عهد الخليفة «المستنصر»، ولم يصمد جيش «بغداد» طويلا فى مواجهة المغول، فاقتحمت قوات «هولاكو» «بغداد» فى العاشر من المحرم عام 656هـ الموافق 17 من يناير 1258م، وقبض «هولاكو على الخليفة «المستعصم» وأهل بيته، بتدبير من وزيره الخائن «ابن العلقمي»، كما تم القبض على عدد كبير من علماء «بغداد» وأعيانها وأمرائها، وتم قتلهم جميعًا، واستمر القتال فى «بغداد» أربعين يومًا، وبلغ عدد القتلى أكثر من مليون شخص، وكانت بلية لم يصب الإسلام بمثلها وهكذا أسقط المغول «الخلافة العباسية» فى «بغداد» عام 656هـ الموافق 1258م، بعد أكثر من خمسة قرون من قيامها عام 132هـ الموافق 749م، وقد ظن المغول أن سقوط الخلافة العباسية قد مهد الطريق أمامه لاكتساح العالم الإسلامى ولكن آمالهم تحطمت على صخرة الجهاد الباسل فى معركة «عين جالوت» بفلسطين فى رمضان سنة 658هـ = 1260م)، بقيادة سلطان «مصر» المملوكى «قطز»، مما مهد الطريق لإحياء الخلافة العباسية فى «مصر» على يد السلطان «الظاهر بيبرس» عام 659هـ الموافق 1261م[1].

---

1 ـ د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف ـ نفس المرجع ص92.

الفصل الثالث

الحياة الإدارية

الإدارة العباسية في العصر الأول:

أ. نظام الحكم:

فقدت الخلافة معناها الإسلامي وأصبح منصب السلطان الإسلامي أكثر من الملك العضوض الذي كان في عهد الأمويين في حين أصبحت الخلافة التي كانت في عهد أبو بكر وعمر وعثمان في خبر كان أو مجرد ماض أو اسم بدون مسمى. أقام العباسيون دولتهم عام 132هـ الموافق 749م وتولى أول خلفائهم «أبو العباس عبدالله بن محمد» السلطة بناء على وصية أخيه إبراهيم الإمام» بعد وقعه في قبضة الأمويين، وقد حكم «أبو العباس» أربع سنوات، وقبيل وفاته عهد إلى أخيه «أبي جعفر المنصور» بولاية العهد من بعده، ومن بعد «أبي جعفر»، «عيسى بن موسى» وكتب العهد بهذا وصره في ثوب وختم عليه بخاتم وخواتم أهل بيته وسلمه إلى «عيسى بن موسى». ومن هنا نلاحظ أن الحكم قد بدأ وراثيًا في عهد «الدولة العباسية» منذ اللحظة الأولى، واقتصر على أهل البيت العباسي، كما أن أكثر الخلفاء كان يوصي بولاية العهد إلى أكثر من شخص؛ مما أدى إلى صراعات ساعدت على تصدع «الدولة العباسية». وحين تولى «أبو جعفر المنصور» الحكم واجه اعتراضًا من عمه «عبدالله بن علي» الذي رفض مبايعته، ودعا لنفسه بالخلافة مدعيًا أنه ولي عهد «أبي العباس»، مما دعا «المنصور» إلى توجيه جيش له بقيادة «أبي مسلم الخراساني» تمكن من القبض عليه والقضاء على دعوته. وقد نقل «المنصور» ولاية العهد من ابن أخيه «عيسى بن موسى» إلى ابنه «محمد»، الذي تولى الخلافة بعد أبيه «المنصور» عام 158هـ الموافق 775م ولقب بالمهدي، واستمر في منصبه حتى توفي عام 169هـ الموافق 789م؛ حيث تولى ابنه «موسى» الملقب بالهادي، ولم يمكث سوى سنة واحدة في الحكم؛ حيث

تولى من بعده أخيه «هارون الرشيد»، ومنذ عهد «الرشيد» أصبح الصراع السياسي على السلطة إحدى السمات المميزة للعصر العباسي الأول، وكان الصراع بين «الأمين» و«المأمون» وقد انتهى بقتل «الأمين» وتولية «المأمون» الحكم

تنظيم الدولة:

ومنذ البداية كان جو المدينة الجديدة مختلفا عن جو دمشق. ولاشك في أن بلاط المنصور كان يشاهد العرب يدخلون ويخرجون، ولكنهم لم يكونوا يحضرون، كما كان الحال على عهد عبدالملك، أمام الخليفة كما لو كانوا أمام شيخ من بينهم. فلم يعد ذلك الذى يقيم ببغداد شيخ قبيلة يمكن للجميع الوصول إليه ومناقشته في الأمور التى تهم الجماعة. فالخليفة العباسي أمام قبل كل شيء، فهو رئيس الجماعة الإسلامية وأمام الصلاة. وعمل العباسيون الذين استندوا في المطالبة بحقوقهم إلى رابطة القرابة بالنبى ﷺ على تأكيد هذه الصلة ففي المناسبات كانوا يرتدون (البردة) التى كان يلبسها الرسول ﷺ. وبينما كانوا قد تخلوا بجزء كبير من سلطانهم الزمنى إلى الوزير، فإنهم احتفظوا بسلطانهم الروحى الذى يرفعهم فوق جميع الناس. ولكن هذه السلطة الروحية تختلف عن مثيلتها عند الأمويين، بفضل مظاهر العظمة التى أحيطوا بها. فالخليفة العباسى لا يظهر إلا في مناسبات نادرة، وحينئذ يظهر محاطا بشعارات الملك. أما عن البلاط فهو عالم وحده فإلى جانب أفراد الأسرة الحاكمة وآل البيت الذين يكونون طبقة الأعيان الممتازة، ثم كبار رجال الدولة والموالى والحرس الخاص، كان هناك القراء والأطباء وعلماء الفلك والشعراء والموسيقيون والمضحكون والخصيان هذا دون الكلام عن الحريم الكبير. لم يصبح إذن خليفة بغداد شيخ قبيلة عربية بل وريث ملوك فارس العظماء، وربما فاق لمعان بلاطه بلاط الأكاسرة والقياصرة. وفيما بعد

سيهتم الخلفاء أيضا بالكتب الفارسية التي تنظم حفلات البلاط الساساني، وستقوم محاولات لتقليدها في بغداد(1).

2. الوزارة:

لم تعد الوظائف والرتب في البلاط وفي الدولة وقفا وراثيا على الأشراف بل أصبحت تعطى وتمنح حسب مزاج الخليفة ورضاه، وأصبحت الثياب الرسمية (الخلع) التي لم يكن يعرفها الأمويون العلامة المميزة لصاحب الوظيفة أو الرتبة. كما أمر المنصور رجال الدولة بأن يلبسوا القلانس المفرطة في الطول. ومنصب الوزير من أهم المناصب التي تميز بها العصر العباسي فالوزير نائب حقيقي لولي الأمر الذي يعهد إليه بأهم جزء من سلطاته الدنيوية. فهو يملك لمحض اختياره تعيين وخلع العمال، وهو المسئول عن توزيع الأرزاق والمرتبات (التصرف في إيرادات الدولة) وحشد الجيش وتوجيه الرسائل والاتصال بولاة الأقاليم. اتخذت هذه الوظيفة التي لم تكن مبدئيا سوى وظيفة الكاتب أهمية عظمى على عهد العباسيين. وكانت وراثية منذ مدة طويلة في عائلة البرامكة، الذين كانوا من سلالة أسرة دينية تابعة للمعبد البوذي بالنوبهار «ببلخ» في «تركستان»(2). تعد الوزارة المنصب الثاني بعد الخلافة في «الدولة العباسية» وقد قسم فقهاء المسلمين الوزارة إلى نوعين:

ـ **وزارة التفويض:** حيث يفوض الخليفة الوزير في تدبير أمور الدولة برأيه واجتهاده، فتكون له السلطة المطلقة في الحكم والتصرف في شئون الدولة.

ـ **وزارة التنفيذ:** حيث يكون الوزير وسيطا بين الخليفة والرعية والولاة، ومجرد من أوامر الخليفة. وقد أحدث العباسيون نظام الوزارة في بداية دولتهم

1 ـ د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف ـ المرجع السابق ص102.

2 ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص95.

متأثرين فى ذلك بالنظم الفارسية، ولم تكن مسئوليات الوزير فى بداية الأمر تبعد كثيراً عن مسئوليات الكاتب، وقد حصر «أبو جعفر المنصور» مهمة الوزير فى التنفيذ وإبداء الرأى والنصح، ولم يكن له وزيراً دائمًا، ومن وزرائه: «الربيع بن يونس» الذى اشتهر باللباقة والذكاء وحسن التدبير والسياسة. وقد ظهرت شخصية الوزراء إلى حد كبير فى عهد الخليفة «المهدى»، لما ساد الدولة من هدوء نسبى، ومن هؤلاء الوزراء الأقوياء «يعقوب بن داود». ثم صار للوزارة شأن كبير فى عهد «الرشيد»، و«المأمون» لاعتماد الأول على البرامكة، والثانى على «بنى سهل»، فمنح «يحيى البرمكى» وزير «الرشيد»، و«الفضل بن سهل» وزير «المأمون» صلاحيات وسلطات واسعة، جعلت نفوذهما يمتد إلى جميع مرافق الدولة، ولكن سرعان ما تخلص منهما(1).

3. الكتابة:

كانت طبقة الكتاب ذات أهمية كبيرة فى «الدولة العباسية»، وكان الكاتب ذا علم واسع وثقافة عريضة، لأنه يقوم بتحرير الرسائل الرسمية والسياسية داخل الدولة وخارجها، كما يتولى نشر القرارات والبلاغات والمراسيم بين الناس، ويجلس على منصة القضاء بجوار الخليفة لينظر فى الدعاوى والشكاوى ثم يختمها بخاتم الخليفة. ومن أشهر الكتاب فى العصر العباسى الأول «يحيى بن خالد بن برمك» فى عهد «الرشيد»، و«الفضل» و«الحسن» ابنا «سهل»، و«أحمد بن يوسف» فى عهد «المأمون»، و«محمد بن عبد الملك الزيات» و «الحسن بن وهب»، و«أحمد بن المدبر» فى عهد «المعتصم» و«الواثق».

---

1 ـ د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف ـ المرجع السابق ص102.

4 . الحجابة:

وهى وظيفــة تقوم بمساعــدة الحكام فى تنظيم الصلة بينهم وبين الرعـية فالحاجب واسـطة بين الناس والخليفة يدرس حوائجـهم، ويأذن لهم بالدخول بين يدى الخليفة أو يرفض ذلك إذا كانت الأسباب غـير مقنعة؛ وذلك حفاظًا على هيبة الخلافـة وتنظيمًا لعرض المسائل حسب أهميـتها على الحاكم الأعلى للبلاد. وقد اقتدى العباسيـون بالأمويين فى اتخاذ الحجاب، وأسرفوا فى منع الناس من المقابلات الرسمية، ولعل هذا هو السبب المـباشر فى نشأة ما أسماه «ابن خلدون» «الحجاب الثاني»، فكان بين الناس والخليـفة حاجزان عبارة عن دارين، أحدهما يسمي «دار الخاصة» والآخر «دار العامة»، وكان الخليفة يقابل كل طائفـة حسب حـالتهـا وظروفـها فى إحـدى هاتين الدارين تبعًـا لإرادة الحجاب على أبوابها.

وإذا كان الأمويون قد اكتفـوا بحاجب واحد ينظم الدخول لدى الخليفة فقد أصبح الخليفة الآن بعيدا، أكثـر فأكثر، عن العامـة وأصبح الجيش يزداد عدده مع الأيام، مـن الموظفين ورجال الحـاشيـة. وانسحب الخلفـاء تماما من إدارة شـئون الدولة تاركـين ذلك لوزرائهم، ولكنهم زاولوا دون وسـاطة حق الحياة والموت. فلقـد أصبح «الجلاد أو السفاح» وهو الشخـصية التى لم تكن معـروفة حـتى ذلك الوقت فى الأدب العـربى واقفـا باستمـرار إلى جـانب الخليفة، كـما أصبح النطع والسيف قـريبين دائما من سرير المـلك حتى صارا رمزا لسلطان الخليفة وشعارا له[1].

5 ـ ولاية الأقاليم:

والمقصـود بالأقاليم: المناطق التى تتكون منها الدولة. وقـد كان النظام الإدارى فى «الدولة العباسـية» نظامًا مركزيًا؛ حـيث صار الولاة على الأقاليم

---

1 ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص74.

مجرد عمال للخليفة على عكس ما كانوا عليه فى «الدولة الأموية»، وقد قسم العباسيون الولاية على الأقاليم إلى قسمين، خصوصًا فى عهد «الرشيد»:

الأول: الولاية الكبرى وهى التى تكون لأحد أبناء الخليفة أو شخص مقرب من الخليفة؛ حيث يتولى هذا الوالى عدة أقاليم فى الدولة ويقوم بتصريف أمورها فى العاصمة، أو من أحد تلك الأقاليم بعد الرجوع إلى الخليفة، ويرسل إليها ما يشاء من الولاة.

الثانى: الولاية الكاملة: حيث يتمتع الوالى ببعض السلطات التى توسع دائرة نفوذه، مثل النظر فى الأحكام وجباية الضرائب والخراج وحماية الأمن وإمامة الصلاة وتسيير الجيوش للغزو. أما عن ولاية الأقاليم لأقاربه فكانت كالآتى: استعمال أخيه يحى بن محمد على الموصل الذى قتل الناس قتلا ذريعا لما أظهروه من محبة بنى أمية ثم وليها عمه سليمان. واستعمل أخاه أبا جعفر المنصور واليا على الجزيرة وأذربيجان وأرمينية. ولى عمه داود بن على على الكوفة ثم على المدينة ومكة واليمن حيث قتل من بها من بنى أمية، ولما مات داود ولى خاله زياد بن عبدالله الحارثى. ولى ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بالكوفة. ولى الشام عمه عبدالله بن على. استعمل عمه اسماعيل بن على على الأهواز[1].

6 ـ الدواوين:

ظهرت الدواوين فى «الدولة الإسلامية»، كبقية المؤسسات الإدارية، نتيجة لاحتياج المسلمين إليها، وقد جعل «ابن خلدون» وجود الديوان من الأمور اللازمة للملك. وللديوان أهمية كبرى فيما يتعلق بأموال الدولة وحقوقها وحصر جنودها ومرتباتهم. ويرجع الفضل فى تنظيم الدواوين فى

1 ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص53.

العصر العباسي إلى «خالد بن برمك». وقد اهتم الخلفاء العباسيون بالدواوين؛ فكثرت اختصاصاتها وتنوعت بسبب التعاون الوثيق بين العباسيين والفرس، فقد أخذ العباسيون الخبرة الفارسية في مجال الإدارة، كما احتفظوا ببعض تنظيمات «الدولة الأموية» خصوصًا في الدواوين والدوائر الرسمية، كديوان المصادرات، وديوان الأزمة (المحاسبة) وديوان المظالم، وغيرها وقد اهتم المهدي بالمشروعات ذات المنافع العامة ومنها نظم ديوانا لذوى الحاجات من المجذوبين وأهل السجون في جميع الجهات أشبه مايكون بنظام الضمان الاجتماعي وإلى المنصور أيضا تدين الدولة العباسية بوضع نظمها الادارية. فلقد حافظ على نظام الديوان البيزنطي الساساني الذي بدأ به الأمويون، وحاول الخليفة دائما أن يضع على رأس كل ولاية حاكم صالح. ودون أن يهمل أفراد عائلته وأقاربه في توزيع الوظائف، لم يتردد الخليفة في أن يعهد إلى الموالي والعتقاء بأعلى وظائف الدولة[1].

7. القضاء:

وهو من الوظائف المهمة في «الدولة الإسلامية»، ويقوم على المحافظة على حقوق الرعية وإقرار العدل والإنصاف بين جميع الطبقات، وحماية الأخلاق العامة، مستمدًا أحكامه من الكتاب والسنة، ونظرًا لأهمية هذا المنصب فقد وضع العلماء المواصفات التي يجب توافرها في القاضي، منها: أن يكون رجلا قويًا عاقلا حرًا مسلمًا عادلا، ويتمتع بالسلامة في السمع والبصر، وأن يكون عالمًا بأحكام الشريعة. وقد حظى القضاة في العصر العباسي الأول بالتبجيل والاحترام، وكان تعيينهم وعزلهم يتم بأمر الخليفة، وأول من فعل ذلك الخليفة «المنصور»، فقد عين قضاة البلاد بأمره عام 136هـ الموافق 753م. وقد استقرت المذاهب الفقهية في عهد «الدولة العباسية»،

---

1 ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص74.

وتعددت مهــام القضاة وكيــفية الإجراء القــضائي، وتوحد القانون وأصــبحت جلسات القاضــي علنية في المــجد وخصــوصًا في عهد «المأمــون». كما اهتم خلفاء العباسيــين بالتثبت من الأحكام، فعينوا جماعة مــن المزكين، وظيفتهم تتبع أحــوال الشهــود، فإذا طعن الخصــم في شهادة أحــد الشهــود سئل عنه المزكي، كما اهتمــوا بأحوال القضاة المادية حتى يعيشــوا في يسر ورخاء. وقد تطور القــضاء بصــورة ملحوظة في العــصر العباسي الأول، وظهــر منصب «قاضي القــضاة» وكان يقيم في عــاصمة الدولة، ويقوم بتــعيــين القــضاة في الأقاليم والبلاد المخــتلفة، وأول من لقب «قاضي القضاة» «أبو ســيف يعقوب ابن إبراهيم»، صاحب كتاب «الخراج»، في عهد «الرشيد»[1].

بفضل منظمة صــاحب البريد التي كانت معــروفة لدى الأمويين، والتي توسع فيها المنــصور، أمكنه فرض رقابة دقيقة علــى إدارة الولايات. فقد كان على أصحاب الــبريد القيام بكل الاستــخبارات، ولكن عملهم الــرئيسي كان يتركز في إمداد الخليفة بالمعلومات عن قيام الولاة بوظائفهم. وكانت تقاريرهم المنظمة الدقيقة لها أهمية خــاصة، إذ أن معلوماتهم عن حالة المحاصيل كانت تسمح باتخاذ الإجراءات المناسبة في الســنوات الجدبة. كما أن إحصاءاتهم عن محطات البريد كانت المصدر الذي استمد منه الجيل التالي علم الجغرافيا الذي ازدهر عند العرب، والذي بــدأه ابن رسته الذي شــغل وظيفة صــاحب البريد بكتابة «المسالك والممالك» وفي ذلك قيل كــان المنصور يقول: ما أحوجني أن يكون على بابي أربعة أنفــار لا يكون على بابي أعف منهم، هم أركان الدولة ولا يطمح الملك إلا بهم: أمــا أحدهم فــقاض لا تأخذه في اللــه لومة لائم، والآخر صاحب شــرطة ينصف الضعيف من القوي، والثــالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية ثم عض على إصــبعه السبابة ثلاث مرات يقول في

---

1 ـ د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف ـ نفس المرجع ـ ص29 ـ 31.

كل مرة: آه آه، قيل ماهو يا أمير المؤمنين! قال: صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة[1].

الإدارة العباسية في العصر الثاني:

كان لضعف الخلافة العباسية المركزية في العصر الثاني تأثير واضح على النظام الإدارى في دولة الخلافة. وأوضح مظاهر هذا التأثير يبدو في نظام «الوزارة». فقد كانت الوزارة في العصر العباسي الأول ـ بصفة عامة ـ تابعة للخليفة خاضعة لنفوذه. وعندما كان الوزراء يحاولون التصرف بصورة مستقلة كانوا يجدون ما يردعهم من بطش الخليفة. أما في العصر العباسي الثاني فقد اختلف الأمر، فقد كان الوزراء أكثر استقلالا ونفوذًا وسطوة وتنامت ثرواتهم لأنهم لم يكونوا يجدون الخليفة الحازم الذى يحاسبهم أشد الحساب، وهذا إذا استثنينا فترة صحوة الخلافة. فلما كانت السنوات الأخيرة في فترة نفوذ الأتراك بطل منصب الوزارة وحل محله منصب أمير الأمراء الذى جار تقريبًا على كل سلطات الخليفة. فلما وقعت الخلافة تحت النفوذ البويهى زال أيضًا منصب أمير الأمراء. فلم يعد هناك للخليفة في كل شئون الخلافة تصرفًا مطلقًا وحرموا الخليفة حتى من سلطاته الشكلية، مع أنهم اتخذوا لأنفسهم وزراء. وفي فترة النفوذ السلجوقى عاد منصب الوزارة، وأصبح للخليفة وزيره، وللسلطان السلجوقي وزيره، ولكن السلطة الحقيقية كانت في يد السلطان السلجوقي ووزيره، رغم أن السلاجقة عاملوا الخلفاء بما يستحقون من توقير. وبعد زوال نفوذ السلاجقة أصبح للخلفاء وزراؤهم المستقلون عن نفوذ الخليفة، ولكن الخلافة في هذه الفترة كانت في طريقها إلى الزوال الكامل ـ ولم تكد دولة الخلافة تتجاوز بغداد وبعض الأقاليم الأخرى المحدودة. وقد تطور منصب الكتابة في العصر العباسي الثاني تطورًا

---

1 ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص75.

ملحوظًا، فاتسمت سلطة الكاتب وتنامى نفوذه. وكان الكاتب يرأس ديوان الرسائل الذى كان يعد من أخطر دواوين الدولة العباسية وكان صاحب هذا المنصب يقوم بكتابة الرسائل السياسية ويختمها بخاتم الخلافة بعد عرضها على الخليفة، وكان ينوب عن الخليفة أحيانًا فى مكاتبه الملوك والأمراء. على أن من أهم التطورات التى شهدها هذا المنصب فى العصر العباسى الثانى أنه لم يعد مقصورًا على الخلفاء بل بدأ الأمراء والسلاطين يتخذون لأنفسهم كتابًا أوسع نفوذًا من كاتب الخليفة. وقد كان ذلك نتيجة طبيعية لضعف منصب الخلافة فى هذا العصر[1].

ومع أن العصر العباسى الأول عرف نظام الحجابة فقد تطور هذا النظام كثيرًا فى العصر العباسى الثانى. فقد كان الحاجب فى العصر العباسى الأول يقوم بمهمة أساسية هى حجب العامة عن السلطان، فلا يأذن أنه يستحق هذا الإذن. أما الحاجب فى العصر الثانى فقد تجاوز هذه المهمة المحددة وادعى لنفسه سلطات واسعة أصبح يتنافس بها سلطات الوزير، وأصبح الحجاب يتدخلون فى أهم شئون الدولة. وقد فتح ذلك مجالا للصراع بين الحجاب والخلفاء والوزراء. أما منصب الإمارة على البلدان ـ وهو من المناصب المهمة فى النظام الإدارى ـ فقد طرأ عليه أيضًا كثير من التطور فى العصر العباسى الثانى. فقد كان هذا المنصب منذ ظهور الإسلام وحتى نهاية العصر العباسى الأول يخضع فى العادة لسلطة الخليفة؛ فهو الذى يملك حق الولاية والعزل. أما فى العصر العباسى فقد اختلفت الأمور تمامًا، ذلك أن الخليفة أصبح يخضع لسلطة عليا من القوى الدخيلة، وهى التى تملك غالبًا حق توليته وعزله، وهكذا تدخلت هذه السلطات أيضًا فى تعيين الأمراء (أو العمال) فى الأقاليم التى تخضع لنفوذهم وكان هذا التطور متمشيًا تمامًا مع ما آل إليه ذلك

---

1 ـ د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف ـ المرجع السابق ص107.

العصر. وقد اتسع نظام البريد في العصر العباسي الثاني اتساعًا كبيرًا. فقد كانت مهمة البريد في بداية نشأته توصيل رسائل الخليفة إلى عماله وولاته ونقل رسائلهم إليه وكذلك أخبارهم. ثم اتسعت مهمة البريد ـ وبالذات في العصر العباسي الثاني ـ لتشمل أيضًا مراقبة العمال والتجسس عليهم، وأن يقدم صاحب البريد إلى الخليفة تقارير دورية وافية بكل ما يحدث في مكان عمله، هذا إذا كان تابعًا للخليفة، ويفعل الشيء نفسه إذا كان خاضعًا لنفوذ الدول المختلفة التي ظهرت في هذا العصر. ولهذا أصبح نظام البريد في ذلك العصر أشبه ما يكون نظام المخابرات في عصرنا[1].

التخلص من أبو سلمة الخلال:

كان أبو سلمة الخلال هو حفص بن سليمان الهمداني من أكبر قبائل اليمن واحدًا من زعماء الدعوة في الكوفة، تولى أمرها بعد وفاة بكير بن ماهان عام 127هـ، وأخلص لها، وبذل جهودًا جبارة في سبيل نجاح تلك الدعوة، واستمر بها حتى نجحت الدعوة والثورة وأعلن قيام الدولة العباسية، بل بعد قيامها عندما لقب بوزير آل محمد، إذ كان أول من وقع عليه اسم الوزارة في دولة بني العباس كما يقول المسعودي. يقول المؤرخون «لما أخذ إبراهيم الإمام إلى مروان نعى نفسه إلى أهل بيته، وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه أبي العباس، وبالسمع والطاعة له، وأوصى إلى أبي العباس، وجعله الخليفة بعده، فسار أبو العباس ومن معه من أهل بيته حتى قدموا الكوفة في صفر عام 132هـ فأنزلهم أبو سلمة الخلال دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم وكتم أمرهم أربعين ليلة من جميع القواد والشيعة، وأراد أن يحول الأمر إلى آل أبي طالب لما بلغه الخبر عن موت إبراهيم الإمام، فقال له أبو الجهم: ما فعل الإمام؟ قال: لم يقدم بعد، فألح عليه، فقال: هذا ليس وقت خروجه

---

1 ـ د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف ـ نفس المرجع ـ ص109.

لأن واسطا لم تفتح بعد، وكان أبو سلمة إذا سئل عن الإمام يقول: لا تعجلوا، فلم يزل ذلك من أمره حتى دخل أبو حميد محمد الحميرى من «حمام أيمن»، فلقى خادمًا لإبراهيم يقال له: سابق الخوارزمى، فقال له: ما فعل إبراهيم الإمام؟ فأخبره أن مروان قتله، وأن إبراهيم أوصى إلى أخيه أبى العباس، واستخلفه من بعده، وأنه قدم الكوفة ومعه عامة أهل بيته، فسأله أبو حميد أن ينطلق به إليهم، فقال سابق: الموعد بينى وبينك غدًا فى هذا الموضع، وكره سابق أن يدله عليهم إلا بإذنهم، فرجع أبو حميد إلى أبى الجهم فأخبره وهو فى عسكر أبى سلمة، فعاد أبو حميد إلى الموضع، وانطلق الاثنان إلى أبى العباس وأهل بيته، فلما دخل عليهم سأل أبو حميد من الخليفة منهم؟ فقال داود بن على، هذا إمامكم وخليفتكم، وأشار إلى أبى العباس، فسلم عليه بالخلافة، وقال: مرنا بأمرك، ولما بلغ أبو سلمة ذلك ركب إلى الإمام وسلم عليه بالخلافة، فقال أبو حميد: على رغم أنفك يا ماص . بظر أمه، فقال له أبو العباس: مه، وأمر أبا سلمة بالعودة إلى معسكره. عندما علم أبو سلمة بوفاة إبراهيم الإمام، وبعد أن نجحت الثورة فى خراسان رأى أن يحول الإمامة إلى العلويين فكاتب بالفعل لثلاثة من زعماء العلويين هم على التوالى[1]:

1 ـ الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب عليهم السلام.

2 ـ عبدالله المحض بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب عليهم السلام.

---

1 ـ عبد العزيز محمد اللميلم ـ المرجع السابق ص89 وانظر: البلاذرى / أنساب الأشراف/ القسم الثالث ص ص 139 ـ 140، ابن الأثير/ فى التاريخ جـ4 ص ص 323 ـ 323 ، المقدسى/ البدء والتاريخ جـ6 ص68.

3 ـ عمر الأشرف بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام وقد كتب إليهم أبو سلمة الواحد تلو الآخر، يدعو كل واحد منهم إلى قبول منصب الخلافة، إلا أنهم لم يستجيبوا لدعوته، ربما لعدم وضوح الرؤية بالنسبة لهم. أو لاعتقادهم بأن الوقت لم يحن بعد للتفكير جديًا في هذا الموضوع فكان كل واحد منهم مترددًا في اتخاذ قرار حاسم حيال قبول تلك الدعوة من أبي سلمة، ولهذا آثروا التريث ريثما تستقر الأمور وتنجلي الغمة. وقد فاتهم بالفعل أن ما أقدموا عليه، وهو الإحجام عن قبول تلك الدعوة قد أضاع عليه فرصة ذهبية لا يمكن تعويضها، في حين استغلها بنو عمومتهم العباسيون. ويبدو أن تردد هؤلاء الثلاثة في قبول الدعوة هو عدم ثقتهم بولاء أبي سلمة للمواليين. لأنه تبين لهم بأن ذلك الرجل كان شيعة للعباسيين يؤيد هذا ما أشار إليه المسعودي من أنه عندما أرسل أبو سلمة خطابًا إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال جعفر للرسول: وما أنا وأبو سلمة؟ وأبو سلمة شيعة لغيري ولهذا فإن إحجام العلويين عن قبول بيعة أبي سلمة لأول وهلة إنما مرده هو عدم الثقة في أبي سلمة ليس إلا.

تحدث البعض عن الدوافع التي دفعت بالخلال للقيام بحركته تلك إذ يقول: «بالرغم من اختلاف المؤرخين في تفسيرهم لهذا الأمر إلا أننا نعتقد بأن الخلال لم يكن واثقًا من أبي العباس، حيث إن علاقته به لم تكن وثيقة كعلاقة الخلال بإبراهيم، وقد أدرك الخلال أن تسلم أبي العباس للسلطة ربما سيحد من نفوذه القوي الذي أخذ يتعظم خاصة بعد نجاح الثورة وسيطرة الخراسانية على الكوفة، ولذلك حاول الخلال أن يجد شخصية أخرى هاشمية غير عباسية ينصبها خليفة، ويحتفظ بنفوذه السياسي الكبير، ذلك لأنه سيكون صاحب الفضل على الخليفة الجديد، وسيلعب دور (صانع الملوك) في الدولة الجديدة. لقد باءت محاولة الخلال بالفشل لشك العلويين وحذرهم منه أولا،

ولتردد الشخصيات العلوية بالمغامرة التي تتطلبها ثانيا، ولقوة الدعاة العباسيين في الكوفة ثالثـا، فقد اكتشف الدعـاة مكان أبي العباس، وأعلنوا بيعته بين الناس، مما اضطر الخلال إلى الاعتراف بالأمر الواقع والبيعة وبالرغم مما حصل من أبي سـلمة عندما أخـفى الأمر عن العـباسيين بعد نجاح الثورة، وبالرغم من تعاطفه مع العلويين والتواطؤ معـهم ومحاولة صرف الأمر إليهم إلا أن أبا العباس قد استوزره، ولقب بوزير آل محمد، فعل ذلك أبو العباس السفاح كله ريثما تهدأ الأمور وتستقر الأوضاع، وحتى لايتهم العباسيون بقتل وزرائهم، ومن حققوا لهم ملكا، أما بعد ذلك ـ أقـصد استقـرار الأوضاع ـ فسوف يعمل مـا من شأنه التخلص مـن أبي سلمة بأية طريقـة تضمن لأبي العباس سرية ذلك.

الأمر اقتصر على ذلك ـ أقصد إخفـاء الأمر عن العباسيين طيلة أربعين يومًـا ـ بل إن أبا سلمة نفـسه راح ضـحيـة ذلك العمل حيث نقل إلى أبي العبـاس بعد أن تولى الخلافـة خبر تلك المراسـلات، فأسر ذلك في نفـسه. فعندما افـتضح أمر أبي سلمة بالنسبـة لإخفاء الأمر عن العباسـيين حاول أن يحـفظ ماء وجـهه وذلك بـالذهاب إلى أبي العبـاس وإخـباره بنهـاية الدولة الأموية، ومبايعته بالخلافة، إذ سلم عليـه بها، وقبل يد أبي العباس وقدميه، واعتذر له عمـا بدر منه، فقبل السفاح عذره قائلا: عـذرناك يا أبا سلمة غير معتد وحـقك لدينا معظم، وسابقـتك في دولتنا مشكورة، وزلتك مغـفورة. ومع هذا فإن الأمر قد فات في نظر أبي العبـاس كما يقول المقدسي لقد صمم أبو العبـاس على التخلص من أبي سلمة مـهما كلفه الأمـر، وأخذ يفكر في الأمر مليًـا حتى هداه إلى الكتابة لأبي مـسلم الخراساني شـارحًا له في ذلك مراسلة الخـلال للعلويين، ومبينًا ميوله تجـاههم، ورغبة أبي سـلمة في نقل الخـلافة إليهم إذ قـال له: إني وهبـت جرمـه لك، ثم أرسل السـفـاح في

استئصال شأفة ذلك الرجل. ويبدو أن ذلك أيضًا وافق هوى في نفس أبي مسلم الذى أراد هو الآخر التخلص من شخص يعتبر من أبرز شخصيات الدولة العباسية، ولعله رأى في قتله ما يشبع رغبته، وذلك بانفراده بالسلطة إن قدر له ذلك، وأن لا يكون لأحد ذكر سواه، لأن وجود أبي سلمة يزعج ـ ولا شك أبا مسلم، حيث أن نفوذ أبي سلمة الواسع أصبح يشكل خطورة على أبي مسلم والخليفة أيضًا إذ يقول ابن قتية. وكان أبو سلمة يظهر الإدلال والقدرة على أمير المؤمنين. ولا جدال في أن أبا مسلم قد وجد في استئصال شأفة أبي سلمة فرصة للانفراد بالنفوذ إذ يقول البعض: كان أبو مسلم أخا لأبي سلمة في الجنس، ومنافسه في الدولة، ومحاول صرف الخلافة عن أهلها ليظفر وحده بسلطانها، لذلك لا يكاد أبو مسلم يستشار في هذا الأمر حتى يبعث إلى الهاشمية من يقتل أبا سلمة في الليل، وبذلك يريح الله الخلافة من كيد أبي سلمة، ويريح أبا مسلم من منافسة أبي سلمة، إلا أن أبا مسلم نسي أن النظر سيتحول إليه، وأن التهمة ستتركز فيه ويضيف الدينوري إلى ذلك قائلا: إنه كان ينفذ الأمر من غير مؤامرة يقصد أبا سلمة. ولهذا لا نستبعد رغبة أبي مسلم في التخلص من أبي سلمة، وموافقة الخليفة على استئصال شأفته عندما طلب منه الخليفة ذلك[1].

يقول البلاذري: كتب أبو العباس إلى أبي مسلم يعلمه الذى كان من تدبيره في صرف الأمر عنه، ونكثه بيعة الإمام، فكتب أبو مسلم يشير بقتله، فكتب إليه: أنت أولى بالحكم فيه فابعث من يقتله، فوجه مرار بن أنس الضبي، فلقيه ليلا فأنزله عن دابته ثم ضرب عنقه، ثم جمع أبو الجهم بن عطية ـ وكان عينا لأبي مسلم يكتب إليه بالأخبار ـ جميع القواد فقال: إن

---

1 ـ عبد العزيز محمد اللميلم ـ نفس المرجع ص92 وانظر براتق: محمد أحمد: الوزراء العباسيون ص53 الأخبار الطوال ص368.

حفصًا كان غاشًا لله ورسوله والأئمة فالعنوه. ويقول ابن طباطبا: استوزر السفاح أبا سلمة وفوض الأمور إليه وسلم إليه الدواوين، ولقب وزير آل محمد، وفي النفس أشياء، وخاف السفاح إن هو قتل وزيره أن يستغر أبو مسلم ويتمر، فتلطف لذلك، وكتب إليه يعلمه بما عزم عليه أبو سلمة من نقل الدولة عنهم، ويقول له: إنني وهبت جرمه لك، وباطن الكتاب يقتضي تصويب الرأى في قتل أبي سلمة. بينما أشار الطبرى في معرض حديثه عن ذلك من وجه آخر إذ يقول: تذاكر قوم ماصنع أبو سلمة، فقال رجل منهم: ما يدريكم؟ لعل ما صنع أبو سلمة كان عن رأى أبى مسلم، فقال أبو العباس السفاح: لئن كان هذا رأي أبي مسلم إنا ليعرض بلاء إلا أن يدفعه الله عنه. كما أورد ابن قتيبة رواية شبيهة برواية الطبرى إذ يقول فيها:

لما قدم كتاب أبي العباس السفاح إلى أبي مسلم كتب إليه قائلا: إن كان رابك منه ريب فاضرب عنقه، فلما أتاه الكتاب قال له وزراؤه: إنك لا تأمن من أن يكون ذلك غدراً من أبي مسلم، وأن يكون إنما يريد أن يجد السبيل إلى ما تتخوف منه، ولكن اكتب إليه أن يبعث إليك برجل من قواده يضرب عنقه.

ومن يدرى بالفعل؟ فلربما دفع أبو مسلم بأبى سلمة إلى أن يسلك هذا المسلك مع العلويين حتى يوقع به بالتالى أمام العباسيين، ويخلو له الجو بحيث يصبح هو الشخصية المرموقة في الدولة العباسية بعد إزالة وزير آل محمد من طريقه، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، فلعل أبا مسلم عندما كتب إلى أبي العباس يحرضه على قتل أبي سلمة إنما أراد بذلك أيضًا أن يسجلها على العباسيين ويدينهم في هذا، إن قدر له أن ينجح في مسعاه وهو الاستحواذ على السلطة. إذا فإشارة كل من الطبرى وابن قتيبة - في رأيي - لا تبعدان كثيراً عن الصواب. وهناك رواية أخرى انفرد بها كل من اليعقوبى

والمسعودي تختلفان عن سابقتيهما وهي أن أبا مسلم وليس السفاح هو الذي أشار بقتل أبي سلمة إذ يقول المسعودي: وكان في نفس السفاح من أبي سلمة شيء لأنه كان حاول في رد الأمر عنهم إلى غيرهم، فكتب أبو مسلم إلى السفاح يشير عليه بقتله ويقول له: قد أحل الله لك دمه لأنه قد نكث وغير وبدل، فقال السفاح: ما كنت لأفتتح دولتي بقتل رجل من شيعتي لاسيما مثل أبي سلمة، وهو صاحب هذه الدعوة، وقد عرض نفسه، وبذل مهجته، وأنفق ماله، وناصح إمامه، وجاهد عدوه. وقد كلمه أبو جعفر أخوه، وعمه داود بن علي في ذلك، وقد كان أبو مسلم كتب إليهما يسألهما أن يشيرا على السفاح بقتله، فقال أبو العباس، ما كنت لأفسد كثير إحسانه، وعظيم بلائه، وصالح أيامه، بزلة كانت منه، وهي خطرة من خطرات الشيطان، وغفلة من غفلات الإنسان، فقالا له: فينبغي يا أمير المؤمنين أن تحترس منه، فإنا لا نأمنه عليك، فقال: كلا، إني لآمنه في ليلي ونهاري، وسري وجهري، ووحدتي وجماعتي، فلما اتصل هذا القول من أبي العباس بأبي مسلم أكبره وأعظمه، وخاف من ناحية أبي سلمة أن يقصده بمكروه، فوجه جماعة من ثقات أصحابه في إعمال الحيلة في قتل أبي سلمة. أما اليعقوبي فقد زاد على ذلك قائلا: بلغ أبو العباس عن أبي سلمة أمور أنكرها، وذكر له تدبيره، وما كان عليه وتأخيره له، والتماسه صرف الدولة إلى بعض الطالبيين، وكتب إليه أبو مسلم من خراسان: أن اقتل أبا سلمة، فإنه العدو الغاش، الخبيث السريرة، فكتب إليه أبو العباس: أن وجه أنت من يقتله، وكره أبو العباس أن يوحش أبا مسلم بقتله، أو يوجد سبيلا إلى الاحتجاج عليه به، فوجه أبا مسلم مراد بن أنس الضبي، فجلس على باب أبي العباس، فلما خرج ثار إليه فضرب عنقه. ومعنى هذا فإن كلا من اليعقوبي والمسعودي يشيران إلى أن أبا مسلم هو الذي يتحمل كامل المسؤولية في قتل الرجل العظيم الذي قدم

الكثير من الجهد والمال لخدمة الدعوة والدولة، وكان هدف أبي مسلم من ذلك الإجراء الذى اتخذه معروفًا ولا يقبل الجدل[1].

وبالرغم من تواتر الأخبار لدى العديد من المؤرخين بالنسبة لتواطؤ أبى سلمة مع العلويين ومحاولة تحويل الأمر إليهم، إلا أن هناك من أورد خلاف ذلك إذ يشير ابن العمراني إلى أن أبا مسلم وليس أبو سلمة هو الذى حاول تحويل الخلافة إلى العلويين إذ يقول عن سبب مقتل أبى سلمة:

«جرى بين أبى مسلم وأبى سلمة ملاحاة فى أمر من الأمور، فقال له أبو مسلم: هذه الدولة أنا أظهرتها، فإن لزمت معي ما يلزمه التابع للمتبوع وإلا أعدتها فاطمية، ثم ندم أبومسلم على ما بدر منه، وخاف أن يوصله أبو سلمة إلى سمع السفاح، وكان أبو سلمة يسمر عند السفاح إلى هزيع من الليل فأوقف له أبو مسلم جماعة وبأيديهم السيوف، فلما عبر هناك قطعوه إربًا إربًا».

وهذا لا يمنع من أن أبا مسلم هو الآخر كان يتعاطف مع العلويين إلا أن المتعارف عليه لدى كثير من المؤرخين هو أن أبا سلمة هو الذى حاول صرف الأمر إلى العلويين بشكل واضح وجلى كما أثبتته أمهات كتب التاريخ. كما يجب أن لا يغيب عن البال بأن مركز أبى سلمة كان خطرًا على الدولة العباسية وعلى الخليفة نفسه، لأن أبا سلمة لم يكن يدين لأبى العباس فى هذا المنصب، حيث إنه كان رئيسًا للدعوة فى الكوفة قبل أن يظهر اسم أبى العباس على السطح، وكان أبو سلمة يظهر الإدلال والقدرة على أمير المؤمنين كما يقول ابن قتيبة. وسواء كان مقتل أبى سلمة بمشورة السفاح أم برأى أبى مسلم فإن ذلك الرجل قد قضى نحبه، وقتل ضحية لسياسته تجاه

---

1 ـ عبد العزيز محمد اللميلم ـ نفس المرجع ص594 انظر مروج الذهب جـ3 ص ص 284 ـ 285 تاريخ اليعقوبى جـ2 ص352.

العباسيين، ولسياسة الدولة العباسيــة نفسها، وختمت حياته، وطويت صفحة من أعظم الصـفحـات في تاريخ حيـاة ذلك الرجل، وفي تاريخ قيــام الدولة العبـاسية نظير مـا قدمه من أياد بيضــاء في العمل على نجاح الدعوة فـالثورة فـالدولة، كل تلك ذهبت أدراج الرياح. ويبـدو بأن أبا سلمة يتـحمل جـزءاً كبيـراً مما تعرض له على يد السلطة العبـاسية سواء عن طريق أبي الـعباس أو عن طريق أبي مسلم، لأن أبا سلمـة أحسن مبتدئاً وأسـاء معقبًا، كـما يقول المنصور عن أبي مسلم عندما رمى برأسه إلى أتباعه. ولهذا فإنه ليس أمام أبي العباس من خـيار إلا استـئصال شأفتـه حتى لا ينفرط العقـد وتذهب جهود العباسيين سدى. وعلى العموم فإن مـا أقدم عليه أبو العباس السفاح إنما كان سيـاسة تنم عن دهاء وحيلة وذلك بإبعاد الـتهمة في قـتال أبي سلمة عن بني العباس، وإلصاقها بأبي مسلم الذي لم يكن هو الآخر محبوبًا من العـباسيين، لأنه أصبح ـ أي أبو مـسلم ـ في نظر العباسيين أقوى شخصـية سياسية في خراسان، بل وفي غيرها من المناطق، وكان تعيين الخليفة السفاح له واليًا على خراسان بمثابة اعتراف بالأمـر الواقع. ولقد وضحت طموحات أبي مسلم في وقت مبكر قـبل إعلان دولة بني العبـاس ذلك أنه قتل نقيب النقـباء، وداعي الدعاة «سليمان بن كثير الخزاعي» علـى مرأى ومــسمع من أبي جعفر المنصور عندما زار خـراسان إذ لم يسـتأذنه في قتـل سليمان بن كـثيـر مع وجود أبي جعـفر، وبالـرغم كذلك من توصـية إبراهيم الإمـام أبا مسلم بأنه لايعـصي لسليمـان بن كثـير أمرًا ولا يخـالف له رأيا، وإن أشكل على أبي مـسلم أمر فليرجع إلى سليمان، ومع كل ذلك فقد قتله أبو مسلم دون استشارة أحد من العباسـين[1].

---

1 ـ عبد العزيز اللميلم ـ نفس المرجع ص96.

يبدو أن إرسال أبي جعفر إلى خراسان إنما كان الهدف منه هو جس النبض، والتعرف عن كثب على نفوذ أبي مسلم ونواياه، بالرغم من أن سبب الزيارة في الظاهر إنما كان بقصد التشاور في أمر أبي سلمة الخلال، وانحرافه عن العباسيين إلى العلويين، وكذلك الرغبة في أخذ البيعة من أبي مسلم لكل من الخليفة وولي العهد، إلا أن أبا جعفر أثناء زيارته تلك قد زادت شكوكه في ولاء أبي مسلم لأمور رآها واضحة أمام ناظريه، ولعل من بينها قتل أبي مسلم لسليمان بن كثير دون استشارة أبي جعفر في الأمر على الأقل، هذا بالإضافة إلى شعور أبي جعفر بأن أبا مسلم لم يحتف به أثناء إقامته هناك بما يليق به، مما يضع علامات استفهام أمام أبي جعفر حيال ذلك الولاء. إن قتل سليمان بن كثير على يد أبي مسلم دون موافقة أبي العباس ودون استشارة أبي جعفر تدل دلالة واضحة على اعتداد أبي مسلم بشخصه، وقوة نفوذه، ولهذا نرى بأن أبا جعفر عندما عاد من خراسان قال لأبي العباس السفاح! إن أبا مسلم يفعل ما يريد، بل حرض الخليفة على قتله قائلا له: تغده قبل أن يتعشاك، والله إن في رأسه لغدرة، ولكن أبا العباس آثر التريث في اتخاذ إجراء صارم ضد أبي مسلم على اعتبار أن الوقت لم يحن بعد للتنكيل به، ولأن هناك العديد من الأعوان والأتباع لأبي مسلم، والذين يخشى بأسهم إن قدر للعباسيين أن يتخذوا إجراءً كهذا، وإضافة إلى ذلك فإن لدى أبي مسلم عيون على أبي العباس نفسه، يوافونه بكل صغيرة وكبيرة عما يجري داخل الخلافة. وهذا لا يعني أن أبا العباس لم يكن لديه الاستعداد للقضاء على هذا الرجل، ولكنه كان أكثر تعقلا من أبي جعفر أو على الأصح أقل تسرعًا من أبي جعفر خاصة في مثل هذا الأمر. حيث يحتاج الموضوع إلى بعض الوقت. استمر الوضع على ما هو عليه بالنسبة لموقف العباسيين من أبي مسلم طيلة عهد أبي العباس، فلما تولى أبو جعفر الخلافة جد في

الأمر، وعمل على التخلص من أبي مسلم بأية طريقة، وقد تم له ما أراد، عندما استدرجه إلى العراق بالعديد من الوسائل حيث أن أبا مسلم قد أزمع الخروج إلى خراسان مجمعًا على الخلاف، ولكن الخليفة تمكن من إقناعه بالحضور إلى العراق لأنه لو لم يدخل العراق لما استطاع أبو جعفر عمل شيء ضده، وعندما قدم أبو مسلم إلى العاصمة استقبله أبو جعفر وأعد له مسكنًا خاصًا ما لبث أن حاكمه محاكمة تنم عن عزم المنصور على استئصال شأفته حيث أصبح خطرًا على الخلافة بل الخليفة، وقد انتهت حياته على يد أربعة من حراس المنصور الذين اعتوروه بسيوفهم، عندما صفق المنصور بيديه معلنًا إشارة البدء في قتله.

العباسيون وسياسة التخلص من الزعامات وأصحاب النفوذ:

ولم يقتصر الأمر على ذلك بالنسبة للإيقاع بزعامات المؤسسين للحكم العباسي من أمثال أبي سلمة الخلال وأبي مسلم الخراساني، فلقد قاوم العباسيون تطلع المشارقة إلى النفوذ والسلطة بكل ما يستطيعون، فإضافة إلى ما ذكرنا نرى بأن الرشيد أيضًا ينكل بالبرامكة، وكذا المأمون عندما نكل بالفضل بن سهل وزيره. كل هذا دفع بالعباسيين إلى التنكيل بتلك الزعامات عندما تطلعت إلى السلطة والنفوذ أو مالأت العلويين وأشياعهم، ولعل مما يؤيد هذا الكلام ما أشار إليه البعض إذ يقول: «وتتبين لك أسباب استياء بعض طبقات الأمة العربية، وأكثر الأمم المغلوبة من سياسة بني العباس، ومحاولة إسقاط الدولة المذكورة، ولا تستثنى من بين هذه الأمم أمة واحدة، حتى الأمة الفارسية التي كان ينتظر أن تكون راضية عن حالتها في أيام بني العباس، وسعيدة بما طرأ على الإمبراطورية العربية من التغيير الذي أدى إلى انتقال عاصمة المملكة إلى جوارهم، وإشراك الطبقة العالية منهم في إدارة البلاد، واقتباس بعض أنظمتهم وعاداتهم القديمة، إلى غير ذلك من طرق

المجاملة والتزلف إليهم، ومع ذلك لم تكن المشارقة راضية عن حالتها في خلافة بني العباس عامة، وقد أخذ استياؤهم يظهر بصورة جلية بعد نكبة البرامكة حين أخذت المشارقة تدرك أن سياسة بني العباس نحوهم لم تكن لتختلف كثيراً عن سياسة أسلافهم، وأنهم لم يكونوا يجاملونهم ويقربونهم من أنفسهم في أول عهدهم بالخلافة إلا لأنهم كانوا في حاجة ماسة إليهم، ولأن مصلحة أسرتهم كانت تقتضي ذلك لا مصلحة المشارقة، ولولا ذلك لما قضوا على حياة أبي مسلم الخراساني الذي أجلسهم على كرسي الخلافة، وحياة كثيرين من عظماء المشارقة وقوادهم. ولهذا ولأسباب أخرى لم يمض على حكم بني العباس زمنًا طويلاً حتى أخذ المشارقة يشعرون بأن لا داعي لسرورهم من التغيير السياسي الذي تم بمساعدتهم في الخلافة الإسلامية، وأنه لا أمل لهم في تحسين شروط حياتهم الاقتصادية والحقوقية، لأنهم رأوا أن الأسرة الجديدة تتبع في سياستها الداخلية سياسة الأسرة السابقة أي «سياسة السوط والسيف». هذا الكلام الذي قال به هذا الكاتب لايخلو من مبالغة شديدة في كثير من الآراء التي طرحها فليست أغلب الأمم المغلوبة عربية كانت أم غير عربية مستاءة من الحكم العباسي ومحاولة في نفس الوقت إسقاط الدولة المذكورة. ونفس الشيء بالنسبة لأبي مسلم الخراساني فليس أبو مسلم الخراساني وحده هو الذي أجلس العباسيين على كرسي الخلافة ـ كما يدعي الكاتب بل هناك العديد ممن أسهموا في قيام الدولة العباسية، وهم لا يقلون بحال من الأحوال عن أبي مسلم الخراساني إن لم يزيدوا عليه. ولو عدنا إلى الوراء قليلا لوجدنا أن الدعوة للرضا من آل محمد قد قامت في نهاية القرن الأول الهجري أو أوائل القرن الثاني الهجري وقام بهذا الأمر العديد من الدعاة والنقباء ممن ضحوا في سبيل نجاح الدعوة قبل أن يولد أبو مسلم الخراساني، فأبو مسلم لم يشترك في هذا الأمر إلا بعد مضي ما يزيد

عن سبعة وعشرين عامًا. كلها قام بها رجال أكفاء ربما يتوفر للبعض منهم إضافة إلى ما يتميز به أبو مسلم عنصر الإخلاص الذى افتقده أبو مسلم خصوصًا فى نهاية الأمر[1].

التخلص من عبدالله بن على عم المنصور

اعتلى حكم الخلافة بعد السفاح أخوه أبو جعفر عبدالله الملقب بالمنصور (المنصور بالله) وهو الذى يعتبر المؤسس الحقيقى للأسرة العباسية. وأول مشكلة تعرض لنا بموت السفاح وإعلان خلافة المنصور هى مشكلة الأسرة الحاكمة وولاية العهد. ورغم تدخل أبى جعفر فى الحكم تدخلا مباشرا مع أبى العباس وظهوره بمظهر الشريك لأخيه فى الحكم - حتى قيل أنه كان أسن منه وكان أحق منه بالخلافة - رغم هذا ورغم أن السفاح عهد له بولاية العهد والخلافة من بعده وأخذ له البيعة، على أن يلى ابن أخيه عيسى ابن موسى، من الهاشميين وكبار رجال الدولة، فإن اعتلاءه لعرض الخلافة لم يتم دون منازعة. وربما كان طبيعيا حدوث مثل هذا النزاع أول الأمر نظرا لحداثة الدولة وعدم استقرار - أو بوجه أحرى عدم قيام - نظمها وتقاليدها. ولكن المسألة كانت أعمق من هذا إذ ستكون نقطة من نقط الضعف الخطيرة، طيلة حكم الأسرة التى تظهر فى شكل الصراع بين أفراد الأسرة من أجل الحكم. والحقيقة أنه لا ينبغى إلقاء تبعة ذلك على الأسرة الجديدة، إذ المسألة تاريخية ترجع إلى عهد الأمويين بل وأبعد من هذا إلى عهد الخلفاء الراشدين فالحكومة الإسلامية وهى السلطة الانتخابية القديمة التى أصبحت وراثية لم تتخل عن المبدأ الأول (مبدأ الانتخاب) عندما اتخذت المبدأ الثانى (مبدأ الوراثة) ولهذا تحملت نتائج عدم الدقة هذه حتى أيامنا. فالمبدأ الوراثى نفسه

---

1 - عبد العزيز محمد النميلم - نفس المرجع ص99 وانظر: جـورى/ بندلى: من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام/ الجزء الأول من الحركات الاجتماعية ص ص 52 - 53.

لم يفرض حق الأولية للأسن، وعلى ذلك ظل الباب مفتوحا دائما للأزمات الوراثية. فمنذ البداية وسيرا على نهج ما كان يحدث على عهد الخلفاء الراشدين (الانتخابيين)، أراد الأمويون أن يتحاشوا الخطر عن طريق تعيين من سيرثهم من أقاربه أثناء حياتهم، ثم العمل على إعطاء هذا الاختيار صفة عامة (عن طريق البيعة). ورغم هذا فإن هذا التعيين وهذا الاعتراف المقدم بخليفة الغد لم يحد من طمع المطالبين بالخلافة وجشع أتباعهم بل ومؤامرات الحريم. وفى عام 136هـ الموافق 754م عندما مات أبو العباس السفاح كان أبو جعفر على إمارة الحج ويصحبته أبو مسلم. وقام بأخذ البيعة لأبى جعفر عيسى بن موسى والى الكوفة، وهو ولى العهد التالى حسب وصية السفاح. وكتب عيسى إلى أبى جعفر يعلمه بذلك، كما كتب إلى الأمصار يطلب البيعة للخليفة الجديد. هذا ولو أن بعض النصوص تقول أن عم الخليفة عيسى بن على الذى كان بالأنبار حيث مقام أبى العباس دعا الناس لنفسه ولكنه اعتذر عند وصول أبى مسلم بأنه فعل ذلك من أجل ضبط العسكر وحفظ خزائن الأموال[1].

وكان عم الخليفة عبدالله بن على بطل موقعة الزاب ووالى الشام، قد سار على رأس الجيوش من أهل الشام وخراسان التى حشدت لحرب البيزنطيين (الصائفة). ولكن عندما وصله رسول عيسى بن موسى يخبره بموت السفاح ويطلب إليه البيعة لأبى جعفر توقف عن التقدم، ودعا الناس إلى بيعته هو نفسه. وكان لابد له من أن يبرر موقفه وأحقيته فى المطالبة بالخلافة، فقال: إن السفاح حين أراد أن يوجه الجنود إلى مروان بن محمد لم ينتدب غيرى وعلى هذا خرجت من عنده. معنى ذلك أنه كان يرى أن قتال مروان الخليفة الأموى كان حقا للخليفة العباس الذى حل أو سيحل محله

1 ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص55.

وحده، وأن انتداب الخليفة له للقيام بهذا الأمر معناه نيابته عنه، وأنه لايتنازل عن هذه النيابة، ولايعترف بما حدث بعد ذلك من العهد لغيره. وشهد لعبد الله بعض القواد وبايعوه. هذا على أنه يمكن النظر إلى المسألة من زاوية أخرى، وإخراجها من نطاق نزاع ضيق بين أفراد أسرة واحدة إلى نطاق أوسع هو الصراع بين الشام وخراسان بناء على هذا يمكن اعتبار خروج عبدالله بن علي، والي الشام على الخليفة الجديد، كرد فعل للولاية التي فقدت مجدها ومحاولة جديدة من جانب أهل الشام لاسترداد سلطانهم الضائع، وذلك بعد الثورات الضعيفة التي قضى عليها بسهولة من مبدأ الأمر ـ ولاشك في أن تشجيع أهل الشام هو الذي جرأ عبدالله بن علي على الثورة. وسار عبدالله بن علي حتى نزل حران وحاصرها. وعاد أبو جعفر من الحج ليجد نفسه أمام عصيان عمه، ولم يكن له ملاذ غير أبي مسلم رغم ما كان يضمره له من حقد، وما أظهره رجل الدولة الكبير من تعال، وما كان يشعر به في قرارة نفسه من الخدمات الكبيرة التي أداها للدولة حتى غلب على أبي جعفر أمير الحج. وأمر المنصور أبا مسلم بالمسير لحرب عبدالله، والظاهر أن عبدالله خشي خيانة جنده من الخراسانية الذين كانوا يخلصون لأبي مسلم فتخلص منهم تقول الرواية أنه قتل منهم حوالي 17 ألف ولم يبق له إلا أهل الشام، وهذا يؤيد فكرة الثورة الشامية[1].

تقدم أبو مسلم فانسحب عبد الله من «حران» إلى «نصيبين» وتحصن هناك. ولم يرد المنصور أن ينفرد أبو مسلم بهذا الأمر فاستدعى القائد الشهير الحسن بن قحطبة من «أرمينيا» (وكان واليا عليها)، وأمره أن يوافي أبا مسلم فلحق به بالموصل. وسار أبو مسلم حتى نزل بناحية «نصيبين» قريبا من عبدالله وأهل الشام. والظاهر أن مراكز الشاميين كانت حسنة التحصين صعبة

1 ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص56.

المنال فلجأ أبو مسلم إلى خطة سليمة لزحزحتهم من مراكزهم الاستراتيجية فكتب إلى عبد الله أنه لم يأت لقتاله ولكنه الخليفة ولاه الشام وأنه سيتوجه إليها. عندئذ خشى أهل الشام من أصحاب عبدالله على ديارهم وطلبوا التوجه إلى الشام لحمايتها، وكان عبدالله يعلم أن هذا لم يكن إلا حيلة من أبي مسلم وأنه لابد آت لقتالهم. ولم يقتنع الشاميون فارتحل عبد الله معهم نحو الشام. عندئذ تحول أبو مسلم فنزل في معسكر عبدالله بن على في الموضع الاستراتيجي المحصن واضطر عبدالله إلى العودة والنزول في موضع عسكر أبي مسلم. واستمر الصراع بين الجانبين مدة طويلة (حوالى 5 خمسة أشهر). وكان أهل الشام أكثر فرسانا، ورغم حصانة المواقع التي احتلها أبو مسلم فإنه بعد شهر من بدء المناوشات وجه الشاميون هجمة قوية نحو المعسكر العباسي، وتمكنوا من زحزحته عن مواضعه. وكان أبو مسلم من جهته يقوم بالإشراف شخصيا على العمليات الحربية إذ أقام عريشا (مرقبة) كان يجلس عليه إذا التقى الناس، فينظر إلى القتال فإن رأى خللا في الجيش سده عن طريق إرسال الرسل إلى مختلف القواد لاتخاذ الخطة المناسبة. وفعلا لم يستفد أهل الشام من انتصارهم المحلى. وفي يوم 7 من جمادى الثاني عام 137هـ الموافق آخر نوفمبر سنة 754م. وقعت المعركة الفاصلة. وتتلخص خطة الوقعة في أن أبا مسلم أمر الحسن بن قحطبة أن يعبئ الميمنة أكثرها. إلى الميسرة ويترك في الميمنة جماعة أصحابه وأشداءهم ولما رأى أهل الشام ذلك كشفوا ميسرتهم وانضموا إلى ميمنتهم بإزاء ميسرة أبي مسلم. وأمر أبو مسلم رجال القلب والميمنة بالحملة على ميسرة أهل الشام فحملوا عليهم فحطموهم، وانهزم أصحاب عبد الله وتركوا عسكرهم. واكتفى أبو مسلم بالانتصار فأمن الناس بعد الهزيمة وأمر بعدم الانتقام منهم. ولما كتب إلى المنصور يعلمه بالنصر والاستيلاء على معسكر عبد الله أرسل المنصور مولاه

أبا الخصيب ليحصى الغنائم، فكان ذلك سببا فى غضب أبى مسلم وازدياد التوتر بينه وبين الخليفة، وإذ قال: «أنا أمين على الدماء خائن فى الأموال». وشتم المنصور. أما عن عبد الله بن على وأخوه عبد الصمد بن على فإنهما فرا. توجه عبدالله إلى أخيه سليمان بالبصرة فأقام عنده زمانا متواريا حتى عام 139هـ الموافق 756م عندما عزل سليمان بن على عن البصرة، فطلب المنصور إلى سليمان أن يبعث إليه بعبد الله بعد أن آمنه، ولكن الخليفة سجنه، والظاهر أنه انتهى بقتله فيما بعد. وكذلك انتهى الأمر بعبد الصمد الذى كان قد التجأ إلى موسى بن عيسى بالكوفة وطلب إليه الأمان[1].

التخلص من أبى مسلم:

انقلب ذلك التعاطف إلى نقمة، زادت حدتها عندما بدأت تناقضات الأرستقراطية الخراسانية من المشرق الإسلامى مع الأرستقراطية العربية تبرز على السطح السياسى. واستطاعت تلك الطبقات أن تخفى حقيقة صراعها لتجر وراءها العامة، مصورة الصراع على أنه دفاع عن الانتماء الاقوامى بكل طبقاته. وقد أدى تدنى مستوى الوعى الاجتماعى لدى الجماهير إلى نجاح الأرستقراطيين فى تسويغ دعواهم مستفيدين من موقف الكتاب الذين غدوا الصراع الشعوبى بشكل أو بآخر. إن الصراع السياسى بين العرب والموالى لم يظهر إلا فى مؤسسات الدولة حيث كان تغلغل المشارقة فى وظائفها ومراتبها أمرا ظاهرا. غير أن ذلك الصراع العنيف اقتصر على الفئات الصاعدة فى السلطة وفى ملكية الثروة، من الموالى، فالحظوة والصعود فى سلم الوظائف مرتبطان بالخدمة والتأييد. تم لالتقاء المصالح الطبقية بين العباسيين والأسر المشرقية (ذات النسب العريق) والدهاقين. غير أن ذلك التعاقد - الضمنى على الأقل - لم يكن ليستمر، نتيجة تغلب النزعات السياسية المستندة إلى مصالح

---

1 - سعد زغلول - نفس المرجع ص58.

الأسرة والعشائرية فبدأت سلسلة من الصراعات على المصالح، كانت بداياتها لصالح العباسيين، فرغم إشراكهم المباشر لمواليهم في السلطة، إلا أنهم حافظوا على طابع الخلافة الوراثي لهم وحدهم. ولم يولوا مواليهم أكثر من الوزارة، وبالتالي فإنهم حافظوا على جوهر الخلافة العباسي، وزاد من حصانتهم، هالة التقديس والأبهة التي أحاطوا بها حكمهم. وباعتبار أن الخليفة أمير المؤمنين - ولاعتبارات أخرى - لم يجرأ أحد أعدائهم على المطالبة بالخلافة أو تنحيتهم عنها. والمقصود بالأعداء طبعا، في داخل السلطة، أي المعارضة الداخلية في الدولة. نجحت الدعوة العباسية في الوصول إلى أهدافها السياسية بفضل مساعد الموالي فاعتبروها ثورتهم التي ستحقق أهدافهم في القضاء على مخلفات الحكام الأمويين، ويحل العدل والمساواة بين المسلين كافة، في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. فكان من الطبيعي أن يجزي العباسيون قادة أهل خراسان في المشرق الإسلامي الذين استبسلوا في الحرب لصالحهم. لذلك عين أبو العباس أبا مسلم الخراساني واليا على خراسان، ولكن مجد الانتصار ومكانة العز اللذين تذوقهما أبو مسلم، أديا به إلى نتائج وخيمة حيث بدأت تحرشاته منذ السنوات الأولى لقيام الدولة العباسية. ولكن نواياه في حب التفرد والاستقلال، وتدخله في شؤون الأسرة العباسية، لم تظهر إلا في حكم المنصور حين عرض على ولي العهد عيسى بن موسى أن يتعاونا سوية لتنحية الخليفة وتنصيب عيسى خليفة للمسلمين، فأنكر عيسى ذلك وحذره من مغبة هذه الخطة وإمكانية فشلها. وتبين الرسائل التي كان يوجهها أبو مسلم إلى الخليفة المكانة المهمة التي توصل إليها، وتحديه الواضح للخليفة العباسي وخوف السلطة المركزية منه. وربما كان منشأ ذلك الخلاف، تشكل رأي عام معارض لدى الموالي، بدأ من تقييم النتائج التي آلت إليها الثورة العباسية، والموقع الذي اتخذه العباسيون

من ممارسة أفكارهم ومبادئهم التى كانوا يبشرون بها الناس ويجمعونهم حولها للقضاء على الأمويين. كما ظهر للموالى أن العباسيين تفردوا بالحكم واستبعدوا شركاءهم الشرعيين العلويون الذين لاقوا أكثر مما لاقوه من عذاب الأمويين، بل إن العباسيين كانوا يتسترون بالتجارة ولايظهرون[1].

نرى أن أبا مسلم استند إلى تلك الأسس فى كسب أنصاره وشيعته من أهل خراسان فأعلن العصيان. ولكن الأمر الأكثر وضوحا أن أبا مسلم كان مغترا بدوره فى الثورة على الأمويين. وزاد فى تدعيم شوكته قول إبراهيم الإمام القائد الأول للدعوة العباسية إنك رجل منا أهل البيت. فاحفظ وصيتى، هذا فضلا عما تضيفه القيادة العسكرية من الإفراط فى الطموح وحب المغامرة. والمعروف أن أبا مسلم - بمباركة من السلطة المركزية - بدأ بتصفية وجوه الدعوة العباسية الذين تشبثوا بمبادئها الأولى وأعلنوا رفضهم لسياسة العباسيين. ويبدو أن ذلك تم باتفاق مع الخلفاء المتعصبين فى العراق. فقد قضى على سليمان بن كثير الخزامى وابنه محمد الذى كان نقيب الدعاة وكانت له شيعة واسعة، خاف أبو مسلم من مزاحمته فقتله متعذرا بوصية إبراهيم الإمام حينما قال له «من شككت به فاقتله». وقضى على على بن جديع الكرمانى وأخيه عثمان اللذين كان لهما دور كبير فى خدمة الدعوة العباسية وكسب نصرة القبائل اليمانية التى شكلت جزءا كبيرا من الجيش الخراسانى. كما قضى على ثورة شريك بن شيخ المهرى الذى ثار فى مدينة «بخارى» ورفع شعارا سياسيا معارضا لسلطة العباسيين (ما على هذا اتبعنا آل محمد على أن نسفك الدماء ونعمل بغير الحق..)، وهو معروف بتشيعه للعلويين، انضم إليه ولاة عرب مثل والى بخارى ووالى خوارزم، وقال أن أبا مسلم أسر أصحابه وجعلهم عبيدا، هكذا تبدأ الثورة تأكل أبناءها. بدأت تلك

1 - د. محمد نجيب أبو طالب - المرجع السابق ص149 وانظر الطبرى 450/7.

العلاقــة بحذر شــديد مع شيء من المجاملة، فــقد أرسل أبو مــسلم إلى أبي جعــفر المنصــور يهنؤه بالخلافــة قائلا: إنه ليس من أهلك أحــد أشد تعظيــما لحقك وأصفى نصيحة لك، وحرصا على ما يسرك منى[1].

انتصر المنصور على أول صعوبة قـابلته ألا وهى ثورة أهل الشام بزعامة عمه عــبدالله وذلك بفضل أبي مسلم الذى لن يلبث أن يـلاقى نكران جميل الخليفة الجديد. والحــقيقة أنه كان يمكن التنبؤ بمصــير دام لأحد الرجلين على يدي الآخر، فكلاهما تواق إلى العمل والمجد، غيور على الظهور لايرغب أن يشاركه فى ذلك أحد، فكان من الصعب أن يعيشا فى وفاق. فالمنصور يرغب فى أن يكون الأمــر له والنهــى، وأن تكون الكلمــة الأخــيرة فى كل شــأن للخليفة، وأبو مــسلم يشعر شعــورا عميقا بالخدمات التى أداها للدولة ويود أن يحتفظ لنفسه بمركز ممتاز فيها. ويرجع التصادم بين أبى جعفر وأبى مسلم إلى عام 132هـ الموافق 749م، أيام السفــاح عقب مقتل أبى سلمــة، عندما أرسل السفاح أبا جــعفر إلى أبى مسلم بخراســان ومعه عهد أبي مــسلم بخراسان، وبالبيــعة للســفاح والى أبى جعــفر بعــده، فلم يهتم به الخراســانى كمــا كان ينبغى، فعاد أبو جعفر يقول للسفاح: «لست خليفة ولا آمرك بشيء إن تركت أبا مــسلم ولم تقــتله .. والله ما يصنع إلا ما أراد». وظهرت قــوة أبى مسلم فى نفس الوقت عندما أرسل الســفاح عمه عيــسى بن على كوال له بفارس، فتــصدى له عــمال أبى مسلم هناك، إذ أراد مــحمــد الأشعث الذى ولاه أبو مسلم قتل عــيسى، فقيل له: هذا لا يسوغ لك، فقــال: بلى أمرنى أبو مسلم أن لا يقدم أحد على يدعى الولاية من غيره إلا ضربت عنقه، ثم ترك عيــسى خوفا من عاقبة قتله. والحقيقة أنه كــان طبيعيا أن يفكر السفاح وأبو جعفر فى التخلــص من أمير آل مــحمــد (أبو مسلم) مــا داما قد تخلــصا من «وزير آل

---

1 ـ د. محمد نجيب أبوطالب ـ نفس المرجع ص149.

محمداً (أبو سلمة) حسب السياسة التي رسمها. والظاهر أن السفاح وافق على التلخص من أبي مسلم ولكنه عاد فأرجأ ذلك لفرصة أخرى.

طلب أبو مسلم في عام 136هـ الموافق 754م إلى السفاح إمارة الحج إلى مكة وأن يكون نائبه يوم عرفة. ولكن السفاح لم يرد له هذا الشرف، بل جعله تحت رئاسة أخيه أبي جعفر الذي أخذ الأمرة (إمرة الحج) لنفسه وحضر من أرمينية لذلك. فتأثر أبو مسلم وحقد على المنصور، وتعمد أن يكون واضح الظهور إلى جانبه «فكان أبو مسلم يكسو الأعراب ويصلح الآبار والطريق وكان الذكر له». ثم أنه عندما علم في طريق العودة بموت السفاح لم يسارع ببيعة المنصور إلا بعد أن لفت هذا نظره إلى ذلك في كتاب أرسله إليه. وبعد ذلك وأثناء قتال عبدالله بن علي لاحظ الحسن بن قحطبة أن أبا مسلم كان يهزأ بالكتب التي تصله من أمير المؤمنين فكتب بذلك إلى الوزير (أبي أيوب) وزاد التوتر عندما أرسل المنصور مولاه ليحصي الغنائم التي استولى عليها أبو مسلم في معسكر أهل الشام. شعر المنصور إذن بخطورة الرجل الذي تدين له الأسرة الهاشمية بكل شيء. وعمل على إقصائه عن خراسان مركز سلطانه القوي فعرض عليه ولاية الشام ومصر، وطلب إليه المسير إليها، ولم يقبل أبو مسلم ما عرض عليه، وعزم على العودة إلى خراسان. ولكن المنصور رغبه ورهبه. أنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت النبي ﷺ فلا تخالف إمامك ولا ترجع إلا بإذنه[1].

لكنه رفض ذلك الأمر واستدعاه مرة أخرى فتلكأ عن الحضور معتذرا. وبدأت سلسلة من المراسلات بين الشخصين حتى بعث إليه المنصور قائلا: «فلا تغتر بمن معك من شيعتي وأهل دعوتي، فكأنهم قد صالوا عليك بعد أن صالوا معك إن أنت خلعت الطاعة وفارقت الجماعة». فرد عليه أبو مسلم

1 ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص60.

ردا عنيفا مشككا في شرعية خلافته: ولكنني يا عبدالله بن محمد (لم يلقبه بأمير المؤمنين) كنت رجلا متأولا فيكم من القرآن آيات أوجبت لكم بها الولاية والطاعة، فأتممت بأخوين لك (إبراهيم الإمام وأبو العباس) من قبل، ثم بك من بعدهما، فكنت لهما شيعة متأولا أحسبني هاديا مهتديا، وأخطأت في التأويل، وقديما أخطأ المتأولون.. وإن أخاك السفاح ظهر في صورة مهدى وكان ضالا فأمرني أن أجرد السيف وأقتل بالظنة وأقدم بالشبهة وأرفع الرحمة ولا أقبل العثرة. فوترت أهل الدنيا في طاعتكم وتوطئة سلطانكم حتى عرفكم الله من جهلكم، ثم إن الله سبحانه تداركني بالندم واستنقذني بالتوبة.. ويبدو أن المنصور - داهية العرب - كان يريد من خصمه أن يصل إلى ذلك الموقف الذى يبرر له تصفيته، فرد عليه واتهمه بسفك الدماء وتبذير الأموال والخروج على الدولة، ولقبه (بالمجرم العاصي). وختم رسالته بإعلامه عن قرار عزله وتولية أحد أتباعه على خراسان، يقول الطبري. إن أبا جعفر كتب إلى أبي داود حين اتهم أبا مسلم: «إن لك إمرة خراسان ما بقيت»[1].

وأخيرا أغرى أبو مسلم فسار إلى المنصور ليعتذر إليه، وكان المنصور قد سار من الأنبار إلى المدائن. وقابل رسل المنصور أبا مسلم بالإجلال وطمأنوه، ثم دخل على المنصور نفسه فأقبل عليه المنصور يعاتبه وعدد له هفواته وأخطاءه الجسيمة. واعتذر أبو مسلم عن ذلك ببلائه وما كان منه، ولكن رد عليه المنصور، قائلا: «لو كانت أمة مكانك لأجازت، إنما عملت في دولتنا وبريحنا، فلو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلا». وأمر به فقتل تحت ناظريه في 25 من شعبان 137هـ الموافق 755م. وعند مقتله قال أحدهم للمنصور جعفر

1 - د. محمد نجيب أبو طالب - المرجع السابق ص150 وانظر الطبري - 472/7 - ابن كثير 68/10.

ابن حنظلة: «عد من هذا اليوم خلافتك». وخطب المنصور بعد مقتله يحذر الناس من الخروج من أنسي الطاعة إلى وحشة المعصية .. ويبرر موقفه من الرجل الذى أبلى فى سبيلهم خير البلاء، فقال: «ولم يمنعنا الحق له من إمضاء الحق فيه»

نتائج مقتل أبى مسلم:

ولم يمر موت أبي مسلم بسلام، إذ قامت بخراسان ثورة تطالب بالأخذ بدمه. تزعم هذه الثورة رجل من نيسابور اسمه سونباذ (سنباد) الذى قال بعودة أبى مسلم الذى أفلت من الموت عندما لفظ اسم الله الأكبر، واستجاب له كثير من الناس وتمكن من الاستيلاء على «نيسابور» و«قومس» و«الرى»، كما قام بأعمال العنف والنهب (إلا التجار)، ولكن جيوش الخليفة تمكنت من هزيمته بين همدان والرى وانتهى الأمر بقتله. ولكن خراسان لن تهدأ إذ ستظل هذه البلاد حيث كان الإسلام يلتقى بالأفكار البوذية والسمنية، وحيث كان دين المشرق الوطنى له نفوذًا قويًا، أرضا صالحة لقيام حركات مذهبية تهدد أمن الدولة وسلامتها.

ففى عام 141هـ الموافق 758م قام فريق من الخراسانية ممن يدينون بأفكار أبى مسلم ويعتقدون فى تناسخ الأرواح ونادوا بألوهية المنصور هو ربهم الذى يطعمهم ويسقيهم، وهؤلاء هم «الراوندية». وساروا من خراسان إلى الهاشمية حيث قصر الخليفة. واستعمل الخليفة معهم السياسة واللين حتى يعدلوا عن موقفهم، ولكنه لم يوفق فاضطر إلى التشدد معهم وحبس زعماءهم. ولكنهم لجأوا إلى العنف وكسروا السجن وأخرجوا أصحابهم. وهناك تفصيلات طريفة تقول أنهم أخذوا نعشا، وساروا به حتى باب السجن ثم انقضوا عليه، واتجهوا نحو المنصور الذى اضطر إلى البطش بهم وقتلهم جميعا. وأظهر المنصور فى قتالهم شجاعة شخصية نادرة إذ خرج ماشيا

يشجع الناس على قتالهم. وسيظل حزب أبي مسلم قائما وينضم إلى أتباعه كثير من دعاة الحركات الشيعية بكيفية ما في فران وما وراء النهر في المشرق الإسلامي، وذلك باسم أبي مسلم، كما كانت حركة المقنع على عهد الخليفة المنصور. وكانت علامات هذا الحزب المميزة له (أيام الثورة العلنية طبعا) الملابس البيضاء، وهكذا أصبح أتباع حزب أبي مسلم الذين كانوا يتخذون الراية السوداء من قبل شعارا للنصر أصبحوا يسمون «المبيضة» بعد أن كانوا «المسودة». هذا، كما أن البلاد عرفت عددا من الثورات المختلفة تمكنت جيوش الخليفة من القضاء عليها مثل ثورة الخوارج بالجزيرة 7 ـ 138هـ الموافق 755م التي أخمدت بمجهود شاق وثورة القائد الذي هزم سنباد، وهو جمهور بن مرار العجلي الذي استولى على ما في عسكره وكان فيه خزائن أبي مسلم، ثم هزمه محمد بن الأشعث في «الري» و«أصبهان». وثورة والي خراسان عبد الجبار بن عبدالرحمن الأزدي 1 ـ 142هـ الذي قتل جماعة من القواد واتهمهم بالدعاء إلى العلويين، كما أخذ الأموال، فلما طلبه المنصور أظهر العصيان فسار إليه المهدي بن المنصور وقضى عليه بسهولة. ولم يرض المنصور أن تضيع نفقات الحملة سدى فوجهها إلى طبرستان هذا، ولما خلع والي السند، أرسل إليه حملة قضت عليه. وكذلك أخضع الديلم (جنوب بحر قزوين) عندما ثاروا. وهذه الحملات الأخيرة رغم أنها لم تجلب إلى الدولة أراض وسكان جدد إلا أنها صانت حدود الدولة الخارجية[1].

وهكذا انتهت حياة ذلك القائد، الذي خدم الدعوة العباسية، أول أمرها، أكثر من دعاتها. وبالتالي انتهى صراع الدولة العباسية مع أحد خصومها البارزين نهاية مأساوية. وبعد ذلك الصراع الدامي، بإمكاننا أن نتساءل: كيف أن نهاية أبي مسلم، القائد الخراساني الشجاع، والداعي، ثم

---

1 ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص62.

الوالي العباسي الذي لاينازع، تمت بمثل تلك السهولة دون أن تقوم أية ردة فعل من أهل خراسان (شيعته)؟ وإذا كان الصراع السياسي في جهاز الدولة بين العباسيين والموالي صراعا شعوبيا، أو صراعا عصبويا، الم يكن من المفروض قيام ثورة أو احتجاج ـ على الاقل ـ على مقتل أبي مسلم، من قبل شيعته وأنصاره؟ الجواب على هذا السؤال تبوح به الأحداث والوقائع. إذ لم تظهر أية ردة فعل على ذلك الحدث البارز فذلك مما يؤكد أن الصراع كان قائما في بنية الدولة بين قادة الدعوة العباسية وخلفاء دولتها، بين وزرائها وأمرائها. وهو ما يؤكد أن الجماهير من الموالي كانت مندمجة مع الجماهير من العرب المستقرة في شرقي الخلافة، أنها كانت تخوض صراعا من نوع آخر، فحركات الخوارج والشيعة، والبابكية فيما بعد، ضمت في صفوفها أعدادا واسعة من جماهير الموالي التي كانت تتحرك في إطار الرابطة الاجتماعية (الوضع الطبقي)، والرابطة الدينية (الوضع السياسي الإسلامي الداعي إلى المساواة). ذلك ما ينفي، بشكل من الأشكال، دعوى بعض المؤرخين بأن الحركة الخرمية والبابكية ثارت ضد مقتل أبي مسلم[1].

التخلص من البرامكة:

نورد نبذة عن أسرتين أصبح لهما شأن كبير في الدولة العباسية، نظراً لأهمية الدور الذي قامت به كل منهما في تسيير نظام الحكم في الدولة العباسية، ومن اتهم به هؤلاء من ممالاة للعلويين أكدها الكثير من المؤرخين. هاتان الأسرتان هما البرامكة، وآل سهل، نرى ضرورة الحديث عن هاتين الاسرتين لما لهما من ارتباط وثيق بكل من العباسيين والعلويين على حد سواء. فالبرغم مما أظهره العباسيون من عطف على هؤلاء وإيثارهم بالمناصب

---

1 ـ د. محمد نجيب أبو طالب ـ المرجع السابق ص150 وانظر الطبري جـ 472/7 ابن كثير جـ10 ص69.

القيادية فى الدولة، عسكرية وسياسية وإدارية، والاعتماد عليهم فى تسيير دفة الحكم فى الدولة، وما حصلوا عليه من جاه ونفوذ نعموا به فى عهد كل من الرشيد والمأمون من ولاية وعزل، فهل أخلص هؤلاء لمن أسدى إليهم معروفًا، وأوصلهم إلى تلك المناصب الحساسة فى الدولة؟ أم أنهم كانوا يستهدفون من تظاهرهم بالمساندة والمؤازرة منافعًا لهم؟ أو اتخذه ذريعة للوصول إلى أغراض معينة أيًا كان لونها وحقيقتها؟ أو لما قد يقال من تشيعهم لبعض العلويين، فإنهم فى كل الأحوال كانا متهمين لدى خلفاء بنى العباس، وليس هذا مما طرأ عليهم منذ قصة العباسة أو قضية الدس النافذ الذى اقترفه آل سهل فى عصر المأمون، وإنما هو قائم ومجسم منذ اعتلى السفاح عرش الخلافة العباسية، وأن القضاء على أبى مسلم الخراسانى، والإيقاع بالبرامكة، والإطاحة بالفضل بن سهل وقتله، ليست إلا نتائج لتلك الحركات المضادة للخلافة العباسية، بل إن جميع الحركات التى نشبت ضد الخلافة العباسية واعتبرها العباسيون خطرًا جسيمًا يستهدف قلب نظام حكمهم، وإبداله بحكم علوى عربى، ومن ثم كانت تلك القوة البالغة فى قمع تلك الحركات الانقلابية التى بدت نذرها، وأسفرت عن أغراضها ومراميها منذ الخليفة الأول أبى العباس السفاح حتى العهود التالية له نجدها إنما كانت بسبب الصراع الجبار على السلطة إذ كان الخراسانيين من المشرق الإسلامى وغيرهم تشرئب أعناقهم إلى استعاده سيادتهم تحت أى نظام، وكان هذا بالطبع مرفوضًا كل الرفض من الجانب العباسى. فالواقع أن هؤلاء لم يخلصوا للعباسيين لحظة واحدة بل كان ولاؤهم الظاهرى للعلويين لأنهم شيعتهم، ولأن ولاءهم لهم أكثر من ولائهم للعباسيين الذين احتضنوهم، وأسبغوا عليهم من النعم الشىء الكثير، إذ عملوا على تحويل الخلافة من العباسيين للعلويين، ويتجلى هذا واضحًا فى محاولة أبى سلمة الخلال - وإن لم يكن من البرامكة أو آل سهل - قبل مبايعة

السفاح بالخلافة، وتأخيره للمبايعة بما يقرب من أربعين يومًا، وقد لقى هذا الرجل حتفه على يد أبي مسلم بأمر من أبي العباس. ونفس الشيء بالنسبة للبرامكة عندما أطلقوا سراح خصم لدود للرشيد ذلك هو «يحيى بن عبد الله العلوي» إذ أطلقه جعفر البرمكي بالرغم من تشديد الرشيد على التحفظ عليه لدى جعفر. وكذلك تأثير الفضل بن سهل على المأمون بتولية الإمام على الرضا ﷺ ولاية العهد ـ بصرف النظر عن قناعة المأمون بذلك من عدمها ـ كل هذا حبًا في العلويين[1].

ولعل ما يؤيد هذا الرأي هو ما أشار إليه مؤرخ معاصر إذ يقول: بالرغم من تأييد الخراسانيين في المشرق الإسلامي للعباسيين إلا أنهم وجدوا من جور عمالهم الشيء الكثير، كما لاحظوا تنكيل العباسيين بزعمائهم فانقلبت ميولهم مع خصومهم العلويين، ولدينا شواهد على ذلك كاحتفاء الخراسانيين العظيم للإمام عليّ الرضا ﷺ، وكما حصل بعد مقتل الفضل بن سهل حين شغب الخراسانيون على المأمون وهجموا على داره ولم يهدأوا إلا بعد أن طلب منهم الإمام عليّ الرضا ﷺ أن يتفرقوا لابد لنا قبل الحديث عن سياسة الرشيد في فترة حكمه من معرفة أهل البرامكة وكيفية وصولهم إلى تدبير أمور الدولة العباسية، وإدارة شؤونها. يعود أصل البرامكة إلى برمك، وهذا هو من مدينة «بلخ» قاعدة طخارستان عند نهر جيحون في تركستان في المشرق العربي. ولما بلغت الدعوة العباسية خراسان تحمس لها خالد بن برمك باعتبارها دعوة للرضا من آل محمد من العلويين، وصار من أكبر دعاتها وعند نجاح الدعوة استعان به أبو العباس أول من شغل المنصب منهم هو خالد ابن برمك، ذلك بعد مقتل أبي سلمة إذ عينه السفاح وزيرا له أو بوجه أدق كاتبه الأول. وعلى عهد المنصور احتفظ خالد بالإدارة المالية (ديون الخراج)

---

1 ـ عبد العزيز محمد اللميلم ـ المرجع السابق ص158.

وأظهر كفاءة شخصية في بناء مدينة بغداد (أمين العمارة)، ولكنه كان في نفس الوقت قائدا عسكريا ممتازا: وهو لم يقاتل أيام شبابه فقط تحت إمرة أبي مسلم وقحطبة، ولكنه في المدة من 148 ـ 152هـ الموافق 765 ـ 769م عندما كان واليا على «طبرستان» قضى على آخر ولاية وطنية هناك في «مصموغان»، كما أنه كان قد اشترك علاوة على ذلك في الحروب ضد بيزنطة عند كهولته. وإذا كان ـ مثل كل الموظفين ـ قد وجد الفرصة للثراء الشخصي فإن هذا يعتبر أمرا طبيعيا. ولهذا السبب تركه المنصور قبل وفاته (وفاة المنصور) بقليل يستولي على 3 ملايين درهم (بقى عليه منها 300 ألفا درهم حسب ابن الأثير)، ثم أعطاه ولاية الموصل، وكانت مهمته صعبة نظرا لجوار الكرد المضطربين دائما. وقام ابنه يحيى في نفس الوقت بولاية أذربيجان. وعلى عهد المهدي استدعى من جديد إلى بغداد. ثم اختاره المهدي عام 162هـ الموافق 778م كاتبًا ووزيراً لابنه هارون الرشيد، يدبر أمره ويرعى مصالحه، والرشيد لا يناديه إلا بـ «يا أبي». وكان يحيى يرافق الرشيد في حله وترحاله، فذهب معه عام 163هـ الموافق 779م. في غزوة الصائفة، ولما ولى المهدي ابنه هارون الرشيد المغرب عام 164هـ الموافق 780م أمر يحيى بن خالد أن يتولى ذلك عنه. وظل يحيى حتى ولاية الهادي الذي أراد أن يخلع أخاه الرشيد من ولاية العهد، لكن يحيى بن خالد حرضه على التمسك بحقه والتهرب من تلبية طلب الهادي، ولولا وفاة الخليفة المفاجئ لذهب يحيى ضحية إخلاصه للرشيد[1].

ولما تولى الخلافة هارون الرشيد كافأه بأن قلده الوزارة ـ وزارة تفويض ـ قائلا له: «قلدتك أمر الرعية، وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، وأعزل من رأيت، وامض الأمور

---

1 ـ د. إبراهيم أيوب ـ المرجع السابق ص63 وانظر الفخري في الآداب السلطانية ص198.

على ما ترى»، ودفع إليه خاتمه. وكان ليحيى أربعة أولاد هم: الفضل وجعفر ومحمد وموسى، برزوا جميعًا في عهد الرشيد وصاروا موضع ثقته. فبرهن الفضل عن حسن سياسته عندما ولاه الرشيد بلاد «الديلم» إلى أن ولاه عام 178هـ الموافق 794م خراسان وثغورها، فغزا ما وراء النهر. واشتهر جعفر بن يحيى بفصاحته ولباقته حتى نال إعجاب الرشيد، فولاه عام 176هـ الموافق 792م مصر وأفريقية والجزيرة الفراتية إلى جانب أعماله في بغداد. أما موسى بن يحيى فقد اشتهر بالشجاعة والبأس، وأظهر للرشيد الشيء الكثير من حصافة الرأي وقوة العزيمة. أما الرابع وهو محمد فقد عرف بعلو الهمة وسماحة الخلق. وهكذا عملت أسرة البرامكة في خدمة العباسيين منذ بداءة الدعوة بأمانة، وكفاية، حسبما أوجزنا أعلاه، حتى نكبهم هارون الرشيد أحب الخلفاء إلى انفسهم. فما هي أسباب نكبتهم؟[1].

تفاقم نفوذ المشارقة في عهد الرشيد ممثلا في البرامكة، وبدا للناس أن بيدهم مقاليد الأمور، وأنه ليس للخليفة العباسي من شيء، ومع ذلك فقد تغافل الرشيد في أول الأمر، ولم يعطه شيئًا من الاهمية، على اعتبار أن مرضعته برمكية، وأن روجها يعتبر أبا له بسبب ذلك، وأن رجال البرامكة ممن بيدهم أمور السلطة إخوته من الرضاعة، ومن ثم فلانستبعد ما كاد يجمع عليه المؤرخون من أن الرشيد سلم خاتم الدولة للبرامكة، لأنهم كما أشرنا آباؤه وأمهاته وإخوانه فليسوا غرباء عنه، بالإضافة إلى أن أمه الخيزران هي قريبة لهم «أي أنها مشرقية» وهم عمد المشرق الإسلامي في هذا الزمن، ومن هذا المنطلق فلم يكن من بأس ابدًا على الرشيد أن تصبح أمور الدولة كلها تقريبًا في يد أبيه وإخوانه، وليس غريبًا أن يسلم الرشيد خاتم الدولة لهم، إذا عرفنا موقف يحيى بن خالد البرمكي من تولية الرشيد العهد، ونصحه للهادي

1 ـ إبراهيم أيوب ـ المرجع السابق ص64.

حينما حاول خلع الرشيد من ولاية العهد، وتولية ابنه قائلا: يا أمير المؤمنين، إنك إن حملت الناس على نكث الإيمان هانت عليهم إيمانهم، وجرأتهم على حل العقود. أما لو تركت الأمر في بيعة أخيك بحاله، وبويع جعفر من بعده، كان ذلك أوكد لبيعته، فقال: صدقت ونصحت ولي في هذا تدبير. ولعل للرشيد بعض العذر في إسناد الكثير من المهام إلى البرامكة، فإضافة إلى ما ذكرنا عن علاقة الرشيد بهم، هناك سبب رئيسي في اعتماد الرشيد عليهم، وثقته بهم. هذا السبب هو ما قام به يحيى البرمكي من محاولة لبقاء الرشيد في ولاية العهد عندما حاول الهادي خلعه تكللت بالنجاح، وزيادة على ذلك فإن الرشيد ما زال بحاجة ماسة إلى الخبرة في مجال الإدارة والسياسة والتي لا تتوفر إلا في أمثالهم. ويؤكد هذا ما قاله البعض بأن تشبث يحيى بحق هارون في ولاية العهد كان أكثر من حرص هارون، وهو صاحب الحق في استمراره في ولاية العهد وبهذا يتأكد لنا ما كان يطمح إليه يحيى لأنه سيخسر كل شيء فيما لو نجح الخليفة الهادي في إبعاد الرشيد عن ولاية العهد، ولهذا عمل جاهداً على بقاء الرشيد وليا للعهد[1].

إلا أن البرامكة مع كل هذا قد تمادوا في غيهم، وسلبوا الخليفة الكثير من سلطانه، ومالأوا أعداءه العلويين من آل البيت من أحفاد رسول الله ﷺ، فما كان من الرشيد، إلا أن نكل بهم شر تنكيل وجعلهم عبرة لمن اعتبر.

لم يكن صراع العباسيين مع خصومهم من الموالي مقتصرا على الأفراد والقيادات في المشرق الإسلامي بل كان يشمل العائلات العريقة التي مثلت الأرستقراطية المشرقية وتحصلت على امتيازات كبيرة (ازدياد ثروتها ومشاركتها الفعلية في الحكم). فقد شملت تلك الامتيازات كلا من آل برمك وآل الربيع

1 ـ عبد العزيز اللميلم ـ المرجع السابق ص161 وانظر: ابن العمراني/ الانباء في تاريخ الخلفاء ص73.

وآل سهل وآل وهب وآل خاقان وآل الفرات إذ احتل أبناء تلك الأسر مراتب متفاوقة فى الدولة العباسية، منذ نشوئها حتى أواخر حكم المعتصم، عندما حل النفوذ البويهى التركى محل النفوذ البرامكة والخراسانيين. ويعتبر عصر هارون الرشيد، البداية الحقيقية للصراع بين العباسيين وحلفائهم من الأرستقراطية المشرقية، فكان صدامهم مع البرامكة مثالا جليا للصراع وتحولا كبيرا فى سياستهم. ويبدو أن الجهود التى بذلها يحيى البرمكى فى إيصال الرشيد إلى الخلافة جعلت له شيئا من الدالة عليه، فأسند إليه الرشيد معظم المناسب وأطلعه على أسرار الدولة وقربه منه كثيرا، فاستعان يحيى بأولاده وأقربائه فى إدارة الدولة وتجمعت لديهم ثروة طائلة. ولكن ذلك أثار حفيظة أعدائهم، فحرضوه ضدهم وخوفوه من نقمة العامة، حتى وصل به الأمر إلى قتل جعفر البرمكى، وسجن أقربائه ومصادرة أموالهم وهدم منازلهم. وقد عرفت تلك الحادثة لدى المؤرخين بـ «نكبة البرامكة». والظاهر من الأحداث والمواقف أن الفقهاء وخاصة أصحاب الانتماء الحنبلى (السنى) منهم، وقفوا وقف المحرض على البرامكة وما آلوا إليه من التحكم والتفرد، ومعروف أن كثيرا من هؤلاء وغيرهم من الكتاب والموظفين الكبار (من العرب) كانوا يمثلون انتماء اجتماعيا طبقيا معينا، إلا وهو الانتماء الأرستقراطى العربى، الذى ثار فى وجه التيار المشرقى المتسلط شيئا فشيئا. وقد استطاع ذلك المذهب أن يؤثر على سياسة الدولة تجاه البرامكة، كما استطاع أن يجر وراءه الرأى العام الشعبى، الذى يتعاطف بشكل كبير مع المذهب السنى، ويظهر لنا ذلك التحريض ضد البرامكة من خلال ما رواه ابن العماد (الحنبلى) أن أحد الأشخاص أرسل إلى الرشيد قائلا[1]:

---

1 ـ د. محمد نجيب أبو طالب ـ المرجع السابق ص152.

هذا ابن يحيى قد غدا ملكا مثلك ما بينكما حد
أمرك مردود إلى أمره وأمره ليس له رد
ونحن نخشى أنه وارث ملكك أن غيبك اللحد

ذكر أن الرشيد أسند إلى الفضل وجعفر التحفظ على يحيى العلوى بعد أن استدرجه الفضل من «الديلم» واستطاع أن يأتى به إلى الرشيد، فأمنه على أن يظل فى حبسه حتى يقضى فيه بأمره، فيقال إن جعفراً أطلق سراحه. ويقال أيضاً إنه حينما ثار يحيى العلوى ضد الرشيد بعث إليه يحيى البرمكى بمائتى ألف دينار، فقال له الرشيد: ما حملت على أن حملت إلى يحيى بن عبدالله بالديلم مائتى ألف دينار؟ فقال: أردت أن تقوى شوكة يحيى فيظفر به الفضل بعد قوة فيكون أحظى له عندك. هذا التبرير الذى أورده يحيى البرمكى للرشيد يعتبر فى الواقع تبريراً هزيلا وغير منطقى، فقد رفضه الرشيد جملة وتفصيلا، قائلا له: فما يؤمنك أن تقوى شوكته فيقتل الفضل ويقتلنى؟ وكان الرشيد يعتقد فيما يبدو أن يحيى العلوى لو ترك وشأنه لأزاله عن عرشه، كما حاول محمد النفس الزكية إزالة جده المنصور عن أريكته، فاليوم والرشيد حفيد المنصور، ويحيى أخو النفس الزكية لا يقل عن أخيه خطراً، بل ربما يزيد عنه لأنه فى منطقة أمنع من المنطقة التى حارب فيها النفس الزكية المنصور. إذاً ففرار يحيى من المعتقل لا بد أن يكون بوسيلة ميسرة، وبعلم القائم على سجنه الذى كلف بذلك، فإطلاق سراحه إذا كان بأمر جعفر هذا، وربما كان متفقًا معه فى الباعث والهدف، والرشيد لا يعلم إلا بعد فرار يحيى، أو تسهيل عملية فراره، لأن البرامكة كانوا ينافقونه ويراءونه بالإخلاص المصطنع بينما هم فى واقع الأمر وحسبما تأكد لدى الرشيد من عيونه ومستشاريه إنما يريدون إزالة الخلافة العباسية، وإسناد الأمر إلى آل البيت من العلويين أحفاد رسول الله محمد ﷺ، إما لإخلاصهم لهم

وإيمانهم بأحقيتهم، أو لأنهم سيكونون أكثر نفوذًا في عهدهم، وأكثر جنيًا لثمار الحكم الجديد منه في أيام العباسيين.

خرج يحيى العلوى ببلاد الديلم على الرشيد، فما كان من الخليفة إلا أن انتدب له الفضل الذى استطاع استدراجه وبذل الأمان له، والقدوم به إلى الخليفة الذى أسند إلى جعفر مهمة الحفاظ عليه وسجنه، وبعد إطلاق سراحه تغيرت نظرة الرشيد إلى البرامكة، وتأكد له ما قيل له عنهم من ميلهم للعلويين من آل البيت. على أن الأمر الواضح جدًا في موقف الرشيد أنه كان منفعلا إلى أقصى الحدود من البرامكة حتى ليقال إن أم جعفر والفضل وهي في نفس الوقت أمه من الرضاعة عندما علمت بعزمه على الإيقاع بأولادها وشيعتهم، وكل من يمت إليهم تذكره بماضي طفولته وهو بين أحضانها وتدليل زوجها له، وسائر ما هنالك من ذكريات تذيب الصخر[1].

لكن الرشيد رغم ذلك كله تجهم في وجهها وأعلن أنه مصر على ما عزم عليه، ولايقبل فيه شفيعًا ثم قال:

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد

إليه بوجه آخر الدهر تقبل

ولما عزمت على الانصراف يائسة من تلبية الرشيد لمطالبها، رفعت رأسها وهي غاضبة وفي كثير من الانفعال والتأثر فقالت له:

ستقطع في الدنيا إذا ما قطعتني يمينك فانظر أي كف تبدل

فرد عليها الرشيد بكلمة واحدة وقال: قد رضيت فانصرفت وهي يائسة من مراجعته مرة أخرى. وبالفعل فقد أنفذ الرشيد كل ما ارتآه من استئصال لكل البرامكة حتى ليقال: إنه كان يتقصى عن أشياعهم ليعرف مبلغ تعلقهم

---

1 ـ عبد العزيز محمد اللميلم ـ المرجع السابق ص163.

بهم. فكان أعوانه يعتدون أحيانا على رجال ونساء يذهبون ليلا إلى قبورهم، فيذرفون الدموع وينتحبون حتى الصباح، فيأخذونهم ويعاقبونهم على هذا، وربما ألحقوا بهم من ضروب التعذيب ما يلحق بهم أضرارًا بغية الزجر لغيرهم. وهذا هو منتهى القسوة الذي يخرج عن جادة العقوبة إلى مجال إلحاق الأذى بالأبرياء الأوفياء لمن أحسن إليهم وأسدى إليهم معروفًا ما ولكن هذه الأمور كلها تعطينا فكرة عن مدى انقلاب الرشيد على البرامكة بعد حادث إطلاق سراح يحيى العلوي، وبالرغم من أن ذلك ثابت في كتب التاريخ. أجهد المؤرخون أنفسهم في تعليل نكبة البرامكة. وتقصي أسبابها الحقيقية فمنهم من قال: أن نكبة البرامكة ليست إلا مظهرًا مألوفًا من مظاهر الحكم العباسي. فالخلفاء العباسيون دأبوا منذ نشأة دولتهم على الخيانة ونكران الجميل وقتل الذين عملوا معهم بإخلاص وتفانوا فيها، والأمثلة كثيرة على ذلك: فقد سبق لأبي العباس أن اغتال أبا سلمة الخلال - وزير آل محمد - بعدما تفانى في تثبيت دعائم الدولة العباسية، وكذلك يرجع قتلهم إلى حبهم للعلويين من آل البيت أحفاد رسول الله محمد ﷺ.

وأوقع أبو جعفر المنصور بأبي مسلم الخراساني الغني عن التعريف به، ثم أوقع بوزيره أبي أيوب المورياني، وعندما تولى المهدي الخلافة أوقع هو الآخر بوزيره أبي عبيد الله معاوية بن يسار. لهذا، لم تكن نكبة البرامكة على يد الرشيد بشيء جديد لمن يعرف تاريخ العباسيين. ويفسر بعض المؤرخين نكبة البرامكة في ضوء طبيعة الحكم ونفسية الحكام، ذلك أن الحاكم أي حاكم يجب أن يستعين بالمخلصين من رجاله، ولكنه يكره أن يرى أحدهم وقد ازداد نفوذه إلى درجة تنتقص من مكانة الحاكم نفسه. فمن الثابت أن البرامكة بلغوا في عهد الرشيد نفوذًا واسعًا ومكانة عالية. وهو ما جعل الشعراء يتسابقون إلى مدحهم والتغني بكرمهم، كما تزاحم أرباب الحاجات

على أبوابهم. هذا إلى جانب الثروة التى جمعوها والدور التى بنوها، والأثاث والرياض التى اقتنوها، عدا الخدم والحشم. والبذخ والترف فى أمور كثيرة، حتى أزعج غناهم الرشيد نفسه فقال: «إن ضياعهم ليس لولدى مثلها، وتطيب نفسى لها». كما أثار وضعهم هذا حسد الحساد، فكثرت الوشايات فيهم من اتهامهم بالزندقة حينًا، وبالعمل على نقل الخلافة إلى العلويين أحيانًا. وفريق من المؤرخين ومن بينهم الطبرى يرجع أسباب نكبة البرامكة إلى قصة العباسة أخت الرشيد. وملخص هذه القصة: أن الرشيد كانت له أخت اسمها العباسة، تتمتع بثقافة واسعة جعلت الرشيد يحب مجالسها، كما كان يحب مجالسة صديقه جعفر بن يحيى البرمكى. ولكى يجمع بينهما فى مجلس واحد عقد لجعفر على أخته زواجًا صوريًا كى ينظر إليها ويتحدث معها فى مجلسه فقط. ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان إذ اتصل جعفر بالعباسة اتصال الأزواج، فحملت منه، وولدت غلامًا خبأته فى مكان بعيد - مكة - خوفًا من افتضاح أمرها أمام الرشيد. وظل الأمر مستورًا حتى وقع الخلاف بين العباسة وبعض جواريها فأشاعت إحدى الجوارى ما كان سرًا حتى انتهت الأخبار إلى مسامع الرشيد، فأغضبه الأمر وبدأ يتحرى عن مكان الصبى فى مكة عندما حج فى تلك السنة، وأرسل فى طلبه ومن معه. وقد سأل اللواتى - الحاضنات - معه لما أخبرنه عن قصته، فأخبرنه بمثل القصة التى تناهت إلى مسامعه من الجارية فى الحج لينتقم من البرامكة. وكانت عودة الرشيد من الحج عام 187هـ الموافق 803م وهو متوتر الأعصاب غاضبًا لما حدث من صديق عزيز على قلبه خانه مع أخته التى شغلت حيزًا كبيرًا فى قلبه أيضًا، فما أن وصل الأنبار حتى دخل إلى فراشه مبكرًا على غير عادته(1).

1 - د. إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص6 وانظر الطبرى 295/8 ومروج الذهب 379/3.

وكان عنده جـعفر بن يحـيى فانصـرف. وما كاد ينصـرف حتى أرسل الرشيد وراءه كبير خدمه ـ واسمه مسرور ـ وأمر بضرب عنقه، ثم أمر الرشيد في الحال بالقـبض على يحيى البـرمكي وأولاده الباقـين وجميع أفـراد أسرته وصادر أموالهم كلها. وقد صلب جسد جـعفر بن يحيى البرمكي ثم أحرق. وأرسلت الكتب إلى جميع العـمال في مختلف أقاليم الدولة العبـاسية بقبض أموال الـبرامكة وحـجز وكـلائهم. وأعلن في البلاد أن لا أمـان لمن آواهم، باستثناء محـمد بن خالد بن برمك وولده لأن الرشيد استثناهم لتـأكد الرشيد من براءتهم. بما اتهم به بقية البرامكة.

ولكي نقف على الحقيـقة بشكل واضح يحسن أن نوجز مـا أثبته الرواة والمؤرخون بعد نكبة البـرامكة. يقول ابن طباطبا: إن الرشيد قال: لقـد استبد يحيى بالأمور دوني فالخلافة في الحقـيقة له، وليس لي منها إلا اسـمها. ومن هذا يتبين أن الرشـيد قد أبدى تخوفـه من البرامكة وخطرهم على الدولة في شخص يحيى قبل جعفر والفضـل. ويتابع ابن طـباطبا حديثه عن أسباب النكبة قائلا: إن أعداء البـرامكة أمثال الفضل بن الربيع ـ مـتسلم ديوان الخاتم ومن سلالة ذات نـزعة عربيـة ـ ما زالوا يسـعون بهم إلـى الرشيد، ويـذكرون له استبدادهم بالمـلك، واحتياجهم للأموال، حتى أوغـروا صدره، فأوقع بهم، كما أن جـعفراً والفضل ابني يحيى قـد ظهر منهما من الإدلال مـا لا تحتمله نفوس الملوك، فنـكبهم لذلك ويقول ابن الأثيـر: سأل الواثق بعض أصـحابه قائلا:

من منكم يعرف السبب الذي وثب به جدي الرشيد على البرامكة؟ فقال عزون بن عبد العزيز الأنصاري: أنا والله أحدثك يا أمير المؤمنين، كان سبب ذلك أن الرشيد أراد شراء جـارية بمئة ألف دينار، وأرسل إلى يحيى بن خالد أن يعطيه ذلك، فقال يحيى: هذا مفـتاح سوء، إذا أخذ ثمن جارية بمئة ألف

دينار فهو أحرى أن يطلب المال على قدر ذلك، فأرسل إليه يحيى انى لا أقدر، فغضب الرشيد وقال: لابد منها، فأرسل إليه يحيى قيمتها دراهم ليستكثرها الرشيد. ولما وضعت بين يديه استكثرها وأمر برد الجارية، وقال لخادم له: أضمم إليك هذا المال، واجعل لى بيت مال لأضم إليه ما أريد.

ويضيف ابن الأثير قائلا: بأن الرشيد أمر لأبي العود بثلاثين ألف درهم يدفعها له يحيى فمطله بها يحيى، فأوغر أبو العود صدر الرشيد على البرامكة، وأنشده متمثلا قول عمر بن أبي ربيعة:

وعدت هند وما كانت تعد ليت هنداً أنجزتنا ماتعد

واستبدت مرة واحد إنما العاجز من لا يستبد

فقال الرشيد: أجل إنما العاجز من لا يستبد، ثم جد الرشيد فى أمر البرامكة حتى أخذهم. أما المسعودى فقد قال هو الآخر: ولما أفضت الخلافة إلى الرشيد أفضى بالوزارة إلى البرامكة، فاحتازوا الأموال دونه حتى كان يحتاج إلى القليل من المال فلا يقدر عليه. كما يتفق ابن خلدون أيضًا مع ما أشار إليه المسعودى فى قوله: وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة، واحتجازهم أموال الجباية، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه، فغلبوه على أمره وشاركوه فى سلطانه ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه، فعظمت آثارهم، وبعد صيتهم، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم، واحتازوها عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم. وبعد فما هى السياسة التى اتبعها الرشيد خلال فترة حكمه؟ مر حكم الرشيد بمراحل ثلاث:

المرحلة الأولى: 170 ـ 174هـ الموافق 786 ـ 791م تولى هارون الرشيد الخلافة ليجد أمه «الخيزران» صاحبة الكلمة المسموعة فى الدولة، والناس

يقصدونها لقضاء حوائجهم. وهذا النفوذ نعتت به منذ خلافة زوجها محمد المهدي. وقد استمرت تسيطر على الأمور في أول أيام خلافة ابنهما موسى الهادي، وتستبد بالأمر والنهي حتى وجه لها الهادي ذلك الخطاب المشهور الذي أوقفها عند حدها من التدخل لفترة قصيرة. وما أن تولى الخلافة ولدها هارون الرشيد حتى عاودت تدخلها في شؤون الحكم، وصارت هي صاحبة الكلمة المسموعة الأولى والأخيرة في هذه المرحلة، فكان يحيى البرمكي يعرض عليها الأمور ويصدر تعليماته بعد أخذ رأيها، وهكذا حتى كانت وفاتها عام 174هـ الموافق 790م.

المرحلة الثانية 174 ـ 187هـ الموافق 791 ـ 803م بعد وفاة الخيزران ـ والدة الخليفة الرشيد ـ انفرد بالحكم، وصار له الرأي والتدبير، فهذا ليس بجديد لأن الرشيد في كتاب تقليده، الوزارة ليحيى البرمكي، قال: «قلدتك أمر الرعية، وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، وأعزل من رأيت، وامض الأمور على ما ترى». فقام يحيى بأمره خير قيام، ودبر أموره أحسن تدبير. كما تولى أولاد يحيى البرمكي المناصب الكبيرة في الدولة. وصاروا موضع ثقة الخليفة حتى نكبهم الرشيد فجأة عام 187هـ الموافق 803م.

المرحلة الثالثة: 187 ـ 193هـ الموافق 803 ـ 809م. تولى الرشيد في هذه المرحلة أمور الحكم بنفسه، فتراه يتنقل في أرجاء دولته ويتجول بين الناس في الأسواق متستراً ليستمع إلى شكاوى الشاكين. ويتفقد ماهم بحاجة إليه. كما قاد الجيوش ضد الثائرين وقام بالغزوات ومهما يكن من أمر فقد واجهت الرشيد كأسلافه في خلافة العباسيين متاعب كثيرة[1].

---

1 ـ د. إبراهيم أيوب ـ المرجع السابق ص66 وانظر: الطبري 295/8 ـ مروج الذهب 379/3.

يشير البعض إلى أن سبب نكبة البرامكة إنما هو سياسي وهو تحزبهم لأهل البيت من أحفاد رسول الله محمد ﷺ، فقد قال الرشيد يومًا لأبي معاوية: هممت أنه من يثبت خلافة الإمام علي بن أبي طالب فعلت به وفعلت به ويقول آخر: قال إسماعيل بن يحيى الهاشمي لجعفر البرمكي حينما ولاه الرشيد ولاية خراسان: أنت عازم على الخروج إلى بلدة كثيرة الخير، واسعة الأقطار، عظيمة المملكة، فلو صيرت بعض ضياعك لولد أمير المؤمنين لكان أحظى لك عنده. فلما قلت ذلك نظر إلي مغضبًا وقال: والله يا إسماعيل ما أكل الخبز ابن عمك إلا بفضلي ولا قامت هذه الدولة إلا بنا، ما كفى إني تركته لايهتم بشيء من أمر نفسه وولده وحاشيته ورعيته، وقد ملأت بيوت أمواله أموالاً، ولا زلت للأمور الجليلة أدبرها، حتى يمد عينيه إلى ما ادخرته واخترته لولدي وعقبي من بعدي، وداخله حسد بني هاشم وبغيهم ودب فيه الطمع، والله لئن سألني شيئًا من ذلك ليكونن وبالا عليه سريعًا. فقلت والله ما كان مما ظننت شيء، ولا تكلم أمير المؤمنين بحرف، قال: فما هذا الفضول منك؟ وقد كتب الخادم - الذي وهبه الرشيد جعفر - إلى الرشيد بما كان بيني وبينه، وما تكلم به من الكلام الغليظ، فلما قرأ الكتاب، احتجب ثلاثة أيام متفكرًا في إيقاع الحيلة على البرامكة. ويضيف قائلا: قال الرشيد لإسماعيل بن يحيى الهاشمي: أنظركم على باب جعفر من الجيوش والغلمان والقواد والمواكب، وليس على باب داري أحد؟ فقال: يا أمير المؤمنين، ناشدتك الله أن لايعلق بنفسك شيء من هذا، فإنما جعفر خادمك ووزيرك وصاحب جيوشك وبابه باب من أبوابك، فإذا لم يكن الجند على بابه فعلى باب من يكون؟ فقال: والله إن البرامكة قد امتلكوا الدولة، واحتجزوا أموال الجباية، وانصرفوا عن خدمتي إلى محبة العلويين وتعزيز شيعتهم وأنا لا أصبر على ذلك ويظهر من ذلك إحساس الرشيد بقوة نفوذ

البرامكة ممثلا في جعفر، وممالاتهم للعلويين من آل البيت عليهم السلام وامتعاضه من تصرفاتهم التي لم يستطع الصبر عليها، بل باح بما يكنه ضميره تجاههم لإسماعيل الهاشمي، هذا بالإضافة إلى ما قاله ابن كثير أيضًا متهما البرامكة بالزندقة، وبكيدهم للإسلام إذ يقول: إن البرامكة أرادوا إبطال الخلافة وإظهار الزندقة. أما ابن قتيبة فيقول: كان البرامكة يرمون بالزندقة إلا من عصم الله تعالى منهم، وفيهم قال الأصمعي[1]:

إذا ذكر الشرك في مجلس أضاءت وجوه بني برمك

وإن تليت عندهم آية أتوا بالأحاديث عن مزدك

يقول الطبري عن أسباب نكبة البرامكة: «ذكر أبو محمد اليزيدي قال: من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير يحيى بن عبدالله بن حسن فلا تصدقه، ذلك أن الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه، ثم دعا به ليلة من الليالي فسأله عن شيء من أمره، فأجابه إلى أن قال: اتق الله في أمري ولا تتعرض أن يكون خصمك غدًا محمد ﷺ، فوالله ما أحدثت حدثًا، ولا آويت محدثًا، فرق عليه وقال له: اذهب حيث شئت من بلاد الله، قال: وكيف أذهب؟ ولا آمن أن أوخذ بعد قليل فأرد إليك أو إلى غيرك، فوجه معه من أداه إلى مأمنه. وبلغ الخبر الفضل بن الربيع، فدخل على الرشيد فأخبره، فقال الرشيد: وما أنت وهذا لا أم لك، فلعل ذلك عن أمري، فانكسر الفضل، وجاء جعفر إلى الرشيد، فقال له الرشيد: ما فعل يحيى بن عبد الله؟ قال: بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس الضيق والأكبال، قال:

---

1 ـ عبد العزيز محمد اللميلم ـ المرجع السابق ص170 وانظر: الكرملي/ خلاصة تاريخ العراق منذ نشوئه إلى يومنا هذا (مخطوط) ص126. الاتليدي/ إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس ص143.

بحياتي فأحجم جعفر، وكان من أدق الناس ذهنا، وأصحهم فكراً، وهجس في نفسه أنه قد علم بشيء من أمره قال: لا وحياتك يا سيدي، ولكن أطلقته وعلمت أن لا حياة به، ولا مكروه عنده، قال: نعم ما فعلت، ما عدوت ما كان في نفسي، فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد أن يتوارى عن وجهه، ثم قال: قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك، فكان من أمره ما كان. لهذا لا نستغرب إذا ساءت العلاقة بين الرشيد والبرامكة، ولعل من أذكى هذه الجفوة وزادها تعقيداً هو الفضل بن الربيع وغيره من أمثال زبيدة، التي كانت هي الأخرى تكره البرامكة وتتربص بهم، نتيجة لموقفهم من ابنها الأمين وميلهم إلى المأمون، إذ كانت تعتقد أن الرشيد قد عهد إلى ابنه المأمون بولاية العهد الثانية بتأثير من يحيى البرمكي ليس إلا. أما عن نهايتهم فقد أشار إلى ذلك اليعقوبي إذ يقول:

قال الرشيد لإسماعيل بن صبيح: إني أريد أن أفشي إليك سراً، لئن سمعته من أحد من الناس لأضربن عنقك، قال: إني أريد أن أوقع بآل برمك إيقاعاً ما أوقعته بأحد وأجعلهم أحدوثة ونكالا إلى آخر الأبد، فقلت: وفقك الله يا أمير المؤمنين وأرشد أمرك، ثم حال الحول، وحال حول ثان ثم حال ثالث، فلما كان رأس الحول الرابع قتلهم، وكان قتل جعفر في صفر من عام 188هـ بدير العمر، وهو موضع من الأنبار بغير أمر متقدم، وأصبح فحمله إلى بغداد فقطع ثلاث قطع، وصلب على جسر بغداد، وحبس يحيى بن خالد وولده وأهل بيته، واستصفى أموالهم، وقبض ضياعهم. والغريب في الأمر أن الرشيد لم يكشف عن السبب الذي دفع به إلى نكبتهم حيث لم أجد من أشار إلى هذا من بعيد أو قريب من المؤرخين، ولعله احتفظ بهذا السر لنفسه لأمور لا يود الكشف عنها أو التصريح بها. ويؤيد هذا من أن الرشيد لم يكشف النقاب عن قصة نكبة البرامكة ما أشار إليه اليعقوبي إذ يقول: قال

الرشيد: لو علمت يميني بالسبب الذي له فعلت هذا لقطعتها، وأكثر الناس في أسباب السخط عليهم مختلفين[1].

يقول ابن خلكان: قالت علية بنت المهدي للرشيد: ما رأيت لك يوم سرور تام منذ قتلت جعفراً فلأي شيء قتلته؟ فقال لها: يا حياتي لو علمت أن قميصي يعلم السبب في ذلك لمزقته ويشير البعض إلى أن تكتم الرشيد عن الإفصاح بشيء حيال نكبة البرامكة، وسكوت البلاد هو الذي سمح للشائعات أن تدخل في درج الحقائق، وللحقائق أن تشتبه بالشائعات. ويقال بأن يحيى ابن خالد كتب إلى الرشيد وهو في سجنه قائلا: يا أمير المؤمنين إن كان المذنب خاصًا فلا تعمن بالعقوبة فإن الله عز وجل يقول: ﴿...وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ... ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام]. وقد كتب يحيى كتابا إلى الرشيد يستعطفه ويسأله أن يخفف عنه من القيد والغل فكتب على ظهر الرقعة أبياتًا وختم بالآية الكريمة ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل].

فلما قرأها يحيى وهو في السجن أخذته الحمى ويئس من الحياة، وعلم أنه ليس له مما هو فيه مخلص. من الباحثين المحدثين من يرجع تلك الأسباب إلى رد الفعل الديني ومنهم من يرجعها إلى خشية العباسيين من تعظم نفوذ آل برمك والتنافس بين الأرستقراطيين العرب والمشارقة ورغبة الرشيد في مصادرة أموالهم. ومن الذين عاصروا الحدث من اعتبر أن سببها حادثة كشف العلاقة السرية بين جعفر بن يحيى البرمكي وبين العباسة أخت الرشيد. ولم يذكر ابن خلدون هذه القصة في كتابه (التاريخ)، ولكنه أوردها في (المقدمة)

---

1 ـ عبد العزيز محمد اللميلم ـ نفس المرجع ص172: وانظر المصدر نفسه والجزء ص422، ابن دحية: النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ص41.

للرد عليهـا، حيث يدحض الروايات المتـداولة دحضا علمـيا: ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين مـاينقلونه كافة في سبب نكبة الرشيـد للبرامكة من قصة العباسة أخته مع جعفـر بن يحيى بن خالد مولاه «وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحـتجافهم أموال الجباية حـتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه فـغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه فعظمت آثارهم وبعـد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من أولادهم وصنائعهم واجـتازوها عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيـادة وحجابة وسيف وقلم. فتوجـه الإيثار من السلطان إليهم وعظمت الدالة منهم وانبسط الجاه عندهم وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقـصرت عليهم الآمـال وتخطت إليهم من أقصى التـخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء وتـسربت إلى خزائنهم فـي سبيل التـزلف والاستـمالة، أموال الجبـاية، وأفاضوا في رجال الشـيعة وعظماء القـرابة العطاء وطوقوهم المنن وكسبوا من بيوتات الأشراف المعدم وفكوا العاني ومدحوا لما لم يمدح به خليفتهم وأسنوا لعفاتهم الجوائز والصولات واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والأمصار في سائر الممالك حتى أسفـوا البطانة وأحقدوا الخـاصة وأغصوا أهل الولاية فكشـفت لهم وجوه المنافـسة والحسـد ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عـقارب السعـاية..». إن ابن خلدون كان أكثر قدرة على استنباط الأسباب الحقيقية لنكبـة البرامكة، فاستبعد الأسباب الواهية، التي إذا صح وجودها، فإنها لا تعدو أن تكون الأسـباب الظاهرة. وهكذا فإن موقف الخليفة المفاجئ والـعنيف، كان يمثل محاولة لاسترداد سلـطته المفقودة وثروة دولته المهـدورة. فهـو يفصل لنا مظاهر الحظوة والامـتيـاز التي حصل عليـها البرامكة وأدت إلى تفردهم بالسلطة وتحديهم للخليفة وكيفية رد الرشيد عليهم عندما حاول إنقاذ الموقف المتدهور الذى عبر عنه المتنبـي فيما بعد مصورا حالة

الغربة التى بدأ العرب يشعرون بها أثناء سيطرة الموالى من المشرق الإسلامى فقال بيته الشهير(1):

ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان

هذا الموقف من البرامكة وغيرهم يبين لنا القوة التى كانت تتمتع بها الدولة فى شخص الخليفة، وكيف أنه يستعمل أقصى إجراءات الشدة، حتى مع أقرب مساعديه، فى حالات الخطر الذى يهدد سلطانه، كما يبين لنا ذكاء السلطة العباسية (دهاءها السياسى) فى استدراج خصومها وتصفيتهم بشكل لا يثير لها المتاعب.

ويقول البعض عن سبب النكبة: إن التهم الموجهة إلى البرامكة كانت كفيلة وكافية لغضب الرشيد عليهم خاصة ما يتصل منها بسلطانه وملكه وإحساسه بمشاركتهم له فى أمور الدولة، هذا الإحساس جعله أذنًا صاغية لكل واش وحاقد، وكانت الكلمة الواحدة تطرق أذنه تحمل معنى التدخل، وتدفعه إلى عدم المبالاة بإنزال العقاب بهم بل وتمزيقهم شر ممزق، والشواهد على هذا كثيرة فى قديم التاريخ وحديثه. ومما يؤخذ على الرشيد أنه هو الذى مهد لهم الطريق، بل وفرشه لهم بالحرير بتفويضهم لإدارة شؤون الدولة، وإشرافهم دون رقيب على كل مظاهر الحياة فيها. وبالرغم من الأسباب العديدة التى أوردها المؤرخون لنكبة البرامكة إلا أن هناك من الأسباب ما أوغر صدر الرشيد عليهم ذلك أن الوشايات ضدهم من أناس نقموا عليهم نفوذهم وسلطتهم فى وقت كانوا يطمحون للاستئثار بهذه السلطة وذلك النفوذ، والحلول محلهم، كان لها دورًا بارزًا بالإطاحة بهم، إذ عمل العديد من

1 ـ د. محمد نجيب أبو طالب ـ المرجع السابق ص153 وانظر: ابن خلدون ـ المقدمة ص16 والطبرى جـ94/8.

الحاقدين عليهم على السعاية بهم لدى الرشيد، لعل من أبرزهم الفضل بن الربيع الذى عمل جاهدًا على تتبع هفواتهم، وإيصالها إلى الرشيد أولا بأول. ثم زبيدة أم الأمين وزوج الرشيد التى لم تكن هى الأخرى راضية عما يتمتع به البرامكة من نفوذ وثراء عريض. هذه الأسباب مع الأسباب السابقة الأخرى مجتمعة أدت إلى نقمة الرشيد عليهم والتنكيل بهم، وجعلهم عبرة لمن يعتبر[1].

الواقع أن نكبة البرامكة لم تكن مفاجئة كما كان يتصور البعض، ولم تكن نتيجة ثورة عاطفية أو عصبية، بل تمت بعد تفكير طويل وتدبر أطول. ولعل ما سقته عن البرامكة وما اتهموا به أمام الرشيد، مما ذكره المؤرخون يبين لنا بوضوح بأن الرشيد لم يتسرع فى القضاء عليهم، بل تروى مدة أطول قبل أن يقدم على ذلك الإجراء الخطير. ولعل ما اتهم به البرامكة أمام الرشيد كان كافيا للإيقاع بهم واستئصال شأفتهم. إذا فمسألة نكبة البرامكة لم يستوف بحثها بل إنها بحاجة إلى مزيد من الدراسة لاستجلاء ما غمض منها، لأنه ليس من السهل تقبل كل ما أسند إلى الرشيد أو البرامكة أو العلويين من أمور تفاعلت مع النكبة. بل ربما هناك مسائل لم يكشف المؤرخون عنها، ولم يصل إليها استنتاج الباحثين بعد، بل إن الموضوع سيظل حقبة أخرى كقضية تاريخية معروضة للحوار والمناقشة. وإذا كان قدماء المؤرخين، ومنهم ابن طيفور وابن قتيبة واليعقوبى، وكذا الطبرى والمسعودى وابن الأثير وغيرهم كثير قد أثبتوا غالبية ما أشرت إليه من روايات تحليلا لهذه الأحداث التى لابست نكبة البرامكة، فإن الموضوع ما زال بحاجة إلى مزيد من الدراسة لهذا

1 - عبد العزيز محمد اللميلم - المرجع السابق ص174 وانظر: الأتليدى/ أعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بنى العباس ص150. نصار/ عبد المقصود: نظرات حول العصر العباسى الأول ص116.

الحدث الخطير. ومن المحتمل أن هناك أشياء لم يكشف عنها البحث العلمي حتى الآن[1].

التخلص من آل سهل

سيرة المأمون في عهده تشابه بعض الشيء سيرة والده هارون الرشيد، يمكن أن تميزه في عهده دورين مختلفين: الدور الأول كان فيه المأمون تحت سلطان وزيره الفضل بن سهل؛ يوجه الفضل بن سهل السياسة كما يريد، ويطلع المأمون من الأمور على ما يريد، ويخفي عنه ما يشاء. هذا الدور ينتهي عام مئتين واثنين للهجرة. فمنذ عام مئتين وثلاثة يبدأ دور آخر كان المأمون فيه سيد أمره، قائمًا بأمور الخلافة يوجهها كما ينبغي. يشبه المأمون والده أيضًا في بعض طبعه ومزاجه ويخالفه في بعضه الآخر: المأمون حيي، وفي، كريم، يحب الناس، ويحب من الناس أن يحبوه. وهو في هذا يشبه والده. ولكنه إلى جانب الحياء والوفاء حليم مترو في الأمور في ساعتها. أما المأمون فيبلغ منه التروي أنه يؤجل حلها حتى يستقر على رأي صحيح فيها؛ وهو عميق في تفكيره عمق العالم، وقد كان عالمًا بالفعل. كان ينظر إلى الأمور من القريب والبعيد، وإن حلت الآن فماذا ينتج عن ذلك؟ وإن تأخر الحل فماذا يحدث؟ فما كان يستقر على أمر إلا بعد أن يرى ظروفه وأبعد ما فيها؛ وكان إذا فاجأته حادثة، أخر حلها حتى يستقيم له الرأي فيها، وهو على كل حال يحل المسائل هادئًا، دون أن يكون في الأمرة إثارة أو استثارة، ليس فيه عنف ولا قسوة، يرغب في أن يكون حلا هادئًا ناعمًا لطيفًا. لعل الناس في عصره ما كانوا يشعرون بأهمية الحل، ولا يقدرون قيمته قد يلجأ في هذا الحل إلى السم أو إلى قتل الناس. ولعله كان يفعل ذلك لصالح الدولة، ولعله كان يفضل الحلول الهادئة هذه على إرسال الجيوش وقتال

---

1 ـ عبد العزيز محمد اللميلم ـ نفس المرجع ص175.

الناس. وكان بعد أن يوعز بالسم ويقتل من يقتل، يتبرأ من هذا الفعل، ويعلن سخطه عليه، بل يحاول أن يخفي تدبيره وراء ترتيب جديد، ينعم على أهل الشخص المقتول، ويضفي عطفه على اسم المسموم واسم ذويه. وفي هذا يخالف المأمون سيرة أبيه، فالرشيد قتل جعفر بن يحيى البرمكي جهارا، وألقى أهله في السجن، وتركهم فيه حتى وفاتهم. الرشيد لم يذكر في لحظة من لحظات حياته بعد مقتل البرامكة أنه نادم على مافعل. وكان يتتبع البرامكة وأصدقاءهم حتى آخر عمره. أما المأمون فلا تبدو منه رغبة في فجيعة أي إنسان، ولا يظهر من وراء أولئك الذين يدسون السم، أو الذين يقتلون، وإذا رأى أنه سينكشف أمره، فإنه لا يتردد أن يتخلص أيضًا من صنيعه الذي لعب دورا في المؤامرة[1].

تنتسب هذه الأسرة إلى سهل الذي يقال بأنه كان من أسرة عريقة في المشرق الإسلامي، إذ أسلم في أيام المهدي، وقيل في أيام الرشيد كما يقول ابن طباطبا. وكان الفضل بن سهل - الذي أصبح فيما بعد وزيرا للمأمون - قهرمانا ليحيى بن خالد البرمكي إذ أعجب به يحيى وقال له: إني أراك ذكيًا وستبلغ مبلغًا رفيعًا، فأسلم حتى أجد السبيل إلى إدخالك في أمورنا والإحسان إليك، فاستجاب الفضل لرغبة يحيى قائلا: نعم أصلح الله الوزير، أسلم على يديك، فقال له يحيى: لا، ولكن أضعك موضعًا تنال به حظًا من دنيانا، ودعا سلامًا مولاه وقال له: خذ بيد هذا الفتى وامض به إلى جعفر وقل له: يدخل على المأمون حتى يسلم على يديه. وكان المأمون آنذاك في حجر جعفر بن يحيى، وتم الأمر كما أراد يحيى. وظل الفضل ملازمًا لكل من المأمون وجعفر بن يحيى منذ ذلك التاريخ وإذا غادرنا ما حدث للبرامكة الذي يوضح الكثير من توتر العلاقات بين الخلافة العباسية ممثلة في

1 - يوسف العش - عصر الخلافة العباسية ص91.

شخص الرشـيد، وبين المشارقة ممثلة فى أشـخاص زعماء البـرامكة، وحاولنا استكناه الأسباب التى جعلت المأمون يركن إلى المشارقة، وهل هى سياسة؟ أم هى لحمة الصـهر والقرابة كما يقـولون؟ الواقع أننا نرفض أن نعلل الأحداث الكبرى فى الدول العظمى بأمـور فردية أو شخـصية ليست ذا بال فى توجـيه التاريخ، فليس من المعـقول مثلا أن تكون أم المأمون سـبب تمركزه فى «مرو» لأنه استـلان الحياة بين أخـواله. وإنما المعقـول أن نتتبع الأحـداث، ونحاول تحليلها تحليلا علميًا يتسق مع جلال وخطورة تلك الأحداث، فالدولة العباسية تضم بين جنباتها أقطارًا شـاسعة من الأرض وجموعًا غفـيرة من البشر. هذه الدولة ذات الجيوش الجـرارة والمرافق الضخمة فى جـميع المجالات، ليس من المعقـول أن نعلل بقاء المأمون ـ رئيس هذه الدولة ـ فى مرو لمجـرد أن أخواله هناك. ولكن ينبغى أن يقال: إن مصـلحته ومصلحة الدولة وسياستـها العامة كانت تفـرض عليه ذلك. والمتتبع للتـاريخ منذ ولى المأمون عهد الخـلافة فى حيـاة أبيـه إلى أن ولى أخوه الأمـين الخلافـة، وما نشب بينهـما من صـراع انقسمت الأمة بسببه شطرين[1]:

1 - شطر العرب وجمهرتهم مع الأمين.

2 - شطر المشارقة وجمهرتهم مع المأمون.

ثم ما أعقب ذلك من محاولة الأمين خلع أخيه المأمون من ولاية العهد والنكث بعهـد أبيه. إن هذا التصـرف من الأمين هو الذى حـدا بالمأمون إلى اختيار مـدينة «مرو» عاصمة وقتـية ريثما تستقـر الأمور وتنجلى الفتنة، ولأن هذه المنطقة هى التى ولاه عليها أبوه الرشيد فى حياته عندما وزع الصلاحيات بين أبنائه الثلاثة. إذًا فبقـاء المأمون فيها كان ضرورة ملحـة لأنه قد تمركز بها منذ مـدة طويلة أثناء خلافـة والده الرشيـد وأخيـه الأمين، وكون لـه أعوانًا

1 ـ عبد العزيز محمد اللميلم ـ المرجع السابق ص202.

وأنصارًا وجندًا هناك، فليس من المعقول والحالة هذه، والخلاف مستحكم بينه وبين أخيه الأمين، ثم ما أعقب ذلك من قتل الأمين بيد جند المأمون، أقول ليس من المعقول أن يهجر منطقة ركز فيها جنده وقواته فترة طويلة.

ولكن عندما نساير العهود التالية، نجد الكثير من مضايقات رجال المشرق للعباسيين، نذكر على سبيل المثال: ما حدث بعد الرشيد مع ابنيه الأمين والمأمون. جعل هؤلاء من زعماء العرب وزعماء المشرق ميدانا للصراع حتى تمزق وحدة الأمة والدولة، ثم انتهى الأمر بمصرع الأمين بيد طاهر بن الحسين وبجيش من المشرق الإسلامي، وبويع للمأمون في «خراسان» في المشرق الإسلامي، وولي الحسن بن سهل ولاية العراق مع وجود من هو أجدر منه في هذا الميدان، ولا شك بأن للفضل بن سهل - أخي الحسن - دورًا في هذه التولية، مما أوجد تذمرًا لدى سكان العاصمة بغداد على الأقل، إذ يقول البعض عن ذلك:

«ثم دخلت سنة 201هـ وكانت فيها مراودة أهل بغداد منصور بن المهدي على الخلافة يأبى ذلك، فأرادوه على الأمرة عليهم على أن يدعو للمأمون بالخلافة، وقالوا: لانرضى بالمجوسي بن المجوسي "يعني الحسن بن سهل" فأجابهم إلى ذلك. نعم لقد تمكن الفضل بن سهل وأعوانه من ضرب حصار على المأمون وتوجيهه الوجهة التي يريدونها وذلك بإيعاز صدره على العرب وكل من عدا آل سهل، وأخذوا يزينون له البقاء في مرو، ويخوفونه من بغداد، بل ويحذرونه من كل عربي فيها، وامتدت أيديهم إلى كل من يحاول تقديم صورة حقيقية للأحداث وظروفها وطبيعتها إلى الخليفة المأمون، فكانوا ينزلون العقاب بكل من يصل إلى مسامعهم أنه اتصل بالمأمون أو أفضى إليه بشيء. لقد اعتقد الفضل بأن تأييده بل ومشورته للمأمون بتولية الإمام على الرضا عليه السلام وأمله في أن يتمكن أخوه الحسن من إخماد الثورة في العراق

والقضاء على القادة الذين يخشى خطرهم. كل تلك ستبقى السلطة بيد آل سهل وفى «مرو» بالذات وهذا هو ما سعى إليه الفضل. ولهذا رأى أن لا حاجة لأخبار الخليفة بما يجرى في بغداد من التذمر والغليان وبقاء الخليفة في «مرو». ولعل من أربك خطط الفضل هو «الإمام على الرضا ﷺ» الذى كشف الحقيقة للمأمون والتى افسدت على الفضل مخططاته، وكانت سببًا رئيسيًا لنهاية الفضل وانتقال الخليفة إلى بغداد[1].

الصراع بين الأمين والمأمون:

الأمين والمأمون، أو الفضل بن الربيع والفضل بن سهل، كانا يمثلان قطبى الصراع السياسى داخل الدولة العباسية منذ أواخر أيام الرشيد. فكلما ذكر الأمين والمأمون، ابنا الرشيد، إلا وذكر معهما «الفضلان»، الوزيران اللذان تحيز كل منهما إلى أحد الأخوين، وأثارا بينهما صراعا شديدا انعكس على الحياة الاجتماعية والاقتصادية. وهكذا فإن نكبة البرامكة كان لها علاقة مباشرة بالصراعات الجديدة بين الأخوين، بل إن صراع الأخوين كان استمرار للصراع القديم، وكان الرشيد يخاف من سعى البرامكة بين الأمين والمأمون، فكان يقول: «أعليناهم وأفقروا أولادنا، ولم تكن لأحد من أولادنا ضيعة من ضياع البرامكة. ولم يبق لأبنائه شيء سوى أنهما أصبحا ألعوبة فى أيدى المتصارعين لكسب شرعية سلطتهم في المرحلة اللاحقة بعد غياب الرشيد. ولكن الأمر لم يسر كما توقعه البرامكة، إذ تم القضاء عليهم، وحل محلهم الفضل بن سهل الذى مثل اتجاه المشرق الإسلامى المؤيد للمأمون. كان الصراع يدور في تلك الفترة بين الطبقات المستفيدة من المراكز الإدارية والسياسية المهمة، والمحدثة بسبب إعادة ترتيب سياسة الاحلاف مع المشرق الإسلامي والأسر والقبائل العربية بعد القضاء على البرامكة. وكان الصراع الطبقى الدائر

1 ـ عبد العزيز محمد اللميلم ـ نفس المرجع ص204.

بين رحى الطبقات والفئات المسيطرة على الثروة والسلطة، يتسم بسمتين أساسيتين تنبهتان فرزه وتضعفان تطوره مما انعكس على تماسك البنية الاجتماعية والاقتصادية، وهاتان السمتان هما[1]:

1 ـ حدوث تحالف بين طبقة الإقطاع وطبقة التجار والمرابين، تجسد في تبادل المصالح والادوار وتسهيل الاعمال العقارية والتجارية، مما انعكس على الواقع السياسي. وقد أدى ذلك إلى استمرار المصالحة السياسية على الأسس (الثروة ـ الجاه أو النسب ـ المشاركة في السلطة. لكن ذلك تغير في المرحلة الموالية، أي بعد عصر المتوكل حينما ظهر الإقطاع العسكري وسيطر على الدولة.

2 ـ تبلور نوع آخر من الصراع القائم بين الثنائية العصبية عرب ومشارقة، مما أدى إلى تبلور طبقتين أرستقراطيتين متميزتين تجسدت بشكل واضح في الجهاز البيروقراطي المتضخم للدولة. وأصبح التأثير على القرار السياسي هدفا أساسيا لكل منهما يفوق أهمية الثروة لديهما. ورغم أن بوادر هذا الصراع كانت قائمة منذ نشوء الدولة العباسية، لكنه كان مختفيا نظراً لطبيعة التطورات الاجتماعية والسياسية، إلا أنه بدأ بالتبلور من خلال ظهور ممثلين بارزين له في المجالين السياسي والثقافي. كما انعكس ذلك على المستوى الإداري أيضاً. إن الصراعات السياسية بين مراكز القوى في السلطة العباسية وكثرة الثورات والحروب والانشغال بمحاربة الدولة البيزنطية، لم تترك فرصة أمام قوى الإقطاع والتجارة لتوطيد نفوذها، لذلك فإنها لم تستطع تقوية دعائم الطبقية بسبب وجود دولة مركزية تتدخل باستمرار، على أن قوة دور العصبيات في المجتمع العباسي، وضعف الفرز الطبقي القائم على

1 ـ د. محمد نجيب أبو طالب ـ المرجع السابق ص155 وانظر: احمد أمين ـ ضحى الإسلام ص66.

الأسس الاقتصادية، وصراع الأرستقراطيتين العربية والمشرقية. لم ينف وجود تشكيلة اقتصادية اجتماعيـة واضحة المعالم. هذه التشكيلة تظهر لنا من خلال النظرة التاريخية العامة للصراع الاجتماعي بمختلف أبعاده. وبالتالي من خلال سيرورة العلاقات الاجتماعيـة والاقتصادية. لقد تجسد ذلك في احتكار الدولة وممثليهـا رغم اختلاف طبيعة هؤلاء الممثليـن وعلاقتهم بالأرض، باختلاف المراحل السياسية لملكية الأرض بدرجة أساسية، وباقي قوى الإنتاج، وخضوع جمـاهير الفلاحـين والحرفيين لعلاقات التبعيـة الإقطاعيـة وانحلال النظام العبودي وضعف دوره، واتساع نطاق حركات التمرد في صفوف الفلاحين في الريف والحرفيـين وصغار التجار والعبيد في المدن، وتبلور الصراع في البُنى «المفرد: بنية» الفوقية في النشاطات المذهبية والسياسية[1].

ويمكن استنتاج ذلك على ضـوء المحـاورة التي جرت بين الفـضل بن سهل ونعيم بن حازم يحسن أن ننقلها من الجهشياري إذ يقول:

كان المأمون قد جد بأخذ البيعة على الناس والكتـابة إلى الأقاليم في إبطال السواد، وأن يلبس الناس الخـضرة، ويجعل الأعلام والقـلانس خضراً وهو شعار ولون رسـول الله محـمد ﷺ وأحـفاده من آل البـيت العلويين، ويطالب الناس بذلك، ويكاتب فيه جميـع عمـاله. وكان المأمـون قد قـال للفضل: ينبـغي أن تحضر نـعيم بن حازم فـإنه وجه من الوجوه، وله سـابقة وجلالة وريـاسة، فتناظره فيمـا أجمـعناه من هذا الأمر، فـأحضره الـفضل بحضرة المأمون وعرفه بما عزم عليه ورغـبه فيه وذكره ما يلزم من الانقياد له، فأبى نعـيم، وذكر مـا كان منه ومن سلفـه في نصرة الدولة الهاشـمية، وما وصلوا إليه بهـا من العز والأمن والثروة والجاه، ومـا بلغوه فيها مـن الحماية وبذل المهجة ومقاومة الأعداء، وأنه لا يقبل الضيم، ولا يسمح بطاعة من كان

---

1 ـ د. محمد نجيب أبو طالب ـ نفس المرجع ص66.

يسفك دمه ويدفعه عما يلتمسه ويفارعه دونه، فكلمه الفضل في ذلك وخلط له لينا وغلظة، فقال له نعيم:

«إنك إنما تريد أن تزيل الملك عن بني العباس إلى آل البيت من العلويين أحفاد رسول الله محمد ﷺ، ثم تحتال عليهم فتصير الملك، ولولا أنك أردت ذلك لما عدلت عن لبسة الإمام علي وولده عليهم السلام وهي البياض إلى الخضرة، ثم أقبل على المأمون فقال:

الله الله يا أمير المؤمنين، لايخدعك عن دينك وملكك فإن أهل خراسان لايجيبون إلى بيعة رجل تقطر سيوفهم من دمه، فقال له المأمون: انصرف ولم يظهر له غضبًا، وأقبل على الفضل فقال له: ماترى؟ قال: أرى أن يخرج هذا عن خراسان فلا خير في مقامه معنا. ولعل مما يؤيد ذلك ويؤكده ما رواه اليعقوبي من أن رسول المأمون الموفد إلى الإمام على الرضا عليه السلام كان قرابة للفضل بن سهل إذ يقول:

«وأشخص المأمون عليًا الرضا من المدينة إلى خراسان وكان رسوله إليه رجاء بن أبي الضحاك قرابة الفضل بن سهل، فقدم بغداد ثم أخذ به على طريق ماه البصرة حتى صار إلى مرو، وبايع له المأمون بولاية العهد من بعده، وكان ذلك يوم الاثنين لسبع خلون من شهر رمضان عام 201هـ وألبس الناس الأخضر مكان السواد، وكتب بذلك إلى الآفاق، وأخذت البيعة للرضا، ودعي له على المنابر، وضربت الدنانير والدراهم باسمه وعلى أية حال فإنه إذا كان الفضل بن سهل قد أشار بهذا الرأي على المأمون، إذ أن نقل الخلافة إلى علوي يعني البقاء في خراسان ولو لمدة، وبأن الفضل بن سهل عندما أشار على المأمون بتولية الإمام على الرضا عليه السلام بولاية العهد إنما يقصد من وراء ذلك أن يضمن بقاء العلويين رضوان الله عليهم في خراسان، كما أن الخراسانيين من المشرق الإسلامي قد شعروا بما لقيه زعماؤهم على يد

العباسيين من قبل. ولهذا لا نستغرب إذا كانت ميول علوية من أحفاد الرسول محمد ﷺ.

وخير شاهد على ما كان يكنه الخراسانيون للإمام علي الرضا عليه السلام من الاحترام ما قاله البعض: من أنه حينما قتل الفضل بن سهل شغب الخراسانيون على المأمون، وهجموا على داره ولم يهدأوا إلا بعد أن طلب منهم الإمام علي الرضا عليه السلام أن يتفرقوا. وممن قتل على يد الفضل بن سهل القائد المشهور الذي شارك بشكل فعال في محاربة الأمين وتحقيق الانتصار للمأمون مع القائد طاهر بن الحسين، ذلك هو هرثمة بن أعين، والذي يعتبر من الرعيل الأول في الدولة العباسية، وممن له مكانة مرموقة في المجتمع سواء في عهد الرشيد أو في عهد المأمون، فلقد حاول هذا القائد الاتصال بالمأمون وإخطاره بما يحوى حيث دخل هرثمة على المأمون وواجهه صراحة بالصراع الدائر ضد العرب بتدبير الفضل بن سهل. لقد أدرك هرثمة ما كان يدبره الفضل بن سهل ضد قضية العرب من استئثاره بالسلطة، وتحويل الخلافة إلى آل البيت من العلويين أحفاد الرسول محمد ﷺ، وأحس بأن المأمون أصبح في عزلة محجوبًا عن الاطلاع على سير الأحداث في الدولة العباسية، ولهذا قرر بعد الانتهاء من قمع ثورة أبي السرايا أن يتجه إلى مرو لمقابلة الخليفة ليشرح له أسباب العديد من الثورات المتلاحقة ضد حكمه، وليتنقذه من استبداد الفضل.

وقد تلقى هرثمة أثناء سيره تعليمات من «مرو» بالتوجه إلى الشام أو الحجاز، ولكنه رفض الإذعان لتلك الأوامر، وأبى أن يذهب لولايته دون رؤية الخليفة إدلالا منه عليه لنصحه للخليفة ولآبائه، أراد بذلك كله أن يطلع المأمون بما يدبره الفضل، وما يكتم عنه من الأخبار، وأن لا يدعه حتى يقنعه بالعودة إلى بغداد موطن آبائه وأجداده[1].

---

1 ـ عبد العزيز محمد اللميلم ـ المرجع السابق ص206.

عندها أدرك الفضل مـا تنطوى عليه نية هرثمة من قـدومه إلى المأمون، لهذا أخـذ يوغر صدر الخليفـة ضد هرثمة قـائلا له: بأن ثورة أبي السرايا إنما كانت بتدبير هرثمة، وأنه جاء مـعاندًا عاصيًا لأوامر الدولة، وأنه إن ترك كان مفسـدة لغيره، فاسـتمع الخليفـة لتلك الوشاية، وتغير قلبـه على قائده وبات ينتظره. ولما قرب هرثمة من «مرو» خاف أن يحـول الفضل بينه وبين الخليفة، لهذا أمـر بدق الطبول عند دخول «مـرو» العاصـمة كي يسمع الخليـفة ذلك، فقال الخليفة: ما هذا؟ قال الفـضل: هذا هرثمة قد أقبل يرعد ويبرق، فازداد المأمون غضبًـا وأمر بإدخاله، فلما مثل بين يديه صاح فـيه قائلا: مالأت أهل الكوفة والعـلويين وداهنت ودسـست إلى أبي السرايا حـتى خرج وعـمل ما عمل، وكـان رجلا من أصحـابك، ولو أردت أن تأخذهم جـميعًـا لفعلت، ولكنك أرخـيت خناقـهم وأجررت لهم رسنهم. وعـندما أراد هرثـمـة الكلام والاعتذار، وأن يدفع عن نفسه مـا اتهم به لم يقبل منه الخليفة ذلك، وأمر به فوجئ على أنفه وديس بطنه، وسحب من بين يدى الخليفة، ثم حبس فمكث أيامًا ثم دسـوا إليه فقتلوه وقـالوا: إنه مات كما يورد الجـهشياري القـصة من وجه آخر إذ يقول:

«قدم هرثـمـة بن أعين إلى المأمـون مغاضـبًا لذى الرياسـتين، وكان ذو الرياستين يجلس على كرسى مجنح، ويحمل فيه إذا أراد الدخول إلى المأمون فلا يزال يحمل حتى تقع عين المأمون عليه، فإذا وقعت وضع الكرسى، ونزل عنه فـمـشى وحـمل الـكرسى حـتى يوضع بين يدى المـأمـون ثم يسلم ذو الرياسـتين ويعود فيقعـد عليه، وكان فيـمن يحمل الكرسى سعيـد بن مسلم ويحيى بن معاذ قال: وإنما ذهب ذو الرياستين فى ذلك إلى مذهب الأكاسرة، فإن وزيـراً من وزرائها كـان يحمل فى مـثل ذلك الكرسى ويتولى حـمله اثنا عشر رجـلا من أولاد الملوك. فدخل هرثمة فى أصحابه دار المأمـون فوجد ذا

الرياستين جالسًا على الكرسي في الدار، والمأمون في دار أخرى، فلما انتهى إلى موضعه قعد ولم يسلم على ذى الرياستين، وفي يدي ذي الرياستين كتاب يكتبه وهو مقبل عليه فلما فرغ منه التفت إلى هرثمة فقال: مرحبًا وأهلا وسهلا يا أباحاتم، أسعدك الله بمقدمك، وعظم بركته عليك، فلم يرد عليه هرثمة شيئًا، ثم قال: إني قد عرفت أمير المؤمنين أعزه الله خبرك وأن ما حملت نفسك عليه من الدخول بغير إذن لغير معصية منك وصرفت ذلك إلى أحسن الجهات فقبل ذلك ورجع عما سبق إلى قلبه منه فلم يكلمه هرثمة، ثم قام ذو الرياستين فدخل إلى المأمون ثم خرج وقال: يا أبا حاتم، قد عرفت أمير المؤمنين مكانك والحال التي أنت عليها من العلة، وأنه لايمكنك الوصول إليه إلا على الحال التي وصلت عليها إلينا، فلم يكلمه[1].

ثم أذن له المأمون، فدخل عليه، فبره وأقبل عليه، وأمر بأن يطرح له كرسي بجانبه، وأقبل عليه بوجهه يحدثه ويسائله ويدعوه بكنيته، ودخل ذو الرياستين فطرح كرسيه وقعد عليه، قال، فقال المأمون: يا أبا حاتم: ما كان لتجشمك هذا السفر مع علتك معنى، فقال: بلى يا أمير المؤمنين، تجشمته لأقضي حق الله علي في طاعتك، وأنبهك على أمرك، وأقول بالتنصح لك فقال: يا أبا حاتم، ليست بك حاجة إلى هذا وأنت تعب فانصرف إلى منزلك، قال: كلا يا أمير المؤمنين، ماتجشمت طول السفر لأنصرف إلى منزلي، قال: بلى يا أبا حاتم، أحب أن تنصرف إلى منزلك وتدع ذكر ما لا نحتاج إليه، وما أنت عنه غني، قال: لا يا أمير المؤمنين، أو أقضي الحق علي في نصحك، لأني لا آمن أن يحدث علي في هذه الساعة حادثة فألقى ربي مقصرًا في حق إمامي، ثم التفت وقال: «الحمد لله الذى لم يمتني حتى رأيت هذا المجوسي ـ يعني ذا الرياستين ـ في هذا المجلس على كرسي» ثم

1 ـ عبد العزيز محمد اللميلم ـ نفس المرجع ص208.

قال: يا أمير المؤمنين، ما لمسرور وسلام يحبسان من غير ذنب ويأخذ هذا المجوسى أموالهما وأمتعتهما فيبيعها ويمزقها؟ قال له: ياهرثمة، أمنعك عن ذكر ما لا نحتاج إليه، وغضب المأمون، فقال: لا والله أو يدفع إلينا هذا المجوسى فنزل به ما يستحقه، فقال له ذو الرياستين: وما أنت وهذا ياعليج، خذوا برجله وجروه، فتبادر الناس إلى هرثمة، وأخذوا برجله وجروه من بين يدى المأمون، وحبس ثمانية أيام وقتل، ثم أخرج في اليوم الثامن ميتًا في «لبادة» لقد حرص الفضل بن سهل على إخفاء الكثير مما يجرى في الدولة العباسية عن المأمون، فكان لا يسمح لأحد بالدخول على المأمون يتوقع منه أن يدلى بمعلومات حقيقية عما يدور فى الدولة دون علم المأمون إذ يقول ابن طباطبا: كان الفضل بن سهل قد قطع الأخبار عن المأمون، ومتى علم أن أحدًا قد دخل عليه وأعلمه بخبر سعى فى مكروهه وعاقبه، فامتنع الناس من كلام المأمون، فانطوت الأخبار عنه، فلما ثارت الفتنة ببغداد وخلع المأمون، وبويع لإبراهيم بن المهدي، وأنكر العباسيون على المأمون فعله، كتم الفضل بن سهل ذلك عن المأمون مدة.

طويت صفحة ذلك القائد العربى هرثمة الذى أخلص للمأمون ومن قبله الرشيد، وكافح فى سبيل توطيد دعائم حكم العباسيين فى كل من المغرب العربي وخراسان والعراق والأهم من ذلك كله أنه حقق للخليفة المأمون الكثير من الانتصارات ضد أخيه الأمين متعاونًا مع طاهر بن الحسين وذهب ضحية تلك السعاية التى سعى بها الفضل بن سهل لأنه يعرف حقيقة ذلك الرجل، وأنه سيطلع الخليفة على الكثير من الأمور التى أخفاها عنه الفضل والتى سينكشف فيها الفضل أمام المأمون، ولهذا سعى جاهدًا على استئصال شأفته وإيغار صدر الخليفة ضده حتى لايسمع منه أنباء ستكون لها نتائج وخيمة على الفضل فيما إذا عرف المأمون حقيقة الموقف. نعم لقد

صدقت نبوءة ذلك الرجل عندما قال للمأمون: إنني لا آمن أن يحدث على في هذه الساعة حادثة، فلقد حدث ما كان يخشاه إذ كانت عيون الفضل وأعوانه أسرع إلى الرجل، وانتهت حياته بالقتل على يد الفضل بالأسلوب الذي أشار إليه الجهشياري، ولم يكن هرثمة في يوم من الأيام ضد الخليفة المأمون، بل كان يهدف من وراء لقائه بالخليفة أن يطلعه على ما يجرى فى دولته التى خفى عليه الكثير من أحداثه نتيجة لتمويه الفضل على المأمون، وإخفاء الكثير من الحقائق التى غابت عن ذهن الخليفة. ويحسن أن أترك الحديث لمسكويه لتفصيل ما حدث[1]:

إذ يقول عن سبب خروج المأمون من مرو إلى بغداد:

«أخبر الإمام على الرضا عليه السلام المأمون بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قتل الأمين، وبما كان الفضل بن سهل يستره عنه من أخبار الناس، وأن أهل بيته قد نقموا عليه أشياء، وأنهم يقولون: إنه مسحور مجنون، وأنهم لما رأوا ذلك بايعوا عمه إبراهيم بن المهدى فى الخلافة، فقال له المأمون: إنهم ما بايعوه بالخلافة، وإنما صيروه أميرًا يقوم بأمرهم على ما كان أخبره به الفضل، فأعلمه أن الفضل قد كذبه وغشه، وأن الحرب قائمة بين الحسن بن سهل وإبراهيم بن المهدى، وأن الناس ينقمون عليك مكانه، ومكان أخيه، ومكان يحيى من بعدك، فقال: ومن يعلم هذا من أهل عسكرى؟ فقال له: يحيى بن معاذ، وعبدالعزيز بن عمران، فقال له: أدخلهم على حتى أسألهم عما ذكرت، فأدخلهم عليه مع جماعة آخرين فيهم على بن أبى سعيد، وهو ابن أخت الفضل، فسألهم المأمون عما أخبره به على بن موسى الرضا، فأبوا أن يخبروه حتى يجعل لهم الأمان من الفضل بن سهل ألا يعرض لهم، وكتب لكل رجل منهم كتابًا بخطه ودفعه إليهم، فأخبروه بما فيه الناس من الفتن،

---

1 ـ عبد العزيز محمد اللميلم ـ نفس المرجع ص210.

وأخبروه بـغضب أهل بيته ومـواليهم وقواده في أشيـاء كثيرة، وبما مـوه عليه الفضل من أمر هرثمة، وأن هرثمة إنما جاء لـنصحه وليس له ما يعمل عليه، وأنه إن لم يتدارك أمـره خرجت الخلافة منه ومن أهل بيـته، وأن الفضل دس إلى هرثمة من قتـله حين أراد نصح الخليفة، وأن طاهراً بن الحـسين قد أبلى في طاعته مـا أبلى وافتتح له ما افتـتح، وقاد إليه الخلافة مذمـومة، حتى إذا وطأ له الأمر أخـرج من ذلك كله، وصير في زاوية من الأرض بالرقـة، وقد حظرت عليه الأموال حتى ضعف أمره، وشغب عليه الجند، ولو أنه كان على خلافتك ببغداد لضبط الملك، ولم يجتـرأ عليه بمثل ما اجترئ على الحسن بن سهل، وأن الدنيا قـد تفتقت من أقطارها، وأن طاهراً بن الحسـين قد تنوسى في هذه السنين مـنذ قتل مـحـمـد بالرقة لا يـستـعـان به في شيء من هذه الحـروب، وسألوا المأمـون الخروج إلى بغـداد وقـالوا: إن بني هاشم والموالي والقواد لو قد رأوا غرتك سكنوا، ونخعوا بالطاعة لك، قال:

فلمـا تحقق ذلك عنده أمـر بالرحيل إلى بغـداد، فلما أمـر بذلك علم الفضل ببعض أمرهم، فتعنتهم حتى ضـرب بعضهم بالسياط، وحبس بعضاً، ونتف لحى بعض. فعاود الإمام علي الرضا عليه السلام المأمون في أمرهم، وأعلمه ما كان من ضمـانه لهم، فقال له: إني أداري أمري، وسأبلغ مـا فيه الصلاح بمشيئة الله، ثم ارتحل من مرو، فلمـا أتى سرخس شد قوم على الفضل وهو في الحمام فضـربوه بالسـيوف حتى مات، وذلك يوم الجمعـة لليلتين خلتا من شعبـان عام 202هـ، وقد قـتله أربعة أنفـار من حشم المأمـون وهم: غالب الأسود المسعودي، وقسطنطين الرومي، وفرج الديلمي، وموفق العقيلي.

ورأينا أن المشـارقـة أرادوا أن يكون لهـم مـركزاً في الدولة وأن يكون السلطان في أيديهم، حاولوا ذلك أولا قـاصدين جعل الخليفـة العباسي تحت سلطانهم، فساعدوا العباسيين على الاستيلاء على الحكم ووزروا لهم، وتولوا

أمورهم؛ لكن العباسيين لم يشاؤوا أن يستسلموا للمشارقة فكانوا من حين إلى آخر يقتلون وزراءهم المشارقة، وينكلون بهم؛ إن جل ما استطاع المشارقة الوصول إليه هو الإشراف على المرافق الأساسية للدولة، لكن إشرافهم هذا كان يضطرب مع نكبة وزرائهم، فيتقلص نفوذهم إلى حين وكانت آخر محاولة حاولوها هي الالتفاف حول المأمون والتأثير عليه، فقد ظنوا أن الأمر استتب لهم معه؛ لكنه كان كأمثاله من الخلفاء العباسيين، ضربهم ضربة قضت على نفوذهم، ولو أنه مالأهم في ظواهر الأمور على عادته، وانتهى الأمر بالمضارقة إلى أن فكروا أنه لا مخالفة لهم مع العباسيين. وأنهم إن حالفوهم فلن يصلوا إلى شيء كبير، وستكون القضية معهم شخصية، يستفيد الوزير منها إلى حين؛ ففكروا ووصلوا إلى قرار: هو أن يستقلوا عن الحكم العباسي شيئًا فشيئًا، فساروا في هذا الطريق، وتشكلت الدولة الطاهرية في خراسان، وتبعتها دول مشرقية أخرى[1].

وقتل الفضل وله ستون سنة، فهرب الأربعة وجعل المأمون لمن يجيء بهم عشرة آلاف دينار، فجيء بهم، فسألهم المأمون، فقال بعضهم: إن عليا بن أبي سعيد بن أخت الفضل بن سهل دسهم، وقيل: إنهم قالوا للمأمون: أنت أمرتنا بذلك، فأمر المأمون بقتلهم فضربت أعناقهم، وقد جعل المأمون مكان الفضل أخاه الحسن ويبدو أن غالب المسعودي كان زعيم تلك المؤامرة بدليل ما أشار إليه اليعقوبي إذ يقول: «دخل غالب الرومي صاحب ركاب المأمون على الفضل بن سهل، فقال له الفضل: لك مائة ألف دينار فقال: ليس بأوان تملق ولا رشوة وقتله» والذي يعنينا من ذلك كله إنما هو محاولة زعيم المشارقة في ذلك الوقت «الفضل بن سهل» السيطرة على الخليفة نفسه، وعلى جميع مقاليد الحكم في الدولة، فأوغر صدور كثيرين مما دفع بالإمام

1 - يوسف العشي - المرجع السابق ص99.

على الرضا عليه السلام أن يذكر للخليفة تفاصيل كل الأحداث التى اقترفها الفضل، وحينما عاد الإمام على الرضا عليه السلام إلى الخليفة مخبراً إياه ماتم على يد الفضل من تعذيب لمن أعطاهم المأمون الأمان مقابل أن يبوحوا بما لديهم من أسرار قال: أنى أدارى أمرى وسأبلغ ما فيه الصلاح بمشيئة الله، مما يفرض وضع علامة استفهام كبيرة على نهاية الفضل، بل وغيه ممن تخلص منهم المأمون إبان تلك الفترة أمثال الإمام على الرضا عليه السلام، فقد قيل بأن المأمون دبر أمر قتله «أى الرضا». ومما يثير الشكوك حول مقتله ما أشار إليه البعض من أن المأمون كتب لأهل بغداد حينما خلعوه وولوا عليهم إبراهيم بن المهدى مخبراً إياهم بموت الإمام على الرضا عليه السلام قائلا: إنما نقمتم على بسببه وقد مات[1].

ومما قاله البعض من المؤرخين عن تسلط آل سهل على الخلافة إبان وجود الخليفة المأمون فى «مرو»: «كانت دولتهم فى جبهة الدهر غرة، وفى مفرق العصر درة، وكانت مختصر الدولة البرمكية، وهم صنائع البرامكة» ومما يثير الشكوك فى إخلاص الفضل للعباسيين ما أشار إليه ابن طباطبا أيضاً إذ يقول: قال مؤدب المأمون للفضل بن سهل أيام الرشيد: إن المأمون لجميل الرأى فيك، وإنى لا أستبعد أن يحصل لك من جهته ألف ألف درهم، فاغتاظ الفضل وقال: والله ما صحبته لأكتسب منه مالا قل أو جل، ولكن صحبته ليمضى حكم خاتمى هذا فى الشرق والغرب، قال: فو الله ما طالت المدة حتى بلغ ما أمل. ويضيف الجهشيارى قائلا: ما صحبت هذا الأمير لأكسب معه مالا قل أو كثر، وإن همتى لتتجاوز كل مايجوز أن يملك، وأخرج خاتمة من يده ثم قال: ليجوز طابع هذا فى الشرق والغرب، لهذا خدمته، ولهذا صحبته، فما طالت المدة حتى بلغ الأمل، وقد بلغ من نفوذ

1 ـ عبد العزيز محمد النميلم ـ المرجع السابق ص212 وانظر: أبو الفداء/ المختصر فى أخبار البشر جـ3 ص32.

الفضل وأخيه الحسن أن عمل كل منهما على ضرب دينار له صفته الرسمية دون ذكر اسم الخليفة عليه، لإبراز كيانهما، وليس بالأمر الغريب أن تكون نهاية الفضل كنهاية البرامكة وهو القتل على أيدى أربعة من أعوان المأمون بسرخس بعد أن شعر الخليفة بأن الفضل قد خرج عن إرادته، وتحرك نحو أهداف بعيدة عن سياسته. ويقول آخر: «تخلص المأمون من وزير منافق (يقصد الفضل بن سهل) اشتهر بالمكر والخديعة، واستطاع بأساليبه أن يسيطر على الدولة العباسية أربع سنوات كاد فى نهايتها أن يجرها إلى الخراب ومعها سيده ومولاه[1].

إن كثيرا من الوقائع السياسية والظواهر الاجتماعية كانت تتكرر بشكل أو بآخر، رغم أننا لسنا مع القول بأن التاريخ يعيد نفسه، فكل ظاهرة وكل حادثة تختلف عن سابقتها المشابهة لها، أو لاحقتها. غير أن ما يثير الانتباه، التشابه فى الوقائع، ولا بد أن يكون لذلك التشابه دلالته المفيدة فى كشف حقائق الصراع وملابساته. إن الباحث فى التاريخ السياسى العباسى، يستغرب التحويلات السياسية المفاجئة التى تعترضه خلال استعراضه الوقائع والمواقف. فقد أصبح من العادة تحول القادة البارزين فى ثورة أو حركة أو حزب أو تيار إلى أعداء بارزين لها مستقلين عنها، وهذا ما عرف بـ (أكل الثورة أبناءها)، وتكون نهايتهم مأساوية. على سبيل المثال نرى أنه يمثل تحول أبى مسلم الخراسانى من خادم أمين للثورة العباسية إلى عدو لدود ومنافس خطير، يمثل ما نرى قائد المأمون على خراسان، إلى معارض قوى للمأمون عندما أسقط اسمه من خطبه ولمح إلى بغيه وجوره متذرا بالاستقلال. أما الظاهرة الأخرى

---

1 ـ عبد العزيز محمد اللميلم ـ نفس المرجع ص213 وانظر: الفخرى فى الآداب السلطانية ص220.

التي لاحظنا أنها كانت تتكرر بين فترة وأخرى، فهي تلك العهود في تولية الخلافة، حينما أصبح الخليفة بعد غياب سلفه، يسندها لمن يشاء من أبنائه ومقربيه[1].

والحقيقة أن ذلك على أهميته، ليس بالأمر الغريب فحينما يكون الحكم فرديا استبداديا فإنه يكون عرضة للمفاجآة وتجاوز أعراف الدولة وقوانينها، أما بالنسبة لخروج قادة الحركات عن أهدافهم وابتعادهم عن حلفائهم، فإنه محكوم بمدى التطبيق والممارسة لأهداف تلك الحركات بعد تحقيق نصرها السياسي على خصومها، ولعل سيطرة النزعة الفردية والتعلق بمباهج السلطان وأمجاد الانتصار، في إطار ضعف الرقابة والتنظيم، كانت الأسباب الكامنة وراء تلك المفاجآت. ولا يفوتنا الانتباه إلى أن الصراع الذي دار بين الأخوين ومن وراءهما كان يشوبه الالتباس والتداخل في جوهر التكتلات. يدل على ذلك موقف الشخصيات المشرقية من تأييد كلا الاتجاهين. إذ شمل الاتجاه العباسي (الأمين) وجوها مشرقية بارزة كالفضل بن الربيع وعلي بن عيسى بن ماهان، وهما مشرقيان، كما شمل الاتجاه الخراساني المشرقي (المأمون) وجوها عربية بارزة كطاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين إلى جانب الوجوه المشرقية من أمثال الفضل بن سهل وغيره. هكذا نستنتج أن الصراع بين الطرفين كان قائما على المصالح المادية والسياسية أكثر من قيامه على العصبية. بل ربما كان الأساس العصبي ـ رغم حرص الطرفين على استبعاده ـ يستخدم كوسيلة لكسب الأصدقاء والمشايعين، ويظهر ذلك من خلال التشبث بمناطق النفوذ وظهور كلا الطرفين بمظهر المدافع عن الرعية. وقد استمرت العصبية المشرقية في محاولات السيطرة والظهور بمظهر القوة بعد الضربات القوية التي تلقتها

---

1 ـ د. محمد نجيب أبو طالب ـ المرجع السابق ص160.

في المستوى السياسي. واتخذ ذلك شكل ردة الفعل المتحدية، يقول أحد الشعراء من المشرق الإسلامي وهو من ندماء المتوكل[1]:

أنا ابن الأكارم من نسل جم   وحائز إرث ملوك العجم
ومحيي إلى باد من عزهم   وعفى عليه طوال القدم
وطالب أوتارهم جهرة   فمن نام عن حقهم لم أنم
معي علم الكابان الذي   به ارتجي أن أسود الأمم
فقل لبني هاشم أجمعين   هلموا إلى الخلع قبل الندم
ملكناكم عنوة بالرما   ح طعنا وضربا، بسيف خذم
وأولاكم الملك آباؤنا   فما أن وفيتم بشكر النعم
فعودوا إلى أرضكم بالحجاز   لأكل الضباب، ورعي الغنم
فإني سأعلوا سرير الملك   بحد الحسام، وصوف القلم

ولكن ذلك الاتجاه لم تصدق توعداته وآماله، لأن العباسيين بدؤا في البحث عن حلفاء جدد وبدؤوا يسدلون الستار على الدور الفارسي في حكمهم.

وأخيراً فقد عرف الخليفة المأمون ما كان يهدف إليه الفضل بن سهل من محاولة الاستحواذ على السلطة الفعلية في البلاد، كما أدرك في نفس الوقت حقيقة ذلك السياج الحديدي الذي فرضه عليه الفضل، وتبينت للخليفة جوانب تلك السياسة التي سار عليها الفضل، والتي كانت في مجملها تتعارض مع مصالح الخليفة والخلافة. تلك السياسة التي كان من نتائجها ـ

1 ـ د. محمد نجيب أبو طالب ـ نفس المرجع ص161 وانظر أمين أحمد ـ ضحى الإسلام ـ ص65.

بعد علم المأمــون بما كان يدور حوله ـ أن قـرر الرحيل إلى بغداد، مصطحبـًا معه الفضل بن سهل، وولى العهد الإمام على الرضا ﷺ، وجميع الحاشية. وفى الطريق يتم التخلص من كل من : الفضل بن سهل، والإمام على الرضا ﷺ بالصورة التى تحـدثت عنها سابقـًا. وبهذا تتأكـد للخليفة المأمــون ـ بعد تركه «مرو» ووصوله إلى بغداد وفرار إبراهيم بن المهدى منها ـ سلطته الفعلية، بعد أن تخلص من ذلك الكابوس الذى كان يقض مضجعه كلما نام أو انتبه ـ أقصــد الفضل بن ســهل ـ وعادت الأوضــاع فى الدولة العبـاسية إلــى سابق عهــدها. كل هذا أوضح للخليـفة المأمـون صدق تلك الشكوك التى حـامت حول رجالات المشرق والتى أثارها أسلاف المأمون، وتأكدت له فيما بعد على الواقع يقول البـعض: وقد أكدت سـياسة بنى ســهل للخليفـة المأمون شكوك أسلافه فى ولاء الأرستقراطية المشرقية فنكل بهم. وبذلك فشلت آخر محاولة للتعاون الوثيق بين العـباسيين وبين أرستقراطيـة المشرقيين، وأصبح كل منهم يخشى الآخر. ثم إن رجـوع المأمون إلى بغداد، واقتفاءه خطة أسـلافه خيب أمل جماهير المشرق فى إحياء العـدل الذى وعد به العباسيون، ولذلك حصل بعض الوئام بين مصلحة الأرستقراطية المشرقية ومصلحة الجماهير ضد السيادة العباسية. كل هذه الأحداث التى جرت فى السنوات الأولى من خلافة المأمون والتى كان للفضل بن سهل القدح المعلى فى تصريف شؤون الدولة، بالإضافة إلى ما يتـعلق بتولية الإمـام على الرضا ﷺ ولاية العهد والتـى كان للفضل دور كبير بمشورته للخليفة بتولية الإمام على الرضا ﷺ[1].

---

1 ـ عبد العزيز محـمد اللميلم ـ المرجع السـابق ص215 وانظر الدورى/ دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص107.

العصبية التركية في الإدارة العباسية:

لم يكن للحاكم العباسي إذا حليف قوي يستند عليه في تمكين سلطانه، والمأمون في الدور الثاني من عهده استطاع أن يمكن ذلك السلطان بدهائه وقوته وحسن تفكيره. أما المعتصم الذي حل بعده فلم يستطع أن يفعل شيئًا من ذلك، وقد خيل إليه أنه سيكون في مهرب الريح إن بقي بعيدًا عن التحالف، وكان ابن أم تركية، فوجد حلفاءه الطبيعيين بين الأتراك، فاتخذهم خدمًا له وعبيدًا وجيشًا وقوادا. وهنا ندخل في دور جديد من أدوار الخلافة العباسية، وعلينا أن نبحث قليلا في الأتراك، فهم عنصر كان في ذلك العهد قوي الشكيمة كل القوة، وكانوا متمرنين على أعمال الغزو، وعلى ركوب الخيل، وعلى الأسلحة والفروسية. أصلهم من شمالي وغربي الصين، أتوا إلى ما وراء النهر، فكانت لهم حصونهم وقلاعهم، وقد أتوا إليها للكسب مهاجرين من الأمكنة التي لا يستطيعون أن يعيشوا فيها. هؤلاء الأتراك لم يكونوا مثقفين أبدًا؛ بل كانوا شبه أميين وكانت مقدرتهم الفكرية ضعيفة، ولم يكونوا متحضرين كما كان العرب والفرس، وجل شأنهم السلاح والمقدرة الحربية، فظن المعتصم أنهم محالفون غير خطرين، فاستقدمهم وأكثر من شرائهم، وأرسل في طلبهم، حتى كان له - على ما يقال - سبعون ألف فارس تركي في خدمته. وهكذا تخيل المعتصم أنه ركز قوته على عنصر مهم، وأن الأمر سيستقيم له بهذا العنصر. وكان المعتصم قوي الشكيمة، قوي الجسم قوة هائلة، بحيث كان يحمل الأرطال الهائلة، وكان يقاتل بأحسن أنواع القتال، وكان يمسك بالعود من الحديد، فيثنيه مرات إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة التي اشتهر بها في ميدان القوة. كان يحب الترك لقوتهم أيضًا، لكنه لم يكن يدع لهم مجالا في السيطرة عليه، وبقي هو المسيطر عليهم، إنما هم عنده عبيد وخدم؛ غير أنه شعر بخطرهم عندما أخذ أهل

بغداد يتذمرون منهم، فقد كانوا ينزلون بخيولهم إلى الأسواق فيطؤون الصبيان والعجزة، فيثور عليهم العامة، ويقتلون منهم، ويذهب دم المقتولين هدراً. زاد استياء الناس منهم حتى وجد المعتصم أن الحالة لايمكن أن تستمر ففكر وأدى به تفكيره إلى أمر خطير وهو أنه رأى أن من واجبه أن ينتقل من بغداد إلى مدينة أخرى يقر فيها أتباعه، فيكون قد أبعد جنده عن كافة الناس وتحصن هو من العلويين[1].

والمسألة التي أعارها المعتصم اهتمامه الكبير هي مسألة اقتنائه الجنود الأتراك وجلبهم من أقاليم ما وراء النهر - جيحون - وخاصة بلاد «سمرقند» و«فرغان» و«أشروسنة» و«الشاش» و«خوارزم». والذي جعل المعتصم يفكر في جعل جيشه منهم هو: أن الأتراك في تلك النواحي اتصفوا بالشجاعة والقوة البدنية فضلا عن جمال الصورة. إن المعتصم نفسه جندي قوي شجاع. إن جنود الأبناء لم يعد يوثق بهم لكثرة اضطرابهم وتقلبهم لهذه الأسباب عني المعتصم باستحضار هؤلاء الأتراك، إما عن طريق الشراء، وإما عن طريق الأسر في الحروب، أو عن طريق الهدايا التي اعتاد أن يقدمها له - على شكل رقيق أبيض - ولاة تلك الأقاليم. وهكذا أسكن المعتصم جنوده الأتراك بغداد، واستغنى عن الجنود العرب وأسقطهم من كافة الدواوين، بحيث لم يبق مرتزق لعهده إلا من كان من الأتراك أو الأبناء. واستخدم المعتصم قوماً من حوف اليمن وسماهم المغاربة امتاز الجنود الأتراك بزيهم عن سائر جند المعتصم، ورفع من قدرهم حتى صار بأيديهم مستقبل الخلافة، واصطنع منهم قواداً بلغوا درجة كبيرة من النفوذ وعلو الكلمة في الدولة، من مثل: الأفشين الذي قضى على ثورة بابك الخرمي، فكافأه المعتصم باستقباله أفضل استقبال وتخصيصه في كل يوم بفرس وخلعة ووشاحين بالجواهر حتى أصابه الغرور

---

1 - د. يوسف العش - المرجع السابق ص101.

وحدثه نفسه بالاستقلال ببلاده «أشروسنة» عن المعتصم الذى أحس بمؤامرته، فقبض عليه وحبسه إلى أن مات. ومن القواد الأتراك الذين بلغوا مرتبة رفيعة فى عهد المعتصم «إيتاخ» الذى استمر على مكانته طوال عهد المعتصم إلى أن قتل أوائل عهد الواثق على يد أحد رجال جعفر الكردى الذين قاموا بثورتهم ضد المعتصم فى عام 227هـ الموافق 841م. وأشناس الذى بلغ هو الآخر مكانة عالية عند المعتصم حتى أجلسه على كرسى، وتوجه وبقى فى عهد الواثق على مكانته هذه حتى توفى عام 230هـ الموافق 844م[1].

التخلص من الافشين:

فشلت مؤامرة العرب ضد الترك إذن وانتصر الأفشين على أعداء الخليفة مرة أخرى إلا أن المعتصم تنبه إلى عظم شأن قائده. وكما هو المعتاد سيلقى الأفشين من الخليفة مالاقاه عظام القواد الذين أدوا خدمات كبيرة للأسرة العباسية منذ قيام خلافة بغداد. وكان من السهل على الخليفة التخلص من رجل الدولة حسب الطريقة التقليدية بأن توجه إليه تهمة المروق عن الدين أو الزندقة، كما كان من السهل أن توجه إليه تهم القيام بنشاط سياسى معاد للخلافة. وتبرع أعداء القائد بعدد من هذه الاتهامات: اتهمه عبد الله بن طاهر بأنه كان يوجه هدايا أهل «أذربيجان» و«أرمينية» إلى موطنه الأصلى «أشروسنه»، كما اتهم بالتواطؤ مع مازيار (ملك طبرستان)، ومكاتبته وكذلك تشجيع قائده منكجور على الثورة وغير ذلك من التهم مثل تدبير قتل المعتصم. أما عن التهمة الرئيسية والتقليدية التى اتهم بها الرجل وهى الزندقة فرغم أن المعتصم كان أميا تقريبا (كان يقرأ بصعوبة) فإنه اهتم - حسب وصية أخيه المأمون - بالحالة الروحية لرعاياه، واستمر فى الأخذ برأى المعتزلة بخلق القرآن، وامتحن الفقهاء بذلك. وكان نصيب أحمد بن حنبل الشىء الكثير

1 - د. إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص94 وانظر مروج الذهب 476/3 والسيوطى ص336.

من الجلد والتعـذيب. أما الأفشـين فبعد القـبض عليه يتكون من محـمد بن عبـدالملك الزيات وزير المعتـصم، ابن أبي داود، إسحق ابن إبراهـيم صاحب الزنادقـة أيام المأمون، وغـيرهم من الأعـيـان. هذا المجلس وجه إليـه تهمـا أخرى، منها: أنه ضرب مـؤذنا وإماما أقاما مسجـدا «بأشروسنة»، ورد المتهم على ذلك بأن معاهدة بينه وبين ملك الصغـد اشترطت أن يترك كل قوم على دينهم وأن الرجلين وثبا علـى بيت للأصنام وحولاه إلى مسجـد. ثم وجهت إليه تهمة ثانية هي حيازة كتاب محلى بالذهب والجواهر فيه الكفر بالله، ورد الأفشين بأنه ورث هذا الكتاب الذى يحوى آداب العجم وكفرا وأنه كان يأخذ منه الآداب ويترك الكفر. وتقدم بعض الشهـود من مواطنى المتهم ينسبون إليه كراهية كل ما يفـعله المسلمون وكذلك عدم الاختتان، ورد الأفـشين بتجريح الشاهد لأنه ليس ثقة في دينه، ولكنه لم ينكر عدم الاختتان واعتذر بخوفه أن يموت لو فعل[1].

وجهت إليه تهمة أن أهل «أشروسنة»، بلده، كانوا يكتبون إليه «إلى إله الآلهة من عـبده فلان بن فلان». «فـقال: كانت هذه عـادتهم لأبى وجدى، فلما دخلت فى الإسلام كرهت أن أضع نفسى دونهم فتفسد على طاعتهم».

وأخيـرا اتهم بأن الغرض من نشاطـه السياسى المعـادى مع «مازيار» ثم «مكنجور» إنما هو إعادة دينه إلى مـا كان عليه أيام العجم. وانتهت المحـاكمة بإدانته فرد إلى السجن، وفشلت محـاولاته فى استعطاف الخليفة إذ كتب إلى المعتصم يقـول مثلى ومثل أمير المؤمـنين كرجل ربى عملا حتى أسـمنه وكبر وكان له أصحاب يشـتهون أن يأكلون من لحمه». ومات الأفـشين فى السجن بعد قـليل جوعـا؟ ثم أخرج وصلبـه وأحرق بالنار فى شعبـان عام 226هـ. وبذلك تمكن الخليفة من التخلـص من رئيس الحرس التركى فى أول حلقة من

1 ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص150.

سلسلة الصراع بين الخلافة وقوادها الأتراك. ويبدأ هذا الصراع بلخصه ما ينسب إلى المعتصم من أنه قال لأحد رجاله: «اصطنع أخي المأمون أربعة فأفلحوا: طاهر بن الحسين، وعبد الله بن طاهر، وإسحق بن إبراهيم، وأخوه محمد بن إبراهيم، اصطنعت أربعة فلم يفلح أحد منهم: الأفشين، وأشناس، وإيتاخ، ووصيف، فقيل له نظر أخوك إلى لا أصول فاستعملها فأنجبت واستعمل أمير المؤمنين فروعا فلم تنجب إذ لا أصول لها. هذا النص يعبر عن فكرة الصراع بين الترك من جهة والخراسان والعرب من جهة أخرى وهو يتحيز لجانب الأخيرين ضد الترك، والحقيقة أن الخلافة العباسية كانت قد تدهورت إلى حد كبير فانحطت هيبتها إلى درجة لم يعرف لها نظير من قبل. فبعد أن فقدت العرب وشكت في درايا الخرسان وجدت نفسها وحيدة أمام استبداد الترك فانطوت على نفسها ووقفت موقف المتفرج تنظر إلى الصراع بين المتغلبين على أملاكها وتيارك المتصرين منهم فإلى جانب الطاهريين في خراسان سيظهر الصفاريون، وفي ما وراء النهر سيقوم العثمانيون ثم يأتي الغزنويون ويتبعهم الغوريون. وبطبيعة الحال كان المشرق مسرحا لحوادث دامية عند اضمحلال كل أسرة منها وقيام أسرة جديدة. لم تكن القوة المنتصرة ترث أملاك سابقتها في المشرق فقط بل كانت ترث أيضا نفوذها وسلطانها في بغداد. أما عن الخلافة فتكون قد انتهت فعلا بعزل المقتدر على مهدي أمير الأمراء ثم بتغلب البويهيين على الديلم والأذربيجان الشيعة وفرض وصايتهم على الخليفة مما سيمهد لمجئ ترك السلاجقة(1).

سياسة المتوكل المناهضة للترك:

جاء المتوكل إلى الخلافة فوجد أن الأمر على ما وصفنا، حاول أن يوقف ذلك التيار، ووضع خطة لذلك، وظن أنه قادر على تنفيذها، ذلك أنه

---

1 ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص151.

أبعد نفسه عن الأتراك، ويبحث عن حليف جديد، فوجد حليفه في أهل العراق من أهل بغداد. وأهل بغداد ـ كما قلنا ـ عرب أكثرهم سنيون، ولا يقبلون بالاعتزال، فكان على الخليفة المتوكل أن يحارب الاعتزال ليرضيهم، فضرب الاعتزال ضربة شديدة، وأطلق المسجونين من أهل السنة الذين كانوا قد أوقفوا لعدم قولهم بخلق القرآن، وأطلق سراحهم وقربهم إليه وأبعد المعتزلة واضطهدهم، بل كان يشترط في فداء الأسرى للمحجوزين عند الروم أن يقر الأسير بأن القرآن غير مخلوق، وأن يقر بمخالفته لأهل العدل والتوحيد. وأن المعتزلة كانوا ميالين إلى الفكرة العلوية. حارب المتوكل تلك الفكرة بمحاربته المعتزلة، واضطهد آل البيت من العلويين أحفاد الرسول محمد ﷺ باضطهاده للمعتزلة، وتشدد وتزمت في تعصبه للدين، واضطهد أهل الذمة اضطهاداً شديدا وهدم كنائسهم المحدثة، وأبعدهم عن دواوينه، ولم يقبل بتعيين أحد منهم فيها، وفرقه عن الشعب والمسلمين، فجعلهم لايركبون إلا البراذين والبغال، دون الحمير والخيول، وألزمهم بأن يضعوا على أبواب بيوتهم صوراً وتماثيل للشياطين، وألزمهم بأن يقتصروا على السروج الخشبية. وهكذا ضيق عليهم كل التضييق، وهو في ذلك يحاول أن يتقرب من عامة الناس الذين كانوا يضيقون صدرا بأهل الذمة. قرب المتوكل التجار والصناع والفلاحين وأغدق عليهم الأموال، وأراد إصلاح الأرض وإجراء الأقنية، بل تقرب من الناس بشيء عزيز على نفوسهم، هو أنه أجل أخذ الخراج المفروض على المزروعات إلى ما بعد نضج الثمر، لكن هذا الإصلاح لم يدم، فقد عاجلته المنية قبل تنفيذه فالمتوكل إذا تقرب من الشعب، وجعل الشعب حليفة، وحالف أيضاً العرب، بل إنه استقدم إلى بغداد من العرب عدداً كبيراً، أدخلهم في جيشه أو بالأحرى في جيش ابنه المعتز، وقصد أن يرجح بهم على كفة الأتراك. كل هذا ليقف أمام الأتراك وليضربهم. حاول أيضا أن

يوقع بين الأتراك أنفسهم، فجعلهم يتفرقون شيعًا وأحزابًا، وضرب بعضهم ببعض، بل ضرب أحدهم ضربة شديدة. بعد أن تمكن من الأمر، وهو «أيتاخ» فإنه حسن له أن يذهب إلى الحج، ولما سار إلى الحج عين بغا مكانه، ولما رجع إلى بغداد ألقى القبض عليه، وسجنه وبقي في السجن إلى أن مات[1].

ثم إن المتوكل أراد أن يبتعد كل البعد عن الأتراك، وأن يسيطر عليهم من بعيد. فنقل عاصمته إلى دمشق بين العرب وأقام فيها؛ واتخذ حزبه من أهلها. غير أنه لم يفلح في هذا، فالأتراك ثاروا عليه في العراق وطالبوا بأرزاقهم، وكادت تحصل فتنة لولا أن «بغا» وقف إلى جانبه، وأصلح الأمور. ووجد المتوكل أنه أطلق زمام الأمر في العراق إلى الأتراك، ولبث بعيدًا عنهم؛ فعاد إليهم ليراقبهم منها، لكنه لم يرض بأن يعود إلى سامراء، وأن يكون رهينة بين أيديهم، بل عمر مدينة لنفسه قريبة من سامراء وسماها باسمه المتوكلية، وأقام فيها جنده وحاشيته بكل ذلك تخيل المتوكل أنه يستطيع القضاء على سلطان الأتراك، وهو ما كان باستطاعته أن يقضي عليهم قضاء نهائيًا؛ لأنهم كانوا في جدران عاصمته بالذات، وكانوا أقوياء، وكانوا ينتظرون منه الخطأ القليل لينقضوا عليه. أخطأ هو كما أخطأ من سبقه كالواثق والمعتصم فبدد أموال الدولة ببناء القصور وإكمال بناء سامراء وبناء المتوكلية حتى أنه كان يعجز بعض العجز عن تأدية أعطياتهم. وجد الأتراك عندئذ أن مصلحتهم أن يجتمعوا بعد أن يكون المتوكل قد فرقهم، ويتألبوا عليه بعد أن يكون قد ظن أنه أوقع بهم في الخصام. ثم أخطأ خطأ كبيرًا، ففعل كما فعل جده الرشيد، وعهد بولاية العهد من بعده لأبنائه الثلاثة القصر الصغار، واحد بعد الآخر: المنتصر فالمعتز فالمؤيد. وقسم الدولة بينهم، وأعطى المنتصر

1 ـ د. يوسف العشي ـ المرجع السابق ص106.

أكبرهم حصة الأسد. وهكذا أوقع أولاده في الخلاف فيما بينهم، وسار هو بعد ذلك مع ميوله وعاطفته، فوقف إلى جانب المعتز، وصار يغدق عليه الأموال، وأهمل ابنه المنتصر، وعهد للمعتز بخزن بيوت الأموال ودور الضرب، وكان يتهكم على المنتصر ويستبعده، فاضطرب المنتصر لذلك، ووجد الأتراك بغيتهم فتقربوا إلى المنتصر، وتحالفوا معه، وأوغروا صدره على والده؛ وكان موغراً قبل ذلك؛ ولما تبين لهم أن المتوكل يريد أن يقتل «وصيفا» و«بغا» وهما رئيساهم المفضلان، تجمعوا له وأقبلوا على المنتصر يحرضونه على والده، وساروا إلى المتوكل جميعًا، فوجدوه يشرب، فقتلوه وهو على مائدة الشراب. وهكذا أصبح الأتراك قتلة الخلفاء. وأصبح الخلفاء يخشون شرهم ومن أتى من الخلفاء من بعد ذلك ساروا حسب إرادتهم، وانضموا إلى لوائهم، فلم يجد ما فعله المتوكل معهم، ولم تنفعه شخصيته القوية ومهارته وحكمته لأنهم قد تمكنوا في العراق، وأصبحوا أصحاب الأمر فيه[1].

العصبية التركية:

لقد كان الاعتماد على عصبية مؤيدة يعتبر الإجراء الوحيد الذي يلجأ إليه الخلفاء في حالات الخطر التي تهدد سلطانهم. وجرت العادة أن يكون الاختيار منصبا على عصبية ناهضة قوية لم تضعفها الأهواء. هذا ما فعله المعتصم (أخو المأمون) عندما أوكلت له الخلافة، خيل إليه أنه سيكون في مهرب الريح إذا لم يدخل سياسة الأحلاف. فكان أن اعتمد على الأتراك الذين بؤوا يحتلون مكانة مهمة في جيش الخلافة. وزاده تصميما على ذلك الموقف نسب أمه التركي. غير أن إعجاب المعتصم بقوة الأتراك ونقاء عصبيتهم واعتماده عليهم في قيادة الجيش ومحاربة خصومه، كان يجلب له بعض المتاعب. فقد كان سكان بغداد يتذمرون منهم ويتصادمون معهم نتيجة

1 ـ د. يوسف العشي ـ نفس المرجع ص107.

تصرفات الجند الفوضوية ونهبهم الأسواق واعتدائهم على الأخلاق العامة ـ ويبدو أنهم لم يريدوا أن تتكرر معهم نتائج الصراع بين الأمين والمأمون. عند ذلك قام الخليفة بنقل مقر إقامته، وجنده، وحراسه، إلى خارج بغداد حيث بنى مدينة (سامراء) التى سميت (سر من رأى). وكان ذلك الإجراء يمثل تحولا كبيرا فى سياسة الدولة، ويؤكد تصميم الخلافة العباسية على استبدال ـ حلفاءها جدد لا يمتلكون شيئا سوى القدرة على قهر الجيوش وقمع الحركات مقابل رعاية فائقة وأموال طائلة لم تتوفر للأتراك من قبل. وكانت انتفاضة بابك الخرمي قد بدأت منذ عصر المأمون، ولما جاء المعتصم استفحل أمرها فكان بحاجة إلى جيش قوى يقمعها، خاصة إذا عرفنا أن بقايا الجند الخراسانى كانوا يتعاطفون مع الحركات المناوئة للسلطة العباسية فى بلادهم. أما على المستوى الاجتماعي فقد تجسد ذلك التحول فى إقطاع قادة الجند الأتراك أراض حول العاصمة الجديدة بنوا فيها القصور وحطوا عليها الرحال. فتوطد استقرارهم وتفردوا بالخليفة. وقد ظهر ذلك بشكل أوضح فى عهد الخلفاء الذين عقبوا المعتصم حينما أصبح الأتراك الحكام الحقيقيين يولون ويعزلون من يشاؤون وجدير بالذكر أن «الاعتزال» كان الفكر الرسمى للدولة فى عهد المأمون والمعتصم والواثق ولما جاء المتوكل رأى أن سلفه قد فرط فى الخلافة فكادت تخرج من بنى العباس، ورأى أن يحد من تدخل الأتراك باعتماده على أهل بغداد كحلفاء ومعروف أن أهل بغداد، آنذاك، كانوا سنيين يتبعون الإمام الأشعرى، وهو اتجاه يعرف برفضه لفكر المعتزلة. يقول (ميتز): «خرج الأشعرى على المعتزلة حوالى آخر القرن الثالث، بعد أن كان منهم، وبدأ يحاربهم بسلاحهم وعلى هذا نشأ فى القرن الرابع الهجرى المذهب الكلامى الرسمى القائم على العلم والنظر العقلي، وكان مذهب الأشعرى مذهبا توفيقيا». ويكون مذهب الأشاعرة اتجاه أهل السنة، أما الذين عادوا

الأشعرى ولـم يعتبروه ممثـلا لأهل السنة لآرائه السابقة فى الاعتـزال فهم لم يتعدوا نفرا من أصحاب الحديث القدماء[1].

ويمثل اضطهاد المعتزلة (القـدريون) لأهل السنة فى مرحلة المأمـون كان اضطهاد الأشاعرة (السنيون) للمعـتزلة فى مرحلة المتوكل ومن تلاه. ونجد مرة أخرى أن الأحداث تتشابه حينما عـهد المتوكل بولاية العهد إلى أبنائه الصغار (المنتصـر، فالمعتـز، فالمؤيد) حينمـا قسم الدولة بينهم، وأوقع الخلاف فـيهم بتحيزه للمعـتز، فتحيز الأتراك للمنتصر وكان ذلك سـببا فى قتل المتوكل فى منتصف القرن الثالث الهجرى. وقـد تميزت تلك الفترة بكثرة الفتن والحروب بين طوائف الجند وبينهم وبين «العـمال» فـتوقفت الأعـمال وغلت الأسـعار وتعطلت الزراعة لفقدان الأمن وكثرة التعدى والظلم، وزاد من ذلك البلاء أن أكثر ما حفرته الدولة فى عقودها الأولى من الترع والأنهار لتسهيل الرى انسد بالحـروب وتميـز حكم البـويهـيين بإقـطاع الأراضى والقـرى للجند بدلا من الرواتب (انظر مسكويه «تجارب الأمم») كما تميزت بكثرة المؤامرات التى كانت تحاك فى قصور الدولة، يتجاذبها طرفان: القواد العسكريون من جهة والكتاب والوزراء من جهة ثانية، كـما لعبت أمهات الخلفاء دورا كـبيرا فى إذكاء ذلك الصـراع. وكان ذلك الوضع السـياسى يستمـد ضعفـه من اضطراب الحـياة الاجتـماعية وكـثرة الاضطرابات والقلاقل، فخـلال تلك المرحلة الطويلة من أواخر عهد المأمون، حتى عهد الخلفاء الضعاف (المعتمد، المعتضد، المكتفى)، أى منذ العقـود الأولى من القرن ـ الثالث حـتى نهايتـه وبداية القرن الرابع، ظهرت أكثر الثورات والحـركات الاجتماعية أهمية فى الـدولة العباسية، تلك الحركـات التى اتخذت من سـوء الأحوال الاجتـماعـية والاقتـصادية مـبررا

---

1 ـ د. محمد نجيب أبو طالب ـ المرجع السابق ص163 وانظر: ميتز (آدم) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ1 ص377 / 378.

لعصيانها وخروجها على سلطة العباسيين، حيث ثارت البابكية فى خراسان، وثار القرامطة فى البحرين، وثار الزنج فى سواد العراق واستمرت تحرشات الشطار والعيارين فى بغداد. كان ذلك صورة موجزة عن الطريقة التى كان يجرى عليها الصراع السياسى داخل الدولة بين العباسيين أنفسهم وبينهم وبين العصبية الخرسانية ثم التركية[1].

* * *

1 ـ د. محمد نجيب أبو طالب ـ نفس المرجع ص164.

المحتويات

الموضوع	الصفحة

في هذا الكتاب



التاريخ السياسي والحضاري للدولة العباسية

المؤلف في سطور

- من مواطني دولة الإمارات العربية المتحدة.
- رئيس مركز العيدروس للدراسات والاستشارات ومجموعة العيدروس التجارية.
- حاصل على الليسانس من لبنان والماجستير في التطورات السياسية في الامارات العربية 1932 - 1971 والدكتوراه من مصر عام 1983 في العلاقات العربية الايرانية 1921 - 1971.
- عمل في دائرة الإسكان والمشتريات بالحكومة المحلية في إمارة أبو ظبي 1970 - 1973 ثم مديرا للعلاقات الثقافية بالحكومة الاتحادية لدولة الامارات العربية المتحدة 1979 - 1984، ثم جامعة الإمارات العربية المتحدة 1984 - 1993 وقام بالتدريس في كلية زايد العسكرية في مدينة العين وكذلك بكلية الظفرة الجوية في أبو ظبي، كما شارك في دورة تدريب الدبلوماسيين في وزارة الخارجية بدولة الإمارات العربية المتحدة، ثم في جامعة الكويت 1993 - 2000 ثم في جامعة روتردام الاسلامية بهولندا 2000 - 2002، ثم في القوات المسلحة لدولة الامارات العربية المتحدة في الفترة من 2002-06 ... الإمارات للتاريخ العسكـ... اسكاندافيا للاتصال ... السويد من عام 2007 ... في العديد من الجمعيـ... والدولية وعضو في ... المؤرخين العرب منذ عـ... ورئيس تحرير مجلة ... الإسلامية.
- صدر له أكثر من اثنى عشر كتابا وأكثر من أربعين بحثا معظمها في الخليج العربي والدراسات العربية والإسلامية.